الفكـر الإسـلامي وتموجاته عـبر القرون

د. عبدالله أبـو عـزة

موقع المؤلف على الإنترنت /Abdullahabuizza.com

للاتصال بالمؤلف :
aabuezzah@gmail.com/

aabuezzah@yahoo.com/

بســم اللـــه الرحمــن الــرحــيم

الــــمــحــتــوى

تــقـديم:

الفكر والتفكير ظاهرة إنسانية ، تتعلق بالإنسان وتخصه دون غيره من الكائنات الحية[1] . وقد ظهر الفكر والتفكير مع الإنسان العاقل منذ ظهور هذا الإنسان في عالمنا، كرة الأرض. وبلغة المؤمنين بالله نقول إن الفكر ظهر منذ خلق الله آدم ، الإنسان الأول ، وميزه بالعقل وزوده بمقدارمن العلم ، وبقدرة على إنتاج وجمع الفكر والعلم ، والتعبير عنه واختزانه وتبادله ونشره وتوريثة.

والفكر ظاهرة تعددية تفوق الحصر في كثرتها وتنوع مراتبها ومستوياتها ؛ فكل إنسان فرد له فكر ، وكل مجموعة بشرية مترابطة لها فكر يتناسب مع تطلعاتها وآمالها: الأسرة والقبيلة والعشيرة والشعب والتيارات الفكرية المتعددة في مستوياتها وحجمها وقضاياها. وينطلق الفكر الفردي والجمعي من الداوافع الأساسية التي زود الله الخالق بها الانسان فردا وجمعا ، سيمر بها القارئ في صفحات تالية [2] .

أما ما نعنيه **بالفكر الإسلامي** خاصة فهو ذلك الفكر الجديد الذي صاحب ظهوره الانطلاقة الأولى للدعوة الإسلامية بدءا من سنة 610 ميلادية؛ وأما نسبته "الإسلامي" فهي نسبة إلى المسلمين، إلى الناس الذين اعتنقوه ويعتنقونه من الأجيال المتتابعة.
والفكر الإسلامي ليس بالفكر النظري المجرد ، إنه فكر عملي أفرزه الإيمان بمضمون النص القرآني والتوجيه النبوي والممارسة السلوكية العملية المصاحبة ، وكانت تلك بدايته. ثم إنه تواصل بعد انطلاقــتــه موازيا لاستمرار مسيرة الدعوة في العقود

---

[1] هذا بغض النظر عن أن الفرد الواحد من الحيوانات يمارس التفكير بمقياس صغير، بشأن طعامه ، وأمنه ولعبه ، وحماية أولاده أثناء فترة الحضانة القصيرة.

[2] ص 6 - 9

الثلاثة الأولى من عمرها ، خلال العهد النبوي والعهد الراشدي ؛ ثم واجه ما تبع ذلك من التعثرات والانعطافات ، وما تعرض له وتأثر به من أزمات داخلية وخارجية عبر القرون التالية. ولا مراء في أن هذه الفترة طويلة وواسعة جدا من حيث الامتداد الزماني والمكاني ، ومع ذلك فإن مسيرتنا البحثية في هذه الساحة الواسعة لن تتعرض للضياع أو الغرق إن شاء الله ، لأننا لا نسير في غابة مجهولة ومعتمة ، بل نسير في طرق مألوفة ومعروفة لنا ولكثيرين غيرنا. فعدا عما حفظته المصادر الأصلية المتنوعة ، فإن هناك الكثير من الكتابات والدراسات التي تتابعت طوال القرون الماضية، من مستويات متعددة ومتباينة،وبلغات مختلفة ، منها الموضوعي وخلافه. ومهما يكن من أمر المصاعب المنتظرة فإننا سنحاول تركيز الضوءعلى المنطلقات والمحاور الرئيسية للموضوع .

الفصل الأول

المصادر الأساسية للفكر الإسلامي

(1) الـقـرآن الكـريـم :

تعريفه :

القــرآن الكريم ، بالنسبة لكل من يعتنق الإسلام ويؤمن به حق الإيمان ويمارسه عمليا ، هوأصل أصول الدين وأهمها وأعلاها منزلة، ولذا فهو الحاكم عليها جميعا ، وهو الميزان الدقيق الذي تقاس به كل قيمة ، وكل ما يؤخذ من الأصول الأخرى.
وهذا البيان الذي ينوه بأهم البديهيات ينطلق من حقيقة أن القرآن هو خطاب الله عز وجل وكلامه لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وخطابه للناس جميعا، وبآيته الأولى كانت بداية الانطلاق : " **إقرأ باسم ربك الذي خلق**[3] ، **خلق الإنسان من علق...**" فمنها انبثق الأمر والتكليف لرسول الإسلام وما تبع ذلك من تحركه في مسار الدعوة الإسلامية.

وبكلمات القرآن نفسه يعرف الله سبحانه وتعالى كتابه ، ومن أمثلة هذا التعريف : " **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**[4]." ومن بداية كتابه ، أي من فاتحة الكتاب ، يعرف الله نفسه وكيفية فهم المخلوق لخالقه :

((الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك

نستعين. إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليه ولا الضالين)). ثم يظهر مزيد من التعريف بعد ذلك في العديد من صفحات وسور القرآن ، ضمن سياقات كثيرة يتكامل فيها التعريف مع موضوع ومضمون النص في تناسق جلي.

---

[3] ســورة العلق/1 - 2 .

[4] ســورة الإسراء / 9.

والله سبحانه وتعالى خلق الكون وأراده خلقا ينبض بالحياة ، ولم يرده راكدا ساكنا ميتا ، فكانت الحركة في المجرات الضخمة التي لا يعلم عددها وحجمها إلا الله ولم يعرف الإنسان إلا النزر اليسير من المعلومات المتعلقة بها حتى الآن، وفي النجوم والشموس وفي الحياة على هذه الأرض التي تقلنا وتؤوينا ، ومعنا مختلف أنواع الحياة التي نعرفها ، من الإنسان والحيوان والنبات في البر والبحر وفي المحيطات التي تغطي نحو ثمانين في المئـة من مساحة كرة الأرض .

ومن الواضح مما نشاهده من تتابع واستمرار دورات الحياة من حولنا، وما سبقنا من أجيال وقرون وأمم أن الخالق جل وعلا عندما أطلق الحركة ثم الحياة في الكون خلق معها وربط بها أدوات وآليات استمرارها ، سواء في ذلك حركة الشمس في إطار مجرتها، وحركة كرة الأرض حول محورها (حول نفسها)، ثم حركتها حول الشمس، وما ينتج عن ذلك من تعاقب الليل والنهار، والنور والظلام، وتوالي وتكرار الفصول السنوية ، وما تتميز به من الأمطار واالصحو والجفاف ، وكذلك تعاقب أجيال الكائنات الحية في كوكبنا الأرضي من الإنسان والحيوان والنبات في أجيال متتالية لا يتوقف تتابعها، بجانب ما تحويه البحار والمحيطات، وكذلك التجدد الذاتي للأحياء وللأجيال المتتابعة عن طريق العلاقات الجنسية بين الذكور والإناث ؛ وهذه الأشياء بمجموعها هي ما نسميه الطبيعة ، والطبيعة من خلق الله.

القرآن يبين تميز الوضع الإنساني:

في عقيدة المسلمين ، وفيما بينه القرآن الكريم ، يجد الباحث والمتأمل أن خلق الإنسان كان حالة خاصة في هذا المسار المزدحم من تعدد أنواع المخلوقات ؛ والقرآن يخصه ببيان يفصح عن تفرده واختلافه عن كل ما حوله ، باعتبار أن الله جل شأنه قد اصطفاه ، أي اختاره من بين جميع الكائنات الحية ، وعلمه وأعده لممارسة دوره في عمارة الأرض وقيادة مسيرة الحياة فيها بإذن الخالق وإرادته ، وكان من أهم مفردات هذا الإعداد تميز الإنسان عن كل ماعداه بالعقل ، وبتعليمه الكلام ، ثم أضاف الله إليه العلم من خلال الأنبياء والكتب ، بجانب العلم الذي يكتسبه البشر من خلال النظر فيما حولهم وما فوقهم وما تحتهم باستخدام عقولهم ، وما يمكن أن يتولد ويتراكم في عقولهم وذاكراتهم من تجاربهم وتعاملهم مع ذلك كله.

ومنذ خلق الله آدم ، الإنسان الأول، في زمن ومكان لم نعرفه ، وليس لنا طريق إلى معرفته ؛ أو دعونا نتكلم بلغة أخرى لمن يفضلونها : منذ ظهور الإنسان العاقل على وجه الأرض في وقت ومكان لا نعلم تاريخه ، وليس ثمة طريق إلى أي علم يقيني عن ذلك [5]، ما زالت هذه الحالة الخاصة التي صارت للأنسان العاقل ، وما اتصفت به حياته ودوره المتفرد والمتميز في قيادة الحياة على وجه الأرض ، ما زالت هذه الحالة قائمة عمليا وماديا ، من غير أن يظهر أي احتمال أو مؤشرات توحي بتغيرها ، وذلك رغم كل المحاولات التي بذلت من أجل تعليم القرود الكلام أوالقراءة والكتابة. لقد تعلمت بعض القرود التدخين ، كما تعلم بعضها احتساء الخمر ، لكنها رفضت العودة إلى شرب الخمر ثانية بعد أن جربت السكر والثمالة وما يصاحبهما وينتج عنهما ، كما أخبرنا تشارلز دارون[6].

دوافع الحركة والنشاط :

وقد زود الله الإنسان بالدوافع التي تحرك الجنس البشري وتنشطه للقيام بدور فاعل ومؤثر في مجمل مظاهر الحياة على وجه هذا الكوكب الأرضي الذي نسميه "العالم" ، فضلا عن دور هذه الدوافع في تجدد الأجيال البشرية واستمرار النوع الإنساني كما نفهم من الآية القرآنية التالية :

((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب.[7]..)) كما زود الله الآنسان بالقدرات والأدوات التي تمكنه من القيام بدوره المحدد الذي وصفنا.

فهذا المحرك (**التزيين للناس** الذي يعني:غرس الحب التلقائي وجاذبيته القوية في النفوس) وفوقه العقل والعلم والقدرة على الكلام والتواصل، التي يتميز بهما الإنسان عن جميع الكائنات الحية ، كلها مجتمعة، تنوه بخصوصية الدور الإنساني في عملية التدافع بين البشر ، ما كان منه بين الأفراد ، وما كان بين الجماعات البشرية المختلفة ، بجانب ما يتركه من آثار في الكائنات الأخرى غير البشرية. ولا يفوتنا هنا

---

[5] أنظر تقريرا مختصر عن أحدث ما توصل إليه أبرز علماء الأنثروبولوجي في عصرنا : Fred H. Smith, "Models and realities in Modern Human Origins", ***The Origin of Modern Humans and the Impact of Chronometric dating***, Edited by M.J. Aitken et al,(Princeton Universty Press, New Jersey, 1993) ,pp 234 - 245.

[6] Charles Darwin,***The Descent of Man***, (Kindle Edition), Part I, Chapter 1, location 221-226.

[7] سورة أل عمران / 14.

أن ننبه إلى أن فعل التزيين للناس الذي ورد بصيغة المبني للمجهول ، إنما هو من فعل الخالق سبحانه وبإرادته وتقديره، ولم يأت صدفة أو عرضا.

إذا ، هذا التدافع هو المحرك الأهم في حياة الجنس البشري. وقد أخبرنا الله بكلمات من القرآن عن مدى أهميتـه :

((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض[8]...)) ، **((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا[9]...))** وهو، أعني التدافع ، صمم ليؤدي إلى نتيجة محددة لازمة ومرغوبة ، وقد بين الله فيه صفة التدافع المباح والمرغوب دون ملامة أو تثريب: **((ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم[10].))** إدفع بالتي هي أحسن ، من حيث الأسلوب واللغة والكلمات وطريقة التعامل مع الناس ، أفرادا وجماعات.

ولعل من المناسب أن نعدد ونفصل هنا ما أشار إليه القرآن من الدوافع باختصار، لنتيح للقراء فرصة التأمل ، والتفاعل الفكري مع أبعاد تأثير هذه الرغبات والشهوات التي تدفع الإنسان تلقائيا للنشاط والحركة، ليخرج القارئ من تجربة التفاعل هذه برؤية وموقف واختيار واضح :

الدوافع التي ذكر القرآن بعض أمثلة منها:

1) حب الحياة والسعي لتحصيل ما ينميها ويثريها ويغمرها بالسعادة ،

2) كراهية الموت والفرار منه والابتعاد عن خطره وعما يقرب إليه ،

3) حب الطعام والشراب ، وكل ما يبدو للفرد جميلا ومفيدا، وهذا مرتبط بحب الحياة ومعبر عنه ،

4) حب إنجاب الأولاد ، البنين والبنات ، وما ينتج عنه من تجدد الأجيال،

---

[8] سورة البقرة / 251

[9] سورة الحج / 40

[10] سورة فصلت / 34

5) حب الاستمتاع الجسدي بين النساء والرجال ، والذكور والإناث عامة ، وتلك هي الطريقة الوحيدة المؤدية لاستمرار حياة النوع الإنساني وتجدده وعدم انقراضه ، وكذلك الأمر بالنسبة للأنواع الحيوانية.

6) حب حيازة المال والثروة والاستكثار منها فوق الحاجة ، دون حدود ،

7) حب السلطة والمكانة العالية والاستكثار منها ، واحتكارها والتباهي بها،

8) حب الاستطلاع والمعرفة ، وفي ذلك يتفاوت الأفراد تفاوتا كبيرا

9) حب المديح والثناء ،

وهذه الأنواع من الدوافع ومن الحب موجودة في الطبيعة البشرية ، وبعضها موجود لدى الحيوانات كما ذكرنا ، وهي جزء من خلق الله ، كما نوه بذلك القرآن ، ليست ممنوعة ولا مستنكرة إلا في حالات الإسراف والانحراف التي تخرج بها عن أهدافها الخلقية (بفتح الخاء وتسكين اللام) الطبيعية ، وذلك حين يعمد بعض الناس إلى جعل الاستمتاع بها كل أهدافه في الحياة ويستكثر منها بغير حساب. بل إن القرآن يأمر بها ويشجع على ممارستها والاستمتاع بها في الحدود التي لا تقترب من الإسراف والمبالغة المذمومة ؛ ومن أبسط أمثلة التشجيع القرآني وأقربها :

((نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين[11].))

((يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ،وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين[12].))

ومعنى ذلك بوضوح تام أن الهدف من خلق هذه الدوافع وتزيينها للناس ليس المتعة واللذة فقط ، وإنما الهدف الأول والأهم من ذلك هو ما ينتج عن الممارسة من تجدد الأجيال، وما يصاحبه من نشاط وحركة وسعي وإنتاج وبناء ؛ وهذا يؤكد لنا أن الذين يسرفون ويسمحون لآنفسهم بالإنسياق وراء الاستمتاع باللذات الحسية دون حدود ، والغرق في بحرها الواسع ويكتفون بذلك ، قد تخلوا عن القيام بدورهم ، وأداء واجبهم

[11] سـورة البقرة / 223

[12] سورة الأعراف /34

في التشكيل الصحيح لهيكلية مسيرة الإنسان ودوره البناء المفترض في قيادة الحياة في الأرض.

ثم إن اقتران ممارسة هذه الدوافع باللذه والرغبة الذاتية المصاحبة لها هو الأداة والدافع الذاتي ، والضمانة اللازمة لجعل الإنسان الفرد يندفع تلقائيا للاستمتاع بها ، وبالتالي تحقيق هدفها الأصلي سواء أراده أم لم يرده. ولولا هذه الدوافع الحسية وقوتها لعزف كثيرون ، بل الأكثرون ، عن ممارسة الاتصال الجنسي يسبب ما يلحقه ويرتبط به من التزامات وتكاليف طويلة المدى مثل الحمل والولادة والإرضاع والحضانة والإعالة ، بل وحتى مجرد الإتصال الجسدي بشخص آخر على النحو الذي يحدث بين الناس، سيكون منفرا لو زالت اللذة الحسية المصاحبة. ولولا الشعور بالعطش الشديد عند نقص الماء في الجسد لما اندفع الإنسان يطلب الماء أو بديلا له من السوائل ، ويمكن أن يقال ذلك عن نقص الغذاء عن الحد الأدنى الضروري ؛ وقس على ذلك غيره.

و**القرآن** هو النص القرآني وحده ، لا يعد منه ولا يدخل فيه أي شئ من التفسير أو التعليق ، كما لا يدخل فيه أي جزء من الحديث النبوي. وقد تجنب المسلمون ـ بشكل عام مع استثنآت يسيرة ـ طوال القرن الهجري الأول -- كتابة الحديث النبوي خشية أن يحدث اختلاط لبعضه بالنص القرآني المحفوظ والمميز في المصاحف منذ العهد الرشدي ، خلال العقدين التاليين لوفاة رسـول الله صلى الله عليه وسلم . ويمتد النص القرآني ضمن مئـة وأربع عشرة سورة ، أطولها سـورة البقـرة (السورة رقم 2) التي يعادل حجم نصها عشر حجم النص القرآني كله تقريبا ؛ بينما لا يزيد حجم أصغر السور عن عشر كلمات. ولغة القرآن التي نزل بها هي العربية ، عربية بلهجة أهل مكة وقبيلة قريش بالذات، لأن القرآن نزل أول ما نزل في مكة ، موطن قريش ، فكانت قريش ومكة أول المتلقين والمخاطبين ، وأول المبلغين ، ومنها كان النبي الرسول صلى الله عليه وسلم، كما كان منها أوائل المستجيبين من الصحابة ، ومنها انطلقت مسيرة الدعوة. ولأن لهجة قريش - من بين اللهجات في الجزيرة العربية - كانت لغة وسطا بين كل اللهجات ، والأكثر إمكانية بأن تكون اللغة الجامعة، لكون مكة ملتقى الحجيج من قبل ظهور الإسلام ، ولكونها محطة للقوافل التجارية القادمة من اليمن متجهة إلى الشام وبالعكس.

وكما يحمل القرآن التوجيهات السلوكية الجزئية والكلية ، ويعنى بالحوادث الصغيرة والكبيرة ، فإنه يعنى كذلك بالمبادئ الرئيسية في توجيه وتنظيم وضبط الحياة الإنسانية عامة. والنص القرآني لم ينزل دفعة واحدة ، بل نزل منجما مجزءا ، قطعا متفاوتة

الحجم ، على قدر الموضوع الذي تناولته كل قطعة. وخلال فترة التنزيل التي امتدت ثلاثا وعشرين سنة كان النص القرآني يعنى بالأحداث والمواقف والحالات التي تظهر في حياة المجتمع المسلم الصغير وعلاقته بجواره، سلمية كانت أو عدائية ؛ ولم ينزل نصه مكتوبا، بل نزل كلاما بالصوت، كلمات وعبارات وجمل ، وحيا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وكان النص يدون بعد نزوله بيد أحد كتاب الوحي المعروفين ، وأشهرهم زيد بن ثابت ؛ وكان ممن ساهم في كتابة الوحي كذلك: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبي بن كعب، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية ابن أبي سفيان ؛ غير أن **زيد بن ثابت** ظل المعتمد الرئيس في كتابة القرآن ، حتى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في خلافة كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكان له الدور الرئيس في جمع القرآن وإعادة كتابته نتيجة لما اكتسبه من خبرة.

ولم تكن أدوات الكتابة متوافرة، ولم يكن الورق معروفا؛ فاستخدمت للكتابة مواد متنوعة ، مثل بعض القطع من عظام أكتاف الحيوانات التي تكون فيها مساحة صغيرة ممتدة تسمح بكتابة نص صغير الحجم، كما استخدمت سعف النخيل ، وربما استخدمت جلود الحيوانات أحيانا، لكن الجلود كانت مادة مرتفعة الأثمان ، لأنها كانت مادة الملابس الدافئة شتاء ، حيث تلبس بفروها ، وكانت تصنع منها قراب السيوف ، والنعال ، كما كانت تصنع منها القرب (جمع قربة) لنقل وحفظ المياه، حيث لم تكن صناعة الفخار شائعة في صحراء جزيرة العرب ؛ هذا عدا عن أن إعداد الجلد ليكون صالحا للكتابة كان يعتبر عملا فنيا شاقا، خاصة في مجتمع أمي كان الطلب على مواد الكتابة فيه شبه معدوم. وهذا كله يعني ندرة استعمال الجلد لكتابة النص القرآني على نطاق واسع. وقد نشرت قناة الجزيرة الإخبارية بتاريخ الحادي والعشرين من شهر نيسان/ابريل 2015م خبرا عن وجود نسخة خطية من القرآن بعنوان "أقدم مخطوطة قرآنية في العالم محفوظة في مكتبة برلين... ترقد في برلين أقدم مخطوطة قرآنية في العالم يعود تاريخها للسنوات الأولى من الهجرة وفق ما تؤكده نتائج دراسات تمولها حكومتا ألمانيا وفرنسا بشأن التتطور التاريخي لتدوين وكتابة القرآن الكريم..." وذلك حسب ما أكده مؤخرا أهم مركز تحليل تقني في سويسرا ... وتؤكد نتائج توصل إليها

مركز التحليل الاتحادي السويسري في زيورخ أن المخطوطة القرآنية تعتبر الأقدم في العالم، ويعود تاريخها للفترة بين عامي 606 و 652 ميلادي.[13]

وعند جمع القرآن ألحقت النصوص المجزأة بالسور. وفي كل سنة - خلال عهد البعثة النبوية - كانت أعداد جديدة ممن كانوا أطفالا ثم كبروا ، تنضم إلى الجمهور المخاطب المتلقي للقرآن. وهذا الجزء الجديد من الجمهور المتلقي لم يكن يجد نسخا مطبوعة أو مكتوبة أو خطية من القرآن، لكي يتعرف عليها ويقرأها ، فكان بعض الخطاب السابق يتكرر بنصه أو بمعناه لتلبية حاجة المتلقين الجدد الذين انتقلوا من حالة الطفولة إلى حالة الرشد والبلوغ ؛ هذا بالإضافة إلى مسلمين جدد انضموا للمجتمع الإسلامي الناشئ المتنامي .

وقد نزل القرآن في مجتمع أمي ، وحمله نبي أمي ، بيد أنه لم ينزل لذلك المجتمع وحده ، بل قصد به أن يكون هاديا ومرشدا لكل الأجيال التالية من المسلمين، فضلا عن أن الخطاب القرآني لم ينزل لمخاطبة مستوى واحد من المتلقين ، وإنما جاءت آياته في إطار ومستوى يفهمه الأمي والمتعلم ، والفيلسوف والجاهل ، خاصة في الأساسيات حيث يظهر الخطاب بسيطا واضحا. وفضلا عن ذلك فأنه لم يقصد به تعليم الناس علوم الفلك والتاريخ والجيولوجيا والجغرافيا ، وغيرها من العلوم الطبيعية والإنسانية ، لأن الناس المتلقين كانت لديهم أفكار ومعلومات سابقة - منها الصحيح ومنها المتوهم الذي لا يتصورون غيره ؛ ولو أن القرآن أعلن الحقائق المناقضة لما يعتقدون إذا لسارعوا برفضه وتكذيبه ؛ والقرآن هدفه الأول والأهم هو هداية الإنسان إلى طريق الله ، والعمل والسلوك القويم ، والتزام ذلك في كل سبل الحياة الاجتماعية.

لقد ظل الناس يعتقدون أن الأرض منبسطة وممتدة كما يشاهدونها عن قرب، وبما يتفق مع المفاهيم السائدة التي كانت تعتبر علمية آنذاك - حسب نظرية بطليموس المصري الإسكندري اليوناني [14] ، وقد استمر الاعتقاد بأن الأرض هي مركز الكون ، وأن الشمس هي الدوارة حولها ، إلى أن جاء كوبرنيكوس البولندي واكتشف من خلال استخدام التلسكوب (المنظار المقرب) الذي اخترعه ، وأعلن أن الشمس هي مركز عالمنا، وأن الأرض تدور حولها. ولهذا السبب عارضته البابوية والكنيسة الكاثوليكية

---

[13] http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2015/4/21/
ويبدو أن هذه النسخة كانت قد كتبت على قطعة من الجلد

[14] See ***Encyclopedia Britanica*, Chicago 2011, article: Ptolemy, Theory of Solar System.**

واضطهدته ، ولم ينقذه من الإعدام حرقا إلا عندما رضخ وأعلن التراجع عما اكتشفه وآمن به ، خوفا على حياته.

وعلى الرغم من أن القرآن تكلم عن شكل السماء والأرض كما يراها الناس بأعينهم المجردة ، فإنه - مع ذلك - قد أشار إلى كثير من مظاهر الطبيعة الحقيقية :

((أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد - رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج [15].))

((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ، كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور[16].))
((قل انظروا ماذا في السماوات والأرض، وما تغني الآيات والنذرعن قوم لا يؤمنون[17].)) ، كما أورد مشاهد مختصرة من حياة وتطورات تاريخ الأمم الماضية . وبجانب ذلك كله فإن الإسلام شجع الإنسان على طلب العلم دون حدود.

وقد ترجم القرآن في عصور تالية إلى لغات أخرى، لكن المستعمل في العبادة، وفي الصلاة بالذات هو النص الأصلي العربي، حيث لا يجوز استعمال النص المترجم في الصلاة ، إذ من الصعب أن تكون الترجمة متطابقة تماما مع اللغة الأصلية.

القرآن والكتاب المقدس لليهود والمسيحيين:

ويختلف أسلوب النص القرآني عن أسلوب النص في كتابي ***العهد القديم والعهد الجديد*** لليهود والمسيحيين ، فعندما نقرأ، البايبل، "الكتاب المقدس" المذكور، نجد أن الغالب فيه أسلوب القصة والحكاية البسيطة - مثل الروايات الشفوية التاريخية - كما يتبين من الأمثلة التالية :

بداية الإصحاح الأول من سفر التكوين :

---

[15] سـورة ق / 6 - 11.
[16] سـورة فاطر / 27 - 28.
[17] سـورة يونس / 101.

" تكوين 1

1 في البدء خلق الله الســـماوات والأرض 2وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه 3وقال الله ليكن نور ، فكان نور 4 ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة، 5 ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا وكان صباح وكان مساء يوما واحدا.

...

21 ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا. وكان مساء وكان صباح يوما سادسا

تكوين 2

الإصحاح الثانـــــي

1 فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. 2 وفرغ الله في اليوم السابع من كل عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل.

3 وبارك الله في اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا... "

وهذا اقتباس ثان من ســـفر الخروج، وهو السفر الثاني من العهد القديم :

الخروج : الإصحاح الأول:

"وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر. مع يعقوب جاء كل إنسان وبيته، رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا وبســاكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وحاد وأشير. وكانت نفوس جميع الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسا. ولكن يوسف كان في مصر. ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل. وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم.

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف : هو ذا بنو إسرائيل ، شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون أنهم إذا حدث حرب أنهم ينضموا إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم..."

وهذا اقتباس ثالث من سفر اللاويين، الثالث من أسفار العهد القديم:

اللاويين ، الإصحاح الأول:

ودعا الرب موسى من خيمة الاجتماع قائلا:

كلم بني إسرائيل وقل لهم : إذا قرب إنسان منكم قربانا للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرابينكم. إن كان قربانه محرقة من البقر فذكرا صحيحا يقربه ، إلى باب خيمة الاجتماع يقدمه للرضاعة أمام الرب ..."

من كتاب العهد الجديد:

وهذا مثال رابع من إنجيل متى من كتاب العهد الجديد:

وعندما ننظر في الإصحاح الأول من إنجيل متى نجده يسرد تتابع أسماء الأجيال من إبراهيم نبي الله ،عليه السلام ، إلى يوسف الذي كانت مريم، أم المسيح عليهما السلام مخطوبة له ليتزوجها، ثم يتبع ذلك بالقول :

((... إبراهيم ولد إسحاق ، وإسحاق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته ... فجميع الأجيال من إبرهيم إلى داود أربعة عشر جيلا ، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلا ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا. أما ولادة يسوع **المسيح** فكانت هكذا: ((لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ...)) ويواصل سرد قصة الولادة.

وهذا مثال خامس من الإصحاح الثاني من إنجيل متى :

الإصحاح الثاني

1 ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود ، فإنا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له. فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه.

[كل هذه الاقتباسات أخذت من ***الكتاب المقدس*** ، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ، ترجم من اللغات الأصلية إلى العربية ، تصدرها جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى ، بيروت ، ساحة النجمة ، 1970]

أمثلة من القرآن :

فإذا تحولنا إلى النص القرآني يتبين لنا اختلاف أسلوب **القرآن** عن أسلوب **العهد القديم والعهد الجديد** واضحا تماما من البداية؛ السورة الأولى من ***القرآن*** ، الفاتحة ، تعرف المؤمنين وتدربهم عمليا على أن يبدأوا كل عمل باسم الله الخالق وبحمده والثناء عليه والتنويه بقدرته وبرحمته لخلقه **:**

السورة الأولى (الفاتحة):

((بسم الله الرحمن الرحيم (1) **الحمد لله رب العالمين** (2)، **الرحمن الرحيم** (3) ، **مالك يوم الدين** (4) **إياك نعبد وإياك نستعين**(5). **إهدنا الصراط المستقيم**،(6) **صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.** (7).

السورة الثانية (البقرة):

تبدأ وكأنها استجابة للدعاء الطلب، المتضمن في الآيتين السادسة والسابعة من الفاتحة ، فتعلن مصدر الهداية والصراط المستقيم الذي يقود إليها: **((ا ل م** (1)، **ذلك الكتاب، لا ريب فيه هدى للمتقين** (2) ، **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** (3) ...)).

السورة الثالثة (آل عمران):

وتأتي بمزيد من التعريف بالله وبكتابه : **((أ ل م** (1) ، **الله لا إلاه إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان.))** .

السورة الرابعة (النساء) :

((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ؛ إن الله كان عليكم رقيبا 1 **. وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيرا** 2 **.))**

وهنا في افتتاح هذه السورة نجد تركيز الضوء على **وحدة الإنسانية** التي خلقت من نفس واحدة، وما يتبع ذلك من معاني المساواة والتقارب والتراحم والتعاون.

وتبدأ السورة الخامسة ، سورة المائدة ، بصيغة الأمر الإرشادي : **((يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد.))**

ويلاحظ من يقرأ القرآن أن خطابه لا ينحصر في المبادئ العامة والمسائل الرئيسية فحسب ، بل إنه كثيرا ما يخرج من دائرة هذه المبادئ والموضوعات ليتناول تفاصيل حالات من المواقف والمشكلات ، الفردية والجماعية اليومية ، وحلولها، وما يعرض للأفراد والجماعات في حياتهم من أحداث وأحاديث ، ومن تلك التي كانت تظهر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي حياة أفراد من المسلمين في تواصلهم الإيجابي أو السلبي مع مكونات المجتمع المكي الوثني الذي عاشوا فيه اثنتي عشر سنة قبل الهجرة ، ومن أمثلة ذلك :

عندما قال مشركو مكة للنبي صلى الله عليه وسلم : **"**نعبد إلاهك يوما و تعبد آلهتنا يوما**"** (وفي تفسير ابن كثير: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة)، جاءت سورة الكافرون ، تحدد للنبي ما ينبغي أن يرد به عليهم: ((**قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين[18].))** . فهذا أمر من الله لرسوله: قل لهم ورد عليهم: لا أعبد ما تعبدون ... لكم دينكم ولي دين.
وفي آية أخرى يصف القرآن موقف قريش من المولودة الأنثى : ((**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؛ ألا ساء ما يحكمون.[19]))**

---

[18] سـورة الكا فرون / 1 - 6 .
[19] سورة النحل /58 - 95.

ويعلق النص القرآني على قول بعض المنافقين المعادين لرسول الله والمسلمين:((**يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؛ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون[20].))**

ومثل ما حدث في موقف بين النبي صلى الله عليه وسلم وواحد من الصحابة كان كفيف البصر ، فبينما كان رسول الله منشغلا بالحديث مع واحد من زعماء قريش محاولا إقناعه بالدخول في الإسلام ، وبينما هو في ذلك الموقف وقد بدا له أن ذلك الزعيم القرشي صار على وشك القبول والدخول في الإسلام ، إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان ممن أسلم قديما، فجعل يسأل النبي عن شئ ويلح في السؤال ، فتضايق النبي من إلحاحه في تلك اللحظة الحرجة ، وعبس في وجهه وأعرض عنه. وبالرغم من أن ذلك الصحابي الكفيف لم ير العبوس فقد نزل الوحي القرآني منبها للنبي تنبيها لا يخلو من معنى اللوم :((**عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى؛ أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ؛ وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى فأنت عنه تلهى[21].))**

التطور الذي ظهر في التوجيهات القرآنية بعد الهجرة:

وبعد هجرة النبي والمسلمين من مكة إلى المدينة سنة 622 م. / 1هـ. ، ظهر المجتمع الإسلامي الناشئ مستقلا ، وإذ ذاك تغيرت طبيعة التوجيهات القرآنية ، وصار بعض الوحي القرآني في العهد المديني الزاميا مفروض الطاعة ضمن مجتمع المسلمين ويستوجب عدم الالتزام به عقوبة رادعة ، بينما قبوله واتباعه عمليا يجلب الثناء والتقدير المعنوي والاجتماعي، مقترنا بالتأكيد على الجزاء الصالح والكامل يوم الحساب في الآخرة. لقد تطورت بعض التوجيهات القرآنية لتصبح قوانين يتعرض مخالفوها للعقوبات الواجبة التنفيذ عمليا ، وعلانية في بعض الأحوال ، وتسهر السلطة على متابعتها وتنفيذها ، وذلك بجانب الاســتنكار الاجتماعي الضاغط ؛ بيد أن هذا الإلزام لم يكن يشـــمل غيرالمسلمين في مجتمع المدينة وما حوله وما قرب منه، من

---

[20] ســورة المنافقين / 8 ,

[21] سورة عبس ، وأنظر تفسير ابن كثير لسورة عبس / 1-11.

اليهود والمسيحيين إلا في الحالات التي تعتبر اعتداء على حقوق الآخرين ، أو يكون أحد أطرافها من المسلمين والآخر من غيرهم .

السـنة : المصدر الثاني للتشريع والفقه:

والسنة هي كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل ، وبجانب ذلك ما أقره من تصرفات أصحابه واقوالهم. وكان من أهم ما صدر عن النبي وسجل كتابة بعد الهجرة نص مكتوب حدد به النبي إطار التعامل والعلاقات بين كل المجموعات البشرية التي ضمتها المدينة وما حولها، وقد عرفت تلك الوثيقة حديثا باسم "دستور المدينة". لقد صاغ النبي صلى الله عليه وسلم ما يمكن اعتباره دستورا بسيطا، وكان مفتتح النص - كما ورد في مصدره - هكذا:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ؛ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ؛ وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ..."

ونتوقف هنا لأن النص طويل جدا يتتبع أسماء القبائل واحدة تلو الأخرى بنفس الألفاظ مكررة، ولذا سأعرض خلاصة نصوص الدستور ، ومن أراد من القراء متابعة النص الأصلي مفصلا فعليه بالمصدر : ***السيرة النبوية لابن هشام*** [22]، ص 254-255.

[22] ولسنا نعرف إن كان النص قد ورد عن النبي كما هو ، أن النص الوارد في المصدر صاغه مؤلفه ابن هشام ، أو نقله عن صيغة نقلها عن ابن إسحاق ، وهذا ما أميل إلى ترجيحه.

وبالنسبة لمعاني بعض الألفاظ غير الشائعة : - عانيهم : أسيرهم ، - المعاقل : الديات - ربعتهم : موضع إقامتهم، ديارهم (للجماعة والقبيلة من الناس).

والنقاط الرئيسية التي تضمنها ونص عليها دستور المدينة ما يلي :

(1) إن المسلمين كلهم فريق واحد يتعاونون في السراء والضراء متكاتفين متكافلين ، وإن سلمهم واحدة وحربهم أيضا واحدة، بمعنى أنهم يلتزمون بالسلم جميعا ويكونون في حالة الحرب فريقا واحدا ،

(2) أن للجماعات اليهودية حرية الاحتفاظ بدينها وممارسة شعائره

(3) يتعاون الجميع في مجابهة ورد أي خطر خارجي تتعرض له المدينة

(4) لا يجوز لأحد أن يتعاون مع قريش أو أن يوفر الحماية لأفرادها أو لتجارتها

(5) يتعاون الجميع في مقاومة وإزالة الظلم ومناصرة المظلومين في نطاق العلاقات بين سكان المدينة،

(6) ما يحدث من خلاف بين أي من الفرقاء الذين يشملهم الاتفاق يحكم فيه رسول الله ،

(7) توفير الأمان لمن أقام في المدينة أو غادرها ما لم يكن قد ارتكب ظلما أو جرما ضد أحد ،

(8) إذا اعتدى شخص أو ارتكب جريمة ضد الآخرين تقع المسئولية والعقوبة عليه وليس على الفريق الذي ينتمي إليه[23].

وهذا "الدستور" الذي ظهر في نقطة صغيرة من صحراء جزيرة العرب ، أي (يثرب)، وفي مجتمع بسيط وصغير الحجم أمي وبدائي ، أوائل القرن السابع الميلادي (سنة 622م.) ، أسس الاعتراف بالتعددية على مستويين : تعددية المكون القبلي ، في يثرب وما حولها ، ثم على امتداد نواحي الصحراء العربية ، حيث كانت تنتشر القبائل

---

[23] ابن هشـــام ، ***السيرة النبوية لابن هشام***، (بيروت : دار المعارف ، 2007)، ص 254-255 ،وانظر أيضا إبن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، جزء 4 ، ص 74 - 110.

المضرية والعدنانية واليمانية ، بجانب تعددية المكون الديني في داخل المدينة أيضا ، حيث كان فيها مسلمون ويهود ، وقليل من المسيحيين.

غير أن هذا الدستور الذي ، اعترف بالتعددية في ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية، انطفأت شعلته في السنة الخامسة من الهجرة ، عندما قامت فئة من مكوناته ، وهم قبيلة بني قريضة، بحملة تحريض واسعة ومتشعبة لتكوين حلف معاد للمسلمين ليقوم بحملة عسكرية تغزو المدينة وتقضي على المجتمع الإسلامي الناشئ الصغير. وقد نجحت حملة التحريض ، وتشكلت القوة المتحالفة وزحفت نحو يثرب ، وعرفت بغزوة الأحزاب ، وفرضت حصارا خانقا على المدينة ، تبين مدى شدته وقسوته بعض آيات سورة الأحزاب : ((**إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؛هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**[24]...)) لكن الأحزاب عجزت عن اقتحام المدينة واضطرت إلى الانسحاب خائبة.

وقد امتدت الفترة العملية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا وعشرين سنة ، من بداية تكليفه وتلقيه الوحي إلى حين وفاته . وفي هذه الفترة تتابع الوحي بالقرآن، كما تواصل الإرشاد النبوي من أحاديث رسول الله وتوجيهاته وتصرفاته وإجراءاته في حياته الخاصة والعامة، وعلاقاته بالأفراد والمجتمع ، وبالكيانات الخارجية. وهكذا نرى أنه عند نهاية هذه المرحلة قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، صار لدى المجتمع الإسلامي الناشئ ***مصدران ثابتان*** لتحديد وفهم ماهية العقيدة الإسلامية وموجهات وضوابط السلوك الفردي والجمعي للمسلمين في إطارها ؛ ***أولهما*** ما جاء به وحفظه القرآن الكريم ، ***وثانيهما*** ما علمه المسلمون وحفظوه من إرشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، من كلامه وأحكامه وتوجيهاته ، وما أقره من تصرفات أصحابه ومعاصريه؛ ويلخص ذلك في كلمتين : القرآن والسنة ، أو : الكتاب والسنة ؛ وبذلك صار الكتاب والسنة المصدرين المقبولين لتحديد ماهية الإسلام ، وللتشريع الإسلامي.

---

[24] سـورة الأحزاب / 10 - 11.

وكان القرآن قد كتبت آياته المنزلة قطعة قطعة ، بعدما تلقاها الرسول مباشرة كما بينا من قبل، أما السنة فلم تكتب منذ البداية كما كتب القرآن، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابتها، خشية أن تختلط بالقرآن ، وإن كان قد نقل عنه أنه سمح لعدد قليل من الصحابة بذلك بعد أن شكوا إليه ضعف حفظهم وطلبوا إذنا خاصا لهم بالكتابة في حدود حاجتهم الشخصية. وقبل أن ننتقل بحديثنا إلى المصدر التشريعي الثالث نود التنبيه والتأكيد على أن **دستور المدينة** جزء من السنة النبوية باعتبار أنه إجراء عملي اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة مباشرة لمواجهة حالة وموقف سياسي واجتماعي محدد ، وعاش في إطاره الجيل الأول من الصحابة ما يقرب من أربع سنوات؛ غير أن كتب السنة، أعني مجموعات كتب الحديث ، مثل الموطأ والبخاري ومسلم وغيرهما ، لم تعن بمضمون النص الذي أورده ابن هشام باعتباره "دستور المدينه" ، ربما لطوله وتعقد لغته. ولم تجر محاولة لصياغة نص آخر يغطي الموضوع نفسه ويخبر عنه ، لأن "الدستور" لم يعكس توجيها إرشاديا مباشرا واضحا ومختصرا مثل الأحاديث الأخرى، بل تناول العلاقة بين المجموعات القبلية في المدينة، بعد هجرة النبي إليها سنة 622م./1هـ. وقد تغير هذا الوضع وزال تماما بعد خمس سنوات، أي بعد فشل غزوة الأحزاب، ولذلك أهمل النص المفصل تفصيلا واسعا بالتكرار المتتابع، وأهمل مضمونه ، ولم ينظر إليه مثل نصوص الأحاديث التي أدرجت في المجموعات الحديثية ، لأن الحالة والظروف التي صدر لتأطيرها وتنظيمها انتهى وجودها . وقد كانت هذه خسارة كبرى للتشريع والفكر الإسلامي، وكان نسيانها لا يعوض.

وبالرغم من ذلك ، فإن هذه التجربة في بداية نشأة المجتمع الإسلامي وعلى رأس قيادته الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي امتد مشهدها خمس سنوات، تعني موقفا جمعيا أعلنه الرسول واتبعه مجموع المسلمين ؛ وقد قبلته المجموعات الأخرى غير المسلمة لكونه أفضل الممكن لها من الناحية العملية . ثم إن هذه التجربة كانت تعني، للأجيال التالية من المسلمين خاصة ،

قبول مبدأ التعددية ، وأنه هو الاختيار الأفضل لحفظ السلام العام ، ما دامت التعددية موجودة فعليا وماديا على أرض الواقع. ومما يؤكد هذا المفهوم ويوضحه تماما أن الإسلام منع - بالنص القرآني - إكـراه الناس علي الـتخلي عن ديـنهم لـيتحولوا إلى الإسلام[25] ، كما أنه اعترف بالنظام القبلي بحكم وجوده في واقع حياة سكان جزيرة العرب دون منافس أو بديل ؛ ومع ذلك استبعد القرآن الروح والقيم القبلية الفاسدة وما يصاحبها من شطط وطغيان تنتج عنه أحقاد وجرائم وحروب ودماء ، وذمها ونهى عن تبنيها أو قبولها والتعايش معها إلا في حدود ضرورة الأمر الواقع الذي لا يمكن تغييره فورا، بل يحتاج تهذيبه إلى تدرج وفسحة أطول من الزمن.

الصحابة مصدر أساسي ثالث:

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، صار الصحابة ، أفرادا وجماعة ، مصدرا ثالثا. وهذه الحالة التي صارت للصحابة قامت على ركيزتين : أنهم تلقوا القرآن وهم بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم ففهموه أفضل من غيرهم ، وأنهم في إطار هذه الصحبة تلقوا التوجيه النبوي المتواصل بقدر ودرجة لم تتيسر لغيرهم ممن فاتتهم الصحبة لبعد الدار أو لأنهم من الأجيال التالية.
وبناء على هذه الاعتبارات صارت أقوال الصحابة وأفعالهم - حتى من غير أن تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأية طريقة - صارت مصدرا ثالثا للتشريع [26]. ويحسن بنا أن ننبه هنا إلى ثلاثة أدوار قام بها الصحابه :

أولــهــا: معاونة ومشاركة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بناء وتثبيت الكيان الإسلامي ،

---

[25] أنظر ص 136 - 139 من هذا الكتاب فيما يلي.

[26] لمزيد من الإيضاح عن دور الصحابة أنظر ص 116 - فيما يلي من هذا الكتاب.

وثانيها : حفظ ونقل سنة رسول الله إلى الجيل التالي ،

وثالثها: دورهم ومشاركتهم في الأحداث والتطورات التي أعقبت وفاة النبي.

وفي كل دور من هذه الأدوار الثلاثة يجد الباحث ثلاثة مستويات من الاستجابة والمشاركة:

(أ) أمثلة رائعة من ارتفاع السلوك الفردي الإنساني إلى قمم سامقة من نكران الذات ، وتذويب الفرد من الصحابة نفسه في الأنا الجمعي، وفي أسمى ما تطلبه العقيدة الإسلامية من معتنقيها من بذل الجهد - الجهاد الأقصى - لتحقيق أهدافها في حياة الفرد - وفي حياة المجتمع الإسلامي ، وحياة المجتمع الإنساني كله.

(ب) كما يجد الباحث أمثلة من سلوك أدنى منزلة ، منبثقة من اهتمام الفرد الصحابي بذاته ، وبدوافعه الفردية ، وانتماآته وعلاقاته العائلية والقبلية - في تصادم مع المثل العليا الإسلامية ،

(ج) ويكتشف الباحث مستوى ثالثا من الهبوط ، يحتاج فيه الصحابي الفرد إلى رحمة الله الواسعة لكي تشمله المغفرة والرحمة الإلهية الواسعة وليتبعها تسامح النبي صلى الله عليه وسلم وتسامح مجتمع الصحابة.

ولا مراء في أن هناك أفرادا وجماعات آخرين لم أشأ أن أضعهم في قائمة الصحابة وهم المنافقون.

والحقيقة - من غير مبالغات وتعميمات مسرفة - : أن الله سبحانه وتعالى **امتدح** صحابة رسوله الكرام في مواقفهم الصائبة ، ولكنه **انتقدهم أيضا** في مواقفهم الخاطئة ، لأن الصحابة ، جماعة وآحادا ، لم تكن حياتهم كلها في حال واحدة مستمرة طوال فترة الصحبة ، أو طوال حياتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، فهم بشر في كل الأحوال؛ ولدينا في القرآن أمثلة متعددة تؤكد كل ذلك، ولننظر ما يقوله القرآن :

((إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما [27])). والذين بايعوا كانوا مجموعة من الصحابة لا تشمل كل الصحابة ولا أغلبيتهم.

((لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا [28].))

((محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار[29] ...))

((والذين تبوؤوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ... [30])).

إن هذا الثناء الذي تضمنته هذه الآيات وجه لبعض الصحابة ، وليس لمجموعهم ولا لكل فرد منهم؛ والآيات نفسها تحدد الأعمال الصالحة التي أهلت أولئك الصحابة لهذا التقدير الإلهي.

ثم إن صفة الصحابي مسألة تعددت فيها الأراء والتفسيرات بين من ذهبوا إلى أن الصحابي هو كل مسلم عاش في زمن رسول الله حتى ولو لساعة واحدة ، دون أن يراه ، وبين من اشترطوا المعايشة واللقاء والاتصال لمدة سنتين على الأقل [31] .

منافقون عاشوا بين الصحابة :

ولقد عاش في المدينة ، أثناء حياة النبي وبعد وفاته ، عدد كبير من المنافقين الذين يظهرون الإسلام كذبا ، وأكثرهم لم يكونوا معروفين ، حتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخبرنا القرآن: **((ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم**

---

[27] ســورة الفتح / 10.

[28] سورة الفتح / 18.

[29] ***المصدر نفسه*** ، الآيتان 18 و 29.

[30] ســورة الحشر / 9 .

[31] أبـو الفدا ابن كثير، ***الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث***، بعناية أحمد محمد شاكر (بيروت: دار الكتب العلميةً) ص174-186 وقارن مع الإمام علي بن حـزم الظاهري، ***الإحكام في أصول الأحكام*** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2010) ، مجلد 1 ، 265.

بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم *وما يشعرون*[32])) ، **((وإذا لقو الذين آمنوا قالو آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون.))** فهل كان هؤلاء "الصحابة" ممن يؤخذ عنهم التشريع ويعتبر قولهم وفعلهم مصدرا تشريعيا ؟

ونمضي مع الآيات التي تصف أعمال الصحابة فنجد فيها **غير المديح والثناء** :

((ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غما بغم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون[33].))

- ((لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين.[34]..))

- ((وإذا **رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين [35].))** وهنا ، في هذه الآية الأخيرة ، يصف القرآن مشهدا مذهلا ، إذ بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخطب واقفا يوم الجمعة إذ مرت قافلة تجارية قادمة من الشام بجوار المسجد ، فانفض أكثر الصحابة ليلحقوا بالقافلة ، ولم يبق مع النبي غير اثني عشر رجلا وامرأة واحدة.

معترضون:

وهنا قد يعترض المجادلون في زي المدافعين عن الصحابة : **إذا كان الله عفى عن الصحابة وغفر لهم فما شأنك وأمثالك أن تعترضوا ؟** أقول: إن هذه مغالطة فجة. الله هو الذي يعفو ويمنع العفو إن أراد ، ولا أحد غيره ، ولا يمكن أن يعترض عليه أحد ، ولكن الخطأ الذي ارتكبه بعض الصحابة لم يتغير نتيجة للعفو، ولا يعني

---

32 سورة البقرة / 8 - 14.

33 سورة أل عمران / 152 - 155.

34 سورة التوبة / 25 - 26.

35 سورة الجمعة / 11؛ وانظر أبو الحسن الواحدي النيسابوري، ***أسباب النزول*** ، ص 239 ؛ وانظر الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، ***أحكام القرآن*** ، جمعها الإمام أحمد بن حسين البيهقي، المنصورة : مكتبة الإيمان ، 2009 م. ، الجزء الأول ، ص69 .

أن الخطأ صار صوابا. الخطأ ظل خطأ كما كان قبل العفو، ولا يجوز أن يكرره أحد بعد ذلك بدعوى الاقتداء بالصحابة، وهذه حقيقة لا يجوز إخفاؤها ما دمنا نأخذ السنة من أقوال وسلوك وأعمال الصحابة ونتشبه بهم. الله تعالى شأنه لم يشأ أن يبقي تقصير بعض الصحابة سرا مخبوءا عن الأجيال التالية لهم من المسلمين ، بل سجله وأعلنه في كتابه ليعلمه كل المسلمين في جميع الأجيال والعصور والبلدان ، لذا فإن ذكره من أجل الفهم والعظة ليس محرما. الصحابة كانوا بشرا غير منزهين عن الخطأ.

اهتزاز المواقف يوم وفاة رسول الله:

ويوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لاحت بوادر الضعف البشري في مواقف بعض الصحابة الكبار ، كان أولها موقف العباس ابن عبد المطلب (عم النبي)، وعلي بن أبي طالب ؛ فقد خرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الناس: يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئا ؛ قال : فأخذ العباس بيده ثم قال: يا علي ، أنت والله عبد العصا بعد ثلاث ، أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كنت أعرفه في وجوه بني عبدالمطلب ، فانطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان هذا الأمر [يعني الرئاسة والقيادة] فينا عرفناه ، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس. **فقال له علي : "إني والله لا أفعل ، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده..."**

إن مضمون هذا الحوار الذي جرى بين العباس وابن أخيه علي رضي الله عنه ، ينطوي على مؤشرات ودلالات لا يصح إغفالها أو غض الطرف عنها ، بل نرى أنه لا بد للقارئ من تحليلها واستكناه ما وراء كلماتها من مقاصد ، وندعوه إلى ذلك ونحثه عليه. وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم في صبيحة نفس اليوم ، وانتشر الخبر، "وانحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر فقال : إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم[36] ؛ فما الذي حدث بعد ذلك ؟

[36] إبن هشام ، ***السيرة النبوية*** ، ص 738 - 740.

بيعة أبي بكر:

وكان أول عمل قام به الصحابة بعد غياب الرسول القائد ، عملا **وتصرفا جمعيا ، تمثل في انتخاب الخليفة الأول** ، حيث شارك في هذه العملية العدد الأكبر من الصحابة ، وظهر اختلاف في الخيارات والتطلعات والأهداف والمساعي ، **حسمته الأغلبية ؛** وهذا الإنجاز هو أول بند في قائمة ما صدرعن الصحابة من سنة وتشريعات بصفتهم الجمعية؛ لكن هذا العمل الجمعي ندت ملاحظة أهميته عن "الفقهاء" ، ولم ينل حظه من العناية والتقدير درسا يستنار به في الاجيال التالية ، مثل ما لقيته الأعمال والتصريحات الفردية التي صدرت عن الأفراد من الصحابة كل على حدة؛ وكذلك غابت التجربة عن الفكر التشريعي وأعمال الفقهاء ، وكأنها لم تكن ؛ رغم أن البخاري أورد نصا واضحا شاملا عن كيفية حدوثها وانتهائها، وبقدر مناسب من التفصيل ، بلسان واحد من كبار الصحابة وأعلاهم منزلة ، وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ لقد نقل البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب قوله :

" ... الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، **وخالف عنا علي والزبير ومن معهما** ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: ... انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ... فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم ... [وهو] سعد بن عبادة ... وبعد أن تكلم أحد الأنصار يذكر أحقيتهم بالخلافة ، ورد أبو بكر بكلام رقيق ، لم يلبث الجدال أن اشتد حتى قال أحد الأنصار مهددا : "أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب [ينوه بقوته في الحرب] ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش؛ فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف ، فقلت : أبسط يدك يا أبا بكر ... فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار ، ثم نزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة، فقلت : قتل الله سعد بن عبادة[37] ". وبعد ذلك بايع عامة المسلمين أبا بكر ، وانتهت الأزمة.

وفي رواية حفظها لنا الإمام الطبري يصف كثافة المشاركين الذين بايعوا أبا بكر رضي الله عنه قال الطبري: " فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكانوا يطأون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعدا لا تطأوه [38]..." كما أورد الطبري معلومات إضافية مفصلة تصف انثيال أعداد كبيرة من الصحابة لمبايعة

---

[37] البخاري ، ***الجامع الصحيح*** ، كتاب الحدود ، حديث رقم 3830 ؛ وقارن مع ***تاريخ الطبري*** ، مجلد 2 ، بيروت ،241 - 243.

[38] محمد بن جرير الطبري ، ***تاريخ الطبري*** (بيروت : دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ، المجلد الثاني) ، ص 244- 5.

أبي بكر لدرجة أن ضاقت بهم سكك [طرقات] المدينة [39]، وذلك يعني أن هذا الإنجاز الجمعي الأول والأهم شارك فيه معظم الصحابة، العدد الأكبر منهم ، ولم يصل الخلاف والتنافس المحدود إلى مستوى الصراع ، رغم بساطة الناس وأميتهم ، وانتماءاتهم القبلية.

أهمية عملية انتخاب أبي بكر تشريعيا:

إن هذه العملية التي افتتح بها العهد الراشدي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة تحمل في طياتها معاني بالغة الأهمية ، على الرغم من أنها كانت تصرفا جمعيا تلقائيا عفويا ، لم يسبقه إعداد أو لجان أو دعاية أو بعض ما نعرفه في عصرنا عن الانتخابات ؛ لقد تصرف الصحابة كلهم بتلقائية مباشرة ، بيد أن أكثريتهم لم تنطلق من فراغ ، ولا بمحض الصدفة ، بل انطلقت من مجمل المبادئ القرآنية التي آمنوا بها ووعوا مدلولها ومتطلباتها بقلوبهم وعقولهم : مبدأ المساواة والأخوة ، وأن التميز والتقدم لا يكون إلا بالعمل الصالح والتقوى ، ونبذ الشهوات الذاتية ، والعصبية العشائرية والقبلية ، وتجنب السعي طلبا للعلو في الأرض ، كل ذلك ، بجانب ما تعلموه من توجيهات نبيهم صلى الله عليه وسلم ، أرشدهم وحفزهم في اختيارهم وتأييدهم لبيعة أبي بكـر.

لقد أحدث الإسلام تغييرا كبيرا في سلوك وفكر سكان هذه المنطقة الصحراوية من جزيرة العرب ، وأوجد حالة وخبرات وتجارب لم تكن معروفة . لم تكن القبائل وأفرادها يعرفون تصورا للأنا الجمعي غير القبيلة، فجاء الإسلام بمبدأ "أخوة الإيمان" ، التي تضم كل المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله ورسالاته ، واليوم الآخـر والحساب والجزاء. هكذا اتسع مفهوم الأنا الجمعي في حاضر الناس وفي تصورهم لماضيهم ومستقبلهم ؛ لقد انتهى الماضي ولم يعد لأي من الناس سيطرة عليه أو تعديل نتائجه وآثاره ، فعجلة الزمن لا تدار إلى الخلف؛ أما المستقبل فالتأثير فيه لا يمكن أن يحدث إلا من خلال تحقيق تغيير في فكر وسلوك الأفراد وتصورهم لمكونات ومفهوم الأنا الجمعي، يبدأ في الحاضر ليستمر بعد ذلك في مستقبلهم. ((**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...))** [40]

وضاعت التجربة وآثارها :

---

[39] ***المصدر نفسه*** ، مجلد 2 ، ص 241-44.

[40] سـورة الرعـد / 11 .

وبدلا من تبني مثال هذه التجربة العملية الرائدة والاحتفاظ بدرسها ومدلولها لتوظيفها حاضرا ومستقبلا كلما شغر أو فرغ منصب رئاسة الدولة من شاغله ، انحاز "الفقهاء" إلى التشريع الذي صنعه الحكام والخلفاء والسلاطين الطغاة بتولية الحكم لأبنائهم من بعدهم ، فصار منصب رئاسة الدولة تركة شخصية تنتقل ملكيتها ، لواحد من أبناء الحاكم ؛ وفي مرحلة تالية صارت تقسم أنصبة بين الورثة ، ويشمل التقسيم الأرض والمال والناس والجند ومستقبل الأمة، كما فعل هارون الرشيد[41] ومن سبقوه ومن تبعوه. وأما البديل الآخر الذي شرعه "الفقهاء" فهو إقرار وترسيخ مبدأ استيلاء المغامرين على السلطة العليا ، منصب الخلافة ، **"الإمامة العامة"** ، **رئاسة الدولة** بالقوة، حيث امتدت جهود "العلماء/ الفقهاء" لتدجين المجتمعات الإسلامية وحملها على تقبل هذه الممارسات والخيارات حتى قال بعضهم: **" من استولى على منصب الخلافة بالسيف واستقرت في يده فهو الخليفة يصلى خلفه ويغزى معه".** هذا مع إصدار قرارات الإدانة الصارمة لمن يرفضون طاعته أو الاعتراف به، ومع إهدار دمائهم إن استمروا في الرفض؛ كل ذلك بحجة الابتعاد عن الفتنة ؛ وبذلك سقطوا، هم أنفسهم، في سلسلة طويلة من الفتن صارت قيدا معطلا لمقاومة الناس للعبودية[42]، وبذلك أسقطوا الشعوب التي أعطتهم قيادتها بحسن نية ، أو بثقة في غير محلها أو لمجرد غفلة، فأسقطوها في فتن لا تنتهي [43]، وصيروا هذه المفاهيم السياسية الجاهلة ركنا سئ التأثير من بين مكونات الفكر الإسلامي حتى اليوم.

لقد كان انتخاب أبي بكر أهم عمل جمعي قام به الصحابة ، لكن المصيبة أن الأهمية التشريــعــية للطريقة التي انتخب بها أبو بكر رضي الله عنه كانت أعلى من مستوى عقول وإدراك "الفقهاء" طوال القرون التالية وحتى الآن ، وعندما وجدت المجتمعات الإسلامية نفسها في مسيس الحاجة إلى مثل هذه التجربة غابت عن عقول المشايخ وندت عن ذاكرة "الفقهاء" ، ولم يفسح لها مكان في بنية الفكر الإسلامي

---

[41] أنظر ما حدث في ترتيبات توارث الخلفاء الأمويين والعباسيين وتوارث السلطنة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم المماليك والعثمانيين. ويمكن الاطلاع على خلاصة مركزة في كتابي ***انهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض*** ، ص 120-125و 166 و206-299.

[42] أنظر عبدالله أبو عزة ، ***انهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض*** ، الطبعة الثانية 2014 م. ص 120-127 و 166- 179 و325- 326.

[43] ***المصدر نفســه*** ، ص 206 -- 218.

وتطوره ، جهلا أوغفلة، إذ فضل "الفقهاء" واستسهلوا الانصياع لرغبات المتنافسين على المنصب الأعلى ممن كان سعي أكثرهم في سبيل العلو والفساد في الأرض ، في اتجاه معاكس للمبدأ القرآني الذي يجسده قول الله جل شــأنه :

((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولافسادا[44].))

الشريعـــة مصدر مضاف :

وبعد الكتاب ، والسنة ، والصحابة ، والتابعين، وتابعيهم، وفي خضم تطور المذهبية، والفرقية، والطرقية ، ظهر مصطلح "الشريعة".

إن مكونات مفهوم الشريعة الأساسية المفترضة كما تابعناها مع القراء فيما مضى من هذا الكتاب ينبغي أن تكون ثلاثة : القرآن الكريم بنصه الأصلي المجرد، والسنة النبوية ، حديثا وعملا وإقرارا، ثم أقوال وعمل الصحابة من غير أن يدخل فيها ما نقلوه حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبعد ذلك أضيفت كتابات وأقوال "الفقهاء " التي صارت تعرف بكتب الشريعة[45].

---

[44] ســـورة القصص / 83 .

[45] أنظر ما كتبناه تحت عنوان : مصادر تشريعية إضافية ، ص 70 - 73 فيما يلي.

الفصل الثاني

الاستهداف التخريبي المعادي لمصادر الفكر الإسلامي

وبعد فشل غزوة الأحزاب سنة 5 هـ. أدرك المسلمون أن الهزيمة التي حلت بأعدائهم غيرت ميزان القوى لصالحهم ، وقد أدركت ذلك أيضا زعامة قريش وحلفاؤها من القبائل اليهودية خاصة ؛ ولهذا تحول العمل العدائي إلى التركيز على الحرب الدعائية ، والإرجاف بنشر الإشاعات الكاذبة ، مع أن أعداء المسلمين كانوا مارسوا هذا النوع من الحرب من قبل.

ولم يكن أكثر المشاركين في هذه "الحرب النفسية" معروفين للمسلمين ولم تكن أسماؤهم ظاهرة ؛ لقد عرفت أسماء بعضهم ، وبعض زعمائهم فقط ، بينما أسماء أكثرهم وشخصياتهم ظلت مجهولة وما زالت حتى عصرنا الحالي؛ بل إن رسول الله نفسه كان يجهلهم؛ وذلك ما أكده النص القرآني؛ وقد أشار القرآن إلى أمثلة من كيدهم واستهدافهم للقرآن والسنة، ومن ذلك :

((وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم[46].))

((ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون[47].))

-((وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون[48]))
واللغو يعني : كل كلام قبيح ، بما فيه الشتائم والتشويه والتغليط. ومعنى هذا أن القرآن نفسه ، وليس السنة وحدها ، كان مستهدفا باللغو وبالتشويه في المنطق والتغليط ، والمكاء والتصفير(انظر تفسير ابن كثير وتفسير الجلالين لهذه الآيات وما يتبعها من آيات أخرى تشترك معها في المعنى.)

((نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا.[49]))

((وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق [50]))

وقد روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال : "كان قوم يسألون رسول الله

استهزاء ، فيقول الرجل من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي [51]؟"

((ولقد استهزئ برسل من قبلك، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب.[52]))

((ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون.[53]))

---

[46] سـورة التوبة / 101.
[47] سـورة البقرة / 8-9.
[48] فصلت /26 .
[18] سـورة الإسراء /47.
[50] سـورة الفرقان / 7.
[51] تفسير ابن كثير للآية ، وقد وردت في تفسير الطبري أيضا بسند عن البخاري ضمن تفسير هذه الآية..
[52] سورة الرعد / 32.
[53] سـورة الأنعام /10.

((قل أبالله وآياته ورسله كنتم تستهزئون.[54]))

((الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.[55]))

((فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون.[56]))

((لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا.[57]))

((وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذا مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا.[58]))

((إنا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع الله إله آخر فسوف يعلمون

ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح باسم ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين[59]))

لقد حدث كل هذا النفاق والتشويش والإرجاف بنشر الإشاعات الكاذبة المضللة، واللغو بالقرآن، من الشتم والقبح، والاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم واتهامه بالسحر تارة وبالكذب تارة أخرى ، وبأنه مجرد شاعر؛ كل ذلك أثناء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى وهو يترأس المجتمع سلما وحربا، والسلطة في يده في المدينة. ولم يتوقف النشاط التخريبي وعبث العابثين بعد وفاة النبي ، بل لقد ازداد كما ونوعا ، وما دلالة انتشار الردة بسرعة إلا تأكيدا لكل هذا الذي ألمحنا إليه باختصار.. فبمجرد وفاة النبي ارتدت أكثر القبائل العربية عن الإسلام ، بينما امتنع بعضهم عن أداء الزكاة، حتى قيل إنه لم يبق على الإسلام خارج المدينة سوى مكة والطائف ؛ بيد أن الموقف الحازم الذي وقفه الصديق رضي الله عنه بدد أحلام المرتدين.

---

[54] سورة التوبة / 65.

[55] سورة البقرة / 15.

[56] سورة الأنعام / 5.

[57] سورة الأحزاب / 57- 58 و 60-61و 69.

[58] سورة النساء / 140.

[59] سورة الحجر / 95 - 99.

وبعد كبح حركة الردة ، وتحقيق الانتصارات السريعة في ساحات الجهاد ضد الاستعمار الروماني وحلفائه من القبائل العربية في الشام ، وفي الشمال الشرقي ضد تسلط الإمبراطورية الساسانية وحلفائها من العرب ، نتجت عن كل ذلك تطورات وتغيرات سياسية واقتصادية وسكانية واجتماعية هائلة أفرزت عوامل ومسارب جديدة لانتهاك حرمة المصادر الأسلامية الثلاثة وتم ذلك بالطرق التالية:

1) من خلال التحريف والعبث المتعمد في تفسير القرآن وخلطه بالخرافات،

2) اختلاق وتزويرأوتحريف أحاديث نبوية كليا أو جزئيا بالإضافة والحذف

3) نسبة أقوال وأعمال ومواقف للصحابة زورا وبهتانا

4) النقل من المصادر اليهودية والمسيحية وإدخال المنقول ضمن النصوص الإسلامية

5) انضمام أعداد ضخمة من البشر الغرباء إلى مجتمع المسلمين ، على أثر موجات الفتح الإسلامي ، حاملين معهم عناصر ثقافاتهم السابقة ؛ وبذلك صار الفتح ***فتحين في اتجاهين متعاكسين*** ، **فتح المسلمين لأقاليم جديدة، وانفتاح مجتمع المسلمين لأعداد كبيرة من الناس** من خارجه ليندمجوا فيه بما يحملونه من ثقافاتهم السابقة. وعبر القرون التالية استمر تسرب الأفراد والجماعات الصغيرة دون إثارة.

ونود الآن أن نلقي نظرة سريعة على كل من هذه المسارب، ونستعرض من خلالها أمثلة قليلة.

أمثلة من العبث بتفسير القرآن:

وحيث أن النص القرآني كان قد كتب وحفظ في المصاحف، كما بينا فقد صار التفسير المدخل المفتوح للعبث والروايات الخرافية المنقولة من المصادرغير الإسلامية. ولم يكن أكثر المشتغلين بالتفسير يقفون عند بيان معنى النص، بل كان كثيرون منهم يجرون قراءهم في متاهات بعيدة من أجل صياغة إطار تاريخي أو قصصي، خيالي لإدهاش القارئ وإمتاعه ، وأحيانا يستخدمون أسلوب السجع في كتاباتهم، فيؤدي ذلك إلى تخدير الحس والمتابعة

العقلية بتأثير موسيقى أصوات حروف الجمل المسجوعة ، هذا فضلا عن الإطالة المسرفة ؛ مثل الاسراف في إطالة تفسير سورة الفاتحة، السورة الأولى التي يقل نصها عن ثلاثين كلمة ، حيث فسرها بعضهم في مجلدين كبيرين ، على الرغم من وضوح مفرداتها وعباراتها الأصلية بدرجة تنفي حاجتها إلى أي تفسير؛ ومعنى تفسيرها في مجلدين أن المفسر دفع بأفكاره وتخيلاته ليفرضها على النص القرآني الأصيل من غير ضرورة. وقد أخبرنا أبو بكر ابن العربي أنه فسر "القرآن في ثمانين ألف ورقة في عشرين عاما.[60]" وعندما ننظر في تفسير مجاهد بن جبر الذي ولد في مكة سنة 21 هجرية ، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتوفي في مكة سنة 104 هجرية ، وهو أول من ألف كتابا في التفسير، نجد أنه بدأ بتفسير سورة البقرة وترك سورة الفاتحة، لأنه رآها واضحة لا تحتاج إلى تفسير ، كما أن كل كتابه ، من بدايته إلى نهايته ، من سورة البقرة إلى سورة الناس، لم يزد عن 347 صفحة مطبوعة، أي 174ورقة [61]. وكان من أسوأ المذاهب في التفسير، كما ذكر الإمام السيوطي، ما يسمى بالتفسيرالباطني[62].

وفي تفسير ابن كثير للآية رقم 248 من سورة البقرة : ((**وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم، وبقية مما ترك أل موسى وآل هارون تحمله الملائكة**)) نقرأ روايات عن معنى كلمة "السكينة" نقلها أبو الفدا عمن سبقوه :

" يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم، "فيه سكينة من ربكم " ، قيل : معناه وقار وجلالة." قال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة : "فيه سكينة" أي وقار. وقال الربيع رحمه الله ، وكذا روي عن العوفي عن ابن عباس. وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله : "**فيه سكينة من ربكم**" قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه ؛ وكذا قال الحسن البصري.

إلى هنا كان التفسير لغويا موضوعيا عقلانيا، ويماثل معنى كلمتي "سكينة ، السكينة" كما ورد في سورتي التوبة والفتح. غير أنه ، اعني التفسير ، ما لبث أن تدنى إلى

---

60 أبو بكر محمد بن العربي ، ***قانون التأويل*** ، ص 25.

61 ***تفسير مجاهد*** ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، 2005م.).

62 السيوطي ، ***الإتقان في علوم القرآن*** ، ص884 وما بعدها.

مستوى مختلف في التعامل مع **آية "البقرة"** هذه التي بين أيدينا، وفيما يلي بعض من هذا الانحراف ، ونحن لا ننسب التحريف والانحراف لابن كثير ، بل لمن نقل رواياته عنهم:

"وقيل: السكينة طست من ذهب ، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاها الله موسى عليه السلام ، فوضع الله فيها الألواح ؛ ورواه السدي عن أبي مالك عن ابن عباس. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل ، عن أبي الأحوص ، عن علي بن أبي طالب، قال : "السكينة لها وجه كوجه الإنسان ، ثم هي روح هفافة." وقال ابن جرير : "حدثني المثنى ، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة ، وحماد بن سلمة وأبو الأحوص ، كلهم عن سماك ، عن خالد بن عرعرة عن علي [ابن أبي طالب] قال: السكينة ريح خجوج ، ولها رأسان. وقال مجاهد : لها جناحان وذنب ؛ وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة ، إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح. وقال عبدالرازق : أخبرنا بكار بن عبد الله ، أنه سمع وهب بن منبه يقول : "السكينة روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شئ ، تكلم [كذا] فتخبرهم ببيان ما يريدون.[63]"

وابن كثير كان يجمع مقولات من سبقه من الرواة ، أو المفسرين ، وربما تدخل بالنقد والتصويب أحيانا ، أو أضاف مزيدا من الشرح أو من الروايات. وكذلك فعل الإمام الطبري قبله ، وكلاهما غير متهمين.

المثال الثاني:

وفيما يلي مثال ثان يظهر مستوى وحجم الجدل المتعلق بتفسير القرآن في غير موضوع التابوت ، يتعلق بسيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام:

" ثم إن الله تعالى ذكره ابتلى خليله إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسحق بن إبراهيم ، وقال بعضهم : هو إسماعيل بن إبراهيم ، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا القولين ، [لو] كان فيهما صحيح لم يعده إلى غيره؛ [وهنا نجد الطبري ينفي صدقية الروايتين كليهما.]

---

[63] ابن كثير ، *تفسير القرآن العظيم* ، (المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، 2013 م.) ، تفسير آية سورة البقرة رقم 258.

والرواية التي نقلت عنه، أي عن النـبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: "هو إسحق" حدثنا بها أبو كريب ، قال : حدثنا زيد بن الحباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبدالمطلب، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكر فيه آية : ((وفديناه بذبح عظيم))، قال هو إسحق". وقد روي هذا الخبر عن غيره من وجه أصلح من هذا الوجه ، غير أنه موقوف على العباس ، غير مرفوع إلى رسول الله.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا أبو كريب : قال: حدثنا ابن يمان، عن مبارك، عن الحسن بن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبدالمطلب **((وفديناه بذبح عظيم))** قال :

"هو إسحق".

وأما الرواية التي رويت عنه أنه هو إسماعيل ، فيما حدثنا محمد بن عمار الرازي، قال : حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة قال : حدثنا عمر ابن عبد الرحيم الخطابي ، عن عبدالله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان ، عن أبيه قال : حدثني عبدالله بن سعيد ، عن الصنابحي ، قال : كنا عند معاوية بن أبي سفيان ، فذكروا الذبيح ، إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء ه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله ، فقيل له: وما الذبيحان يا رسول الله ؟ فقال: (إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله : لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده.) قال فخرج السهم على عبدالله ، فمنعه أخواله وقالوا : إفد ابنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل ، وإسماعيل الثاني.

ونذكر الآن من قال من السلف إنه إسحاق ، ومن قال إنه إسماعيل.

[أولا] ذكر من قال هو إسحاق :

[1]حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا ابن يمان عن مبارك ، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبدالمطلب ((وفديناه بذبح عظيم)) قال: هو إسحاق.

[2]حدثنا الحسين بن يزيد الطحان ، قال حدثنا ابن إدريس، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال: الذي أمر بذبحه إبراهيم هو إسحاق.

[3]حدثني يعقوب، قال حدثنا ابن علية، عن داود ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : الذبيح هو إسحاق.

[4]حدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا ابن أبي عدي عن داود عن عكرمة عن ابن عباس ((**وفديناه بذبح عظيم**)) قال: هو إسحاق.

[5]حدثنا ابن المثنى ، قال: حدثنا محمد بن جعغر، قال حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص،قال : افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبدالله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

[6]حدثنا ابن حميد، قال حدثنا إبراهيم المختار، قال : حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبدالرحمن بن أبي بكر، عن الزهري ، عن العلاء بن جارية الثقفي، عن أبي هريرة عن كعب في قوله: ((وفديناه بذبح عظيم)) قال : من ابنه إسحاق.

قال كعب: لما رأى إبراهيم ذبح إسحاق قال الشيطان: والله إن لم أفتن عن هذا ال إبراهيم لا أفتن واحدا منهم أبدا؛ فتمثل لهم الشيطان رجلا يعرفونه [وحاول أن يفتن سارة ثم إسحاق ثم إبراهيم نفسه فلم ينجح، وقد حذفت النص الأصلي لطوله واكتفيت بهذا الاختصار.

[7]حدثنا أبو كريب ، قال حدثنا ابن يمان عن إسرائيل عن جابر عن ابن سابط، قال هو إسحاق.

[8]حدثنا أبو كريب قال حدثنا ابن يمان عن سفيان عن أبي سنان الشيباني عن ابن أبي الهذيل ، قال : الذبيح هو إسحاق.

[9]حدثنا أبو كريب ، قال حدثنا سفيان بن عقبة ، عن حمزة الزيات، عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة قال : قال يوسف للملك في وجهه : ترغب أن تأكل معي ، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

[10]حدثنا أبو كريب قال : حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل، قال: قال يوسف للملك ، فذكر نحوه.

[11]حدثني موسى بن هارون، قال حدثنا عمرو بن حماد، قال حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم عليه السلام أري في المنام فقيل له: أوف نذرك الذي نذرت: إن رزقك الله غلاما من سارة أن تذبحه ، [وابنه من سارة إسحاق]

[12]حدثني يعقوب ، قال : حدثنا هشيم، قال: حدثنا زكريا وشعبة، عن أبي إسحاق عن مسروق قوله : ((**وفديناه بذبج عظيم**)) قال هو إسحاق.

[ثانيا] ذكر من قال هو إسماعيل:

[1]حدثنا أبو كريب وإسحاق بن إبراهيم بن الشهيد ، قال : حدثنا يحيى بن يمان، عن إسرائيل، عن نوير ، عن مجاهد عن ابن عمر، قال: الذبيح إسماعيل.

[2]حدثنا ابن بشار ، قال حدثنا يحيى، قال حدثنا سفيان، قال حدثنا بيان عن الشعبي ، عن ابن عباس: ((**وفديناه بذبح عظيم**)) ، قال: إسماعيل.

[3]حدثنا ابن حميد، قال حدثنا يحيى بن واضح ، قال حدثنا أبو حمزة محمد بن ميمون السكري عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن الذي أمر بذبحه إبراهيم إسماعيل.

[4] حدثنا يعقوب، قال حدثنا هشيم ، عن علي بن زيد، عن عمار مولى بني هاشم ، وعن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : هو إسماعيل، يعني ((وفديناه بذبح عظيم)).

[5]حدثني يعقوب، قال حدثنا ابن علية، قال حدثنا داود ، عن الشعبي، قال : قال ابن عباس: هو إسماعيل.

[6]وحدثني يعقوب مرة أخرى ، قال: حدثنا ابن علية ، قال: سئل داود بن أبي هند: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فزعم أن الشعبي قال : قال ابن عباس : هو إسماعيل.

[7]حدثنا ابن المثنى، قال حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا بيان ، عن الشعبي ، عن ابن عباس أنه قال في الذي فداه الله بذبح عظيم ، قال : هو إسماعيل.

[8]حدثنا يعقوب ، قال حدثنا ابن علية ، قال حدثنا ليث عن مجاهد عن ابن عباس قوله : ((**وفديناه بذبح عظيم**)) ، قال : هو إسماعيل.

[9]وحدثني يونس بن عبدالأعلى ، قال حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني عمر بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبدالله بن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود.

[10]وحدثني محمد بن سنان القزاز ، قال : حدثنا أبو عاصم، عن مبارك ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس : الذي فداه الله عز وجل قال : هو إسماعيل.

[11]وحدثني محمد بن سنان ، قال: حدثنا حجاج، عن حماد، عن أبي عاصم الغنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس مثله.

[12]حدثني إسحاق بن شاهين، قال حدثني خالد بن عبدالله، عن داود ، عن عامر، قال : الذي أراد إبراهيم ذبحه إسماعيل.

[13]حدثنا ابن المثنى، قال حدثني عبدالأعلى، قال حدثنا داود ، عن عامر أنه قال: في هذه الآية ((**وفديناه بذبح عظيم**)) قال: هو إسماعيل، قال : وكان قرنا الكبش منوطين بالكعبة.

[14]حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان عن إسرائيل عن جابر ، عن الشعبي ، قال: الذبيح إسماعيل.

[15]حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان عن إسرائيل عن جابر ، أن الشعبي، قال: رأيت قرني الكبش في الكعبة.

[16]حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا ابن يمان، عن مبارك بن فضالة، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران : قال: هو إسماعيل.

[17]حدثنا أبو كريب، قال حدثنا ابن يمان ، قال حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ، قال : هو إسماعيل.)

[18]حدثني يعقوب ، قال: حدثنا هشيم ، قال أخبرنا عوف ، عن الحسن : ((وفديناه بذبح عظيم)) ، قال: **هو إسماعيل.**

[19]حدثنا ابن حميد ، قال حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق، قال سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله عز وجل إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله عز وجل في قصة الخبر عن إبراهيم وما أمر به من ذبح ابنه ، أنه إسماعيل ، وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم، قال: ((وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين)) ، ويقول : ((فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)) يقول : بإبن وابن إبن ، فلم يكن يأمره بذبح إسحاق ، وله فيه من الله من الموعود ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

[20]حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة ، قال حدثنا محمد بن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي ، عن محمد بن كعب القرظي ، أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة ، إذ كان معه بالشام ، فقال له عمر: إن هذا شئ ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت؛ ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم فحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء اليهود ، فسأله عمر بن عبدالعزيز عن ذلك. قال محمد بن كعب القرظي: ... : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره على ما أمر به ، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحق ، لأن إسحاق أبوهم.

[21] حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد ، عن الحسن بن أبي الحسن االبصري، أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم **اسماعيل**

[22] حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، قال: قال محمد بن إسحاق : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول ذلك كثيرا [64].

لقد توفي الإمام الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) سنة 310هـ ، وهو الذي جمع وحفظ وعرض لنا أخبار هذا الجدل بشأن "الذبيح" وشارك فيه واختار موقفا ورأيا. غير أن المسألة والجدل بشأنها لم ينتهيا ؛ فبعد وفاة الطبري بأربعمئة وستين عاما تقريبا يأتي أبوالفدا اسماعيل بن كثير[توفي سنة 774هـ]، ولا يكتفي برواية الحكاية نقلا عن الطبري، بل ويشارك فيها كما شارك الطبري، وإن كان قد اختار الموقف الآخر حيث أكد أن الذبيح أسماعيل. ولسنا نريد أن نعيد تفاصيل رواية ابن كثير، فالمجال لا يتسع لذلك. ومن المؤكد أن عشرات أو مئات أخرين من المؤلفين في التفسير ورواية الحديث قد تداولوا هذه الموضوعات في كتبهم عبر القرون.

وكل ما أردته من التعرض لهذا الموضوع هو أن ألفت النظر إلى ما جرى من تشويش وعبث في ميدان تفسير القرآن ، وقد حددت مجال العبث والتشويش في الأمثلة التي استعرضتها : **تابوت بني إسرائيل** ، ثم تحديد اسم **الذبيح من ولدي إبراهيم** ، عليه وعليهما السلام ، ثم **التفسير الشيعي**.

مهما يكن من أمر، ندع لمن أراد من القراء أن يتابع القصة مع ابن كثير في كتابه: ***تفسير القرآن العظيم***، سورة الصافات ، الآيات من 88 إلى 113. وتهمنا العبرة من كل الأمثلة التي استعرضنا حيث كشفت لنا التزوير والتناقض : فمجموع الروايات التي قالت إن الذبيح إسحاق إثنتا عشرة رواية ، بينما روايات القائلين بأنه أسماعيل بلغت اثنتين وعشرين رواية. والأهم من عدد الروايات لكل من الفريقين هو أن 4 من الاثنتي عشرة رواية التي اختارت إسحاق جعلت عبدالله بن عباس يقول أربع مرات : إن الذبيح إسحاق عليه السلام ، بينما 10 روايات أخرى منسوبة إلى ابن

[64] مصدر هذه الروايات كلها: محمد بن جرير الطبري ، ***تاريخ الطبري*** (بيروت : دار الكتب العلمية)، مجلد 1 ،الطبعة الثالثة 2005)، صفحات 158 - 163.

عباس نفسه ، جعلته يقول عشر مرات إن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق. أما الروايتان المنسوبتان إلى النبي (ص) فقد جعلتاه يناقض نفسه فيقول في الأولى: إنه إسحاق ، وفي الثانية: إنه إسماعيل؛ ولذلك لا غرابة أن يشمل الشك كل هذه الروايات على أساس أنها مكذوبة ومزورة، وأن من نسبت إليهم في أصلها لم يتفوهوا أو يعلموا بها.

مثال آخر للانحرف بالتفسير: قصة ملكة سبأ في تفسير القرآن:

وفي تفسيره لسورة النمل (الآيات 22 - 40) ينقل ابن كثير عن رواة قبله مشهورين ومعتمدين بشكل عام عند المفسرين والمحدثين ، وبعضهم من الصحابة والتابعين، نسبت لهم حكايات خرافية عن بلقيس ملكة سبأ ، ومن ذلك:

" قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ؛ وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة ، من بيت مملكة. وقال زهير بن محمد : هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارغة الجنية. وقال ابن جريج : بلقيس بنت ذي شرخ ، وأمها بلتعة.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن ، حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ابن عيينة عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة سليمان [أي بلقيس] مائة ألف قيل، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل [65]. وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى ((إني وجدت امرأة تملكهم)) كانت من بيت مملكة ، وكان ألو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلا ، كل منهم على عشرة آلاف رجل ؛ وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء. وهذا القول هو أقـرب [إلى المعقول ، ومع ذلك] فهو كثير على مملكة اليمن. والله أعلم [66]."

هنا نلاحظ أن ابن كثير كان متشككا في صحة المعلومات التي نقلها بشأن بلقيس، والتي تبدو مزورة في كل مثال مما استعرضناه ، حيث استخدمت نسبة تفسير

---

[65] أي أن عدد جيش بلقيس كان عشرة بلايين مقاتل ، عشرة مليارات ! ، وكلمة قيل تعني : "ملك" أو أمير ناحية.

[66] أبو الفدا ابن كثير ، ***تفسير ابن كثير***- الجزء التاسع عشر ، تفسير الآيات 22 - 40 من سورة سبأ . ويلاحظ هنا تعليق ابن كثير : **" وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على مملكة اليمن."** وتعليق ابن كثير تركز على عدد جيش بلقيس في الروايتين ، معتبرا أن الرواية الثانية أقرب إلى المعقول ، ولكن - مع ذلك - فإن العدد الأصغر أيضا **"كبير على مملكة اليمن."**

مزعوم للقرآن بنص رفعته الرواية إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو لأحد الصحابة ، وبذلك يتكرر دور السند في إخفاء التزوير في التفسير كما استخدم في بعض روايات الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي كل من هذه الأمثلة نجد الرواية تصل إلى اسم أحد **الصحابة** ، **وبعضها رفع إلى النبي** صلى الله عليه وسلم ، مع أن التزوير والوضع - في بعضها على الأقل - واضح ومؤكد ، مثل ما رأينا في بعض حالات استخدام سلسلة السند في روايات كثير من الحديث.

مثال من التحريف في التفسير الشيعي:

وفيما يلي **أمثلة** لتحريف معاني القرآن من تفسيرين شيعيين، بعيدا عن قصة الذبيح ، وموضوع الإسرائيليات ، لأنها تندرج تحت عنوان **: التفسير الباطني,**

عنعنة ... عن صالح بن سهل الهمداني قال:"قال أبو عبدالله عليه السلام [جعفر الصادق] في قول الله تعالى : ((**الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة:** " فاطمة عليها السلام " [أي فاطمة هي المشكاة، ونور الله يشبه بنور فاطمة وهي لا تدري**!**]، ((فيها مصباح)): "المصباح هو **الحسن**" ، ((المصباح في زجاجة)): "**الحسين**" ، "الزجاجة كأنها كوكب دري)): "**فاطمة كوكب دري** بين نساء أهل الدنيا " ((يوقد من شجرة لا يهودية ولا نصرانية." ، ((يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار))، يكاد العلم يتفجر بها.، ((نور على نور))، "إمام منا بعد إمام"، " يهدي الله لنوره من يشاء: "يهدي الله للأئمة من يشاء 62.)) هنا نجد أن تحريف التفسير استخدم لترويج ونشر المذهب بين الناس الأميين البسطاء؛ ويستحيل أن يكون الإمام جعفر الصادق فعل ذلك ، بل لقد نسب ذلك إليه زورا .

ثانيا: السنة وتعرضها للتزوير:

يخبرنا أبو الفدا ابن كثير (توفي 774 هـ) أن الوضاعين المزورين للحديث "أصناف كثيرة: منهم زنادقة [67] [كفار] ، ومنهم متعبدون يحسبون أنهم يحسنون صنعا

---

62 محمد بن يعقوب الكليني ، ***أصول الكافي*** ، ص 111 .

، يضعون [أي يختلقون ويزورون] أحاديث فيها ترغيب وترهيب ، وفي فضائل الأعمال ليعمل بها ... وهم من أشر ما [كذا] فعل هذا ، لما يحصل بضررهم من الغرر على كثير ممن يعتقد صلاحهم ، فيظن صدقهم ، وهم شر من كل كذاب في هذا الباب؛ وقد انتقد الأئمة كل شئ فعلوه من ذلك ، وسطروه ... عارا على واضعي ذلك في الدنيا ، ونارا وشرارا في الآخرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" ، وهو متواتر عنه. قال بعض هؤلاء الجهلة : " نحن ما كذبنا عليه، إنما كذبنا له ![68] "

وكما قال لنا ابن كثير، كذلك أخبرنا الدكتور محمد محمد أبو شهبة عن عمليات تزوير الأحاديث النبوية بقوله:

"وقد وضعت الزنادقة أربعة عشر ألف حديث" ، واعترف أحدهم (عبدالكريم بن أبي العوجا) بوضع أربعة آلاف حديث ، يحرم فيها الحلال ويحلل فيها الحرام، وكان عبدالكريم هذا يضع أسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل[69] ...". والدكتور أبوشهبة رحمه الله كان استاذ تفسير القرآن وعلم الحديث في الأزهر.

هنا يلزمنا أن نشير إلى أن مجموع الأحاديث التي أو ردها البخاري ، بما فيها المكرر ، سبعة آلاف ومئتان وخمسون حديثا ؛ أما إذا حذف المكرر فيبقى المجموع حوالي أربعة آلاف حديث [70]. ومجموع أحاديث صحيح مسلم حوالي أربعة آلاف حديث ، وأكثرها مما رواه البخاري ، حيث يصادف القارئ كثيرا عبارة : "رواه الشيخان" أي البخاري ومسلم. وعندما نعرف أن الزنادقة[71] وضعت أربعة عشر ألف حديث فمعنى ذلك أن الحديث المزور يبلغ عدده أكثر من ثلاثة أمثال عدد الصحيح ؛ وعندما نعرف أن ابن أبي العوجا زور عددا يساوي مجموع غير المكرر بالنسبة لكل من الصحيحين. وأضفنا إلى ذلك الأحاديث التي وضعها وزورها متصوفة ومتعبدون في

---

68 أبو الفدا ابن كثير ، ***الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث*** ، ص 74 - 75.

69 الدكتور محمد أبو شهبة ، ***الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير*** ، ص 86 - 87.

70 ابن كثير ، ***الباعث الحثيث*** ... ، ص 23.

71 زنادقة جمع زنديق ، كلمة فارسية معربة ، خلاصتها تعني : كافر ، أنظر معجم مختار الصحاح .

الترغيب والترهيب وهم يتوهمون أنهم يحسنون صنعا[72] - وهذه لم يحدد ولم يقدر أحد مجموع أعدادها - يغدو عدد الأحاديث النبوية الصحيحة نسبة قليلة عائمة في بحر لجي من الأحاديث المزورة ؛ وهذا يستوجب كثيرا من الحيطة والحذر عند تبني الحديث والاحتجاج به. وكتاب الدكتور أبو شهبة كله من أوله إلى آخره ، يستعرض أمثلة كثيرة من أشهر كتب التفسير وكتب الحديث فيتناول المشكلة من جميع جوانبها وآثارها.

الاستخدام السلبي للسند ورجاله :

لقد استخدم المشتغلون برواية الحديث سلسلة السند أداة لربط رواياتهم من الحديث النبوي الشريف باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك استخدمها بعض المزورين مدخلا لتسريب وترويج بضاعتهم الفاسدة ، كما فعل ذلك كثيرون من المشتغلين بتفسير القرآن ، الذين استخدموا سلسلة السند فنقلوا روايات متعددة مختلفة ومتعارضة حمل كثير منها تفسيرات باطلة كاذبة وخرافية بعيدة عما يمكن أن يقبله العقل. وقد مررنا بأمثلة من ذلك كثيرة من خلال ثلاثة مواضيع : تابوت بني إسرائيل ، والذبيح من ولدي سيدنا إبراهيم ، عليه وعليهما السلام، ثم الروايات الواردة في التفسير عن قصة ملكة سبأ ، ومثال التفسير الباطني الشيعي ، والباطني الصوفي.

ما المطلوب ؟ وما الهدف ؟

ليس من المطلوب أو المقبول الغرق في الشك وما قد يترتب عليه من أثار سلبية، ، بل المطلوب هو الحذر ، واستخدام أدوات الوقاية المناسبة، ومنها تفسير القرآن بالقرآن ، وبالمبادئ القرآنية الحاكمة ، وباللغة العربية الواضحة وباستخدام العقل والخبرات العقلية واللغوية وما دخل في ذلك من روايات المفسرين السابقين ، وإسقاط ما يسمى بالتفسيرات الباطنية.

---

[72] ابن كثير ، ***الباعث الحثيث*** ...، ص 74 - 75 ، وانظر أيضا الدكتور محمد أبو شهبة ، ***الإسرائيليات والموضوعات*** ص 86 - 87.

الفصل الثالث

المؤثرات المتسربة من الخارج

لقد تعرض الفكر الإسلامي في وقت مبكر لتسرب مقولات ومعلومات مغلوطة آتية من مصادر الديانتين اليهودية والمسيحية ، سيما وأن النص القرآني ذكر الديانتين ومتعلقاتهما في كثير من السور، واعترف بهما منذ البداية ، ومن أظهر تجليات ذلك الاعتراف إيمان المسلمين بالأنبياء نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا وعيسى

ويحيى، وأن المسلمين كثيرا ما يختارون لأبناءهم ما شاءوا من بين هذه الأسماء، وذلك بجانب إيمانهم بأن أصل الأديان السماوية واحد ورسالة الأنبياء كلهم واحدة ، ما عدا الاختلافات الفرعية بسبب اختلافات الزمان والمكان والبيئة ، أو الاختلاف الناتج عن تحريف أو وتزير بعض النصوص الدينية الأصلية.

وفيما يلي نقدم لقرائنا بعض أمثلة من هذا التسرب الخارجي إلذي طال الفكر الإسلامي :

المثال الأول :

في سفر التكوين ، وهو أول أسفار ***العهد القديم*** نجد نصين (الإصحاح الثاني عشر ـ والإصحاح العشرون) : يستـعرضان موقفين متشابهين ، في مضمونـهما العام ، من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، بغض النظر عن مدى دقة المعلومات وصدقيتها ، سأنقلهما هنا بالنص الحرفي :

الإصحاح الثاني عشر:

"... وحدث جوع في الأرض [فلسطين/أرض الكنعانيين]، فانحدر أبرام [إبراهيم] إلى مصر ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديدا. وحدث لما قرب أن يدخل مصرأنه قال لساراي [سارة] امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقوك . قولي إنك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك. فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ، ورأها رؤساء [أتباع] فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيرا بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير ، وعبيد وأتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعى فرعون أبرام وقال له : ما هذا الذي صنعت لي ، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك ، لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي. والآن هوذا امرأتك ، فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له." [انتهى الإصحاح 12]. ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى تساؤل فرعون : "لماذا لم تخبرني

أنها امرأتك ... ؟" لقد وضعت الحكاية إبراهيم عليه السلام في موضع الشبهة ، بل في موضع الاتهام ، حتى بلسان فرعون !

الإصحاح العشرون:

" وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب ، وسكن بين قادش وشور ، وتغرب في جرار[73]. وقال ابراهيم عن سارة امرأته هي أختي. فأرسل أبيمالك ، ملك جرار وأخذ سارة ، فجاء الله إلى أبي مالك في حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل ؛ ولكن لم يكن أبي مالك قد اقترب إليها، فقال: أ أمة بارة تقتل ، ألم يقل هو لي إنها أختي ، وهي نفسها أيضا قالت هو أخي. بسلامة قلبي ونقاوة قلبي فعلت هذا. فقال له الله في الحلم : أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطئ إلي ، لذلك لم أدعك تمسها. والآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك . فبكر أبي مالك في الغد ، ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم ، فخاف الرجال جدا. ثم دعا أبي مالك إبراهيم وقال له : **ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة ، أعمالا لا تعمل عملت بي.** وقال أبي مالك لإبراهيم ، ماذاعملت حتى رأيت هذ الشئ ، فقال إبراهيم : إني قلت : ليس في هذا الموضع خوف الله البتة ، فيقتلونني لأجل امرأتي. وبالحقيقة هي أيضا أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة ، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إلي في كل مكان نأتي إليه، قولي عني : هو أخي. فأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم ، ورد إليه سارة امرأته. وقال أبيمالك هوذا أرضي قدامك ، اسكن فيما حسن في عينيك. وقال لسارة : إني قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة ها هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك وعند كل واحد فأنصفت [بضم الهمزة وكسر الصاد ، والنص كما في الأصل]. فصلى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبي مالك وامرأته وجواريه، فولدن ، لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبي مالك بسبب سارة امرأة إبراهيم. [74]" [انتهى الاقتباس]

ومما يدعو للعجب أن هذين النصين المتعلقين بسيدنا إبراهيم ، في فترتين متقاربتين من حياته قبل ظهور الإسلام بألفي سنة ، تسرب مضمونهما - بنص معدل

[73] قادش و شور و جرار أسماء جغرافية قديمة لا نعرف مواقعها بدقة ، ولكنها ربما كانت حول نهر الأردن ، على الأرجح.

[74] المصدر ، ***الكتاب المقدس*** ، سفر التكوين ، الإصحاح 20 ، تصدره جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى - بيروت ، ساحة النجمة ، 1970.

ومشذب - إلى صحيح البخاري ، ***الجامع الصحيح*** ، كما سنرى فيما يلي ؛ هذا مع أن النص المتعلق بسيدنا إبراهيم ليس من أحاديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

مثال ثالث:

حديث لأبي هريرة (أو منسوب إليه):

" لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، ثنتين منهما في ذات الله عز وجل : قوله (إني سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقال: بينما هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له [أي قيل للجبار] : إن ها هنا رجل [كذا] معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه فسأله عنها فقال : من هذه ؟ قال أختي ؛ فأتى سارة فقال : ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق ؛ ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأطلق؛ فدعا بعض حجبته ، فقال : إنكم لم تأتوني بأنسان ، إنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو يصلي فأومأ بيده : مهيا ؟ قالت : رد الله كيد الكافر ، أو الفاجر في نحره ، وأخدمها هاجر. قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بني ماء ألسماء [75]."

الراوي : أبو هريرة ، المحدث : البخاري . خلاصة الحكم على الحديث : صحيح.

وبأي واسطة ومن خلال أي سلسلة سند تمكن أبو هريرة أن يروي عن سيدنا إبراهيم وبينهما أكثر من ألفي سنة ؟ وهل كان في إمكان أبي هريرة أن يتجرأ على وصف أبي الأنبياء إبراهيم بالكذب في أجواء تلك الفترة الزمنية وبين الصحابة ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة وأنه لم تكن له عشيرة لا في مكة ولا المدينة ، ولم يكن من الأغنياء ولا من أقوياء المحاربين !

ومع أن هذا النص ليس حديثا نبويا ، كما أشرنا ، فقد صدرحكم بأنه حديث صحيح! وهذا وجه آخر للغرابة! هل تفوه أبو هريرة بهذا الحديث ، أم أن أحد الوضاعين صاغه وألصقه باسمه زورا ؟ وفي النص المنسوب لأبي هريرة نجد أن مزور الحديث أراد إقناع المتلقي بأن (سارة) لم تمكث عند فرعون [المسمى: أحد الجبابرة]، ولا عند أبي مالك سوى فترة قصيرة قد لا تزيد عن بضع ساعات ، أما

---

[75] ***صحيح البخاري*** (الجامع الصحيح) الرقم 3358 .،

عندما يقرأ المتلقي النصين كاملين من مصدرهما الأصلي (سفر ألـتكوين) ويتأملهما ، يجد التفاصيل في الحالتين تظهر أن الفترة في كل من الحالتين كانت طويلة ربما تمتد أسابيع أو شهورا؛ ففي حالة فرعون يصاب البلد بنوع من الوباء فيطلب فرعون من المرأة المخطوفة أن تدعو الله له، فيرتفع البلاء، ثم يعود ليقترب منها، فيأتي بلاء آخر، ويتكرر ذلك ؛ وهذه حالة لا تنقضي في ساعات ولا في أسبوع واحد. وكذلك الحال مع أبي مالك ، مع اختلافات يسيرة ؛ وهذ ا كله ينطوي على إساءة إلى إبراهيم وزوجته، ويضعهما في موضع الشبهة ، خاصة عندما يشار إلى أن إبراهيم خرح من كل مناسبة بثروة كبيرة من العبيد وقطعان الجمال والبقر والغنم ثم المال؛ وتلك هي مقومات الثروة في ذلك الزمان. هل وقع أبوهريرة في هذا الخطأ ونقل هاتين الروايتين من غير تدبر ؟ أم أن المزور استخدم اسمه فقط ؟ **أما البخاري** فقد وقع فعلا عندما وسم الحديث بأنه صحيح ، وكيف له أن يقع، وكيف يتجاهل طول المدة بين زمن الأحداث وحياة أبي هريرة ؟ ومع كل احترامنا واجلالنا لقدرالإمام البخاري **!"**

والحقيقة أن إدخال البخاري لنصوص لا تعد من الحديث النبوي ودمجها في سياق كتابه ***الجامع الصحيح*** يعتبر أمرا مألوفا لمن اعتاد قراءة البخاري، خاصة عندما كان يذكر مناقب الصحابة وأمهات المؤمنين؛ بل إن لدينا بعض الأمثلة التي تظهر تدخله في النص - أحيانا - بشئ من التحوير ، لإضافة معنى مرغوب واستبعاد معنى آخر مكروه أومشوب .

مـثـال : وهاكم هذا المثال ، ومصدره هو ***صحيح البخاري*** نفسه أيضا :

تولى الحسن بن علي ، رضي الله عنه، الخلافة بعد حادثة الاغتيال التي تعرض لها والده رحمه الله سنة 40 للهجرة وقد استمرت خلافة الحسن ستة أشهر فقط. ؛ وفي السنة ذاتها بايع مسلمو بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان بالخلافة في بيت المقدس.

وكان الحسن ميالا لإنهاء الصراع رغم معارضة الحسين أخيه ؛ ولذا بادر بالكتابة إلى معاوية بشروطه ومطالبه ، وأتبعها بقوله: "إن أعطيتني هذا فأنا **سامع مطيع** ، وعليك أن تفي لي به ". فما هو أل **" هـذا "** الذي طلبه الحسن من معاوية مقابل تنازله عن المطالبة بالخلافة وتقديم السمع والطاعة له ؟ الذي نجده في ***صحيح البخاري*** يبين أن مبادرة أخرى جاءت من معاوية في نفس الوقت قبل أن يصل إليه كتاب الحسن ؛ ومعنى ذلك أن كلا من الطرفين قد مال إلى تحقيق أهدافه بوسائل غير قتالية ، مع اختلاف الهدفين؛ فماذا كانت تلك الوسائل ؟

رواية البخاري تعرفنا أن معاوية تأكد أن الحسن لديه قوات كبيرة تصعب هزيمتها، ولذا وجه مبعوثين للحسن ، هما عبدالرحمن بن سمرة ، وعبدالله بن عامر بن كريز، وقال لهما: "إذهبا إلى هذا الرجل [الحسن] فاعرضا عليه [ماذا يعرضان ؟ تجنب البخاري ذكره] واطلبا إليه .   فأتياه ، فدخلا عليه وتكلما وطلبا إليه فقال لهما الحسن : " إنا بنو عبدالطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها".   قالا : فإنه يعرض عليك **كذا وكذا** [هنا أيضا إخفاء ماهية العرض]، ويطلب إليك ويسألك؛ قال : فمن لي بهذا ؟ [أي من يضمن لي هذا ؟] قالا : نحن لك به ؛ فما سألهما شيئا إلا قالا: نحن لك به ، فصالحه.[76]"

ويبدو واضحا من النص الذي اجتزأناه - وقد تركت المقدمة اختصارا، لأنها لا تضيف شيئا - أن الإمام البخاري رضي الله عنه تعمد حذف الكلام الصريح عن المال ، وعن ذكر المبالغ التي عرضت أوطلبت من الجانبين ، سوى ما نقله عن الحسن في عبارة : "إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال..." ويبدو لي أن البخاري شعر بوجود تناقض بين مضمون الحديث الذي ذكره **منسوبا** إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشأن الحسن بن علي: "إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئـتين عظيمتين من المسلمين ." وبين القول بأن الحسن اشترط على معاوية أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، ومقداره خمسة ألاف ألف درهم، وخراج أقليم (دارا بجرد) مقابل تنازله عن الخلافة وتقديمه السمع والطاعة لمعاوية.   ونقطة التناقض الباعثة على الشك هي : هل كان "الإصلاح بين طائفتين عظيمتين من المسلمين" هو الهدف أم الحصول على المال **!** بل إن هذا التناقض قد يحمل على الشك في نسبة الحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا حرص البخاري - فيما يبدو لي - على عدم ربط اسم الحسن بالمال، فاستبدل الألفاظ التي حددت المبالغ، واستخدم بدلا منها ألفاظ التعمية والإبهام : " يعرض عليك ***كذا وكذا*** " ؛ بيد أن روايات أخرى كثيرة ، حفظها لنا عدد من كبار أئمة الإسلام ، أوردت هذه التفاصيل ؛ فعدا عن رواية ابن الأثير نجد روايات أخرى عند ابن كثير ، وعند شيخه الحافظ الذهبي ، وعند الإمام الطبري ، والإمام السيوطي ، وغيرهم ، تتحدث كلها بشئ من التفصيل عما فضل البخاري إخفاءه ودفنه وراء مفردات الإبهام والتعمية : " كذا وكذا؛" هذا فضلا عن أن كثيرا من الروايات تظهر عدم ميل الحسن شخصيا إلى حياة مليئة بالصراع، وتفضيله الهدوء والمتعة، حتى قيل إنه تزوج سبعين امرأة، ولم يخل من أن يكون عنده أربع زوجات حرائر وضرائر ،

---

[76] ***صحيح البخاري*** ، كتاب الصلح، ص 215. ، وابن كثير، ***البداية والنهاية*** ، ج. 8 ، 27 - 39.

يستبدلهن بالطلاق ثم الزواج بغيرهن من سنة إلى أخرى ، خلال فترة عمره القصيرة (خمس وأربعون سنة ، تحذف منها سنوات الطفوله 15 سنة ، إذ ولد 4 هجرية وتوفي 49هـ) ، هذا بجانب الإماء. وقد نقلت لنا المصادر أن والده الإمام علي قال علنا في مجلس عام ، مخاطبا من حوله : **"لا تزوجوا الحسن ، لأنه كثير الزواج والطلاق[77]."** وزيادة على ذلك فإن هذا "الحديث" المشبوه المنسوب للنبي صلى الله عليه وسلم يجعل معاوية وأنصاره "فئة عظيمة من المسلمين" مساوية للفئة المقابلة ، فئة الخليفة الشرعي في مقابل والي الشام المتمرد سعيا لانتزاع الخلافة لنفسه وابنه وأحفاده.

ومما قاله وكتبه ابن كثير بشأن ما كان معاوية يدفع للحسن من الأموال بعد تنازله عن الخلافة وإعلانه السمع والطاعة ، عدا عن الخمسة آلاف ألف من بيت مال الكوفة : كان "له على معاوية في كل عام جائزة ، وكان يفد إليه [أي يتردد عليه زائرا] ، فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم، وراتبه في كل سنة مائة ألف ، فانقطع سنة عن الذهاب وجاء وقت الجائزة فاحتاج الحسن إليها - وكان من أكرم الناس - فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه ، فلما نام تلك الليلة رأى رسول الله في المنام فقال له : يا بني ، أتكتب إلى مخلوق بحاجتك ؟ وعلمه دعاء يدعو به ؛ فترك الحسن ما كان هم به من الكتابة ؛ فذكر [فتذكره] معاوية وافتقده، وقال : ابعثوا إليه بمائتي ألف ، فلعل له ضرورة في تركه القدوم علينا ، فحملت إليه من غير سؤال."

وحتى هذه الرواية عن حلم الحسن وربطها باسم النبي صلى الله عليه وسلم تبعث على الحيرة والشك في صحة الحديث، لأن هدفه "إقناعنا بأن تدخل الرسول وظهوره للحسن ونصيحته له في المنام كل ذلك أنتج ثمرة هي مضاعفة مبلغ الجائزة السنوية من معاوية فصارت مئتي الف بدلا من مئة ألف"، ببركة التدخل النبوي" المزعوم .   ثم إن هذا المشهد الذي عرضته رواية ابن كثير لا بد وأن يثير بعض الأسئلة : لماذا كان معاوية حريصا على زيارة الحسن له ، ويفتقده عندما يتأخر عن الزيارة ؟ ويحرص على الاستمرار في تزويده بالمال؟ مع أنه ، أي معاوية ، كان أكثر حرصا على استمرار خطباء الجمعة في شتم علي كل أسبوع. وكيف كان الحسن يتصرف بهذه الأموال المتدفقة المتتابعة ؟ وهل كان هذا الكرم من مال معاوية الشخصي ، أو من المال العام ، مال الأمة، مستخدما لتثبيت واستمرار حكم الأسرة الأموية ؟

---

[77] ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج 8 / ص 32-34.

وفي سياق ترجمة ابن كثير للحسن بن علي بمناسبة وفاته ضمن أخبار سنة 49 هـ نقرأ : " قال محمد بن سيرين : ربما أجاز الحسن بن علي الرجل الواحد بمائة ألف درهم[78] ... قالوا : وكان كثير التزوج، وكان لا يفارقه أربع حرائر ، وكان مطلاقا مصدقا ، يقال إنه أحصن سبعين امرأة، وذكروا أنه طلق امرأتين في يوم واحد ، واحدة من بني أسد وأخرى من بني فزارة ... وبعث إلى كل واحدة منهما بعشرة آلاف وزقاق من عسل.[79].."

وكان الحسن قد اشترط على معاوية أن لا يشتم عليا. غير أن معاوية رفض الكف عن شتم علي ، فتنازل الحسن عن هذا الشرط ، واكتفى بأن طلب ألا يشتم أبوه وهو يسمع ، فوعده معاوية بذلك ، بيد أنه لم يف بوعده. ونعرف من كل المصادر المهمة أن الإمام علي رضي الله عنه ظل يشتم على المنابر، في معظم مدن دار الإسلام وظلت تلك الشتائم جزءا من خطب الجمعة حتى سنة 99 هجرية ؛ وفيها قام الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز بإلغاء دعاء الشتم بنفسه ، واستبدله بنص الآية القرآنية الكريمة : **"إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون.**[80]" وما زال كثيرون من خطباء الجمعة ، إلى أيامنا هذه ، يتلون نص هذه الآية عند نهاية الخطبة.

وربما يتساءل قارئ : لماذا يحرص الحسن على الزيارات المنتظمة المتتابعة لمعاوية وتلقي الأموال منه رغم استمراره في شتم والده علي ؟ الشتائم، لم تكن تصيب عليا الذي كان انتقل إلى الدار الآخرة قبل وفاة الحسن بتسع سنين ، بل كان الشتم يصيب الحسن نفسه ! وكان معاوية بن أبي سفيان قد عين - في بداية خلافتة سنة 40 هجرية - سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، واليا على الكوفة ، ربما لأن سعد كان ممن ينتقدون سياسات علي، بل لقد أورد البخاري أن سعدا كان ينهى عن اتباع علي في توجهاته القتالية. ورغم ذلك فقد امتنع سعد عن شتم علي، فلم يعجب امتناعه معاوية ، فسأله بلهجة المعاتب : لماذا لا تشتم أبا تراب ؟ [يعني عليا]، فبين له سعد موقفه، ولم يغيره، وظل على امتناعه عن الشتم ، ولذلك لم تطل ولاية سعد على الكوفة ، فولى معاوية بدلا منه المغيرة بن شعبة؛ ونبهه إلى أن **شتم علي على المنابر أهم ما يطلبه منه !** وقد طمأنه المغيرة والتزم بذلك، ونفذ ما وعد به.

---

[78] والجائزة غير الصدقة والزكاة ؛ الصدقة للمحتاج بقدر حاجته، ويفترض أن توزع لعدد كبير ، أما الجائزة فليست محصورة للفقراء المحتاجين ، بل تعطى - في الغالب - لأغنياء غير محتاجين ، انطلاقا من علاقة صداقة أو قرابة أو ولاء ، أولتقوية هذا النوع من العلاقات.

[79] ***المصدر نفسه*** ، 32 - 34، وقارن مع السيوطي ، ***تاريخ الخلفاء*** ، ص 188 - 193.

[80] سـورة النحل / 90.

العبث بحكايات التاريخ القديم:

وعدا عن العبث بتفسير القرآن، وتزوير الحديث بغية إفساد مصادر الفكر الإسلامي فإن كثيرين ممن احترفوا الاشتغال بالروايات التاريخية ورواية الحديث النبوي ، حرصوا على تضخيم بضاعتهم ورفع قيمتها - حتى ولو كان ذلك من الناحية الشكلية وعلى حساب الحقيقة - وأضافوا لها إضافات مزورة لإدخال الشعور بالدهشة في خيال القارئ شبه الأمي ؛ وفيما يلي بعض الأمثلة :

قال ابن إسحاق يصف أحداثا مفترضة وقعت في فترة ما قبل الإسلام:

" وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن، بين أضعاف من ملوك التبابعة، فرأى رؤيا هالته وفظع بها ، فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ... من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم : إني رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فأخبروني بها وتأويلها. قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ؛ قال: إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ؛ فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد مثلهما، فهما يخبرانه بما سأل عنه.

قال ابن إسحاق : فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ... [ووصف له حلمه :] رأيت حممة [أي فحمة] خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة [أي تهامة] فأكلت منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئا يا سطيح، فما عندك في تأويلها؟ فقال : احلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش ؛ فقال له الملك: وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ، في زماني هذا أم بعده ؟ قال : لا ، بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين. قال : فمن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : يليه إرم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن.

قال : أفيدوم ذلك من ملكه أم ينقطع ؟ قال : لا ، بل ينقطع. قال: ومن يقطعه ؟

قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي. قال: وممن هذا النبي؟ قال: رجل من ولد مالك بن فهر بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون.

قال : أحق ما تخبرني به ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق[81] .

ثم قدم عليه شق [الكاهن الآخر] ، ولا نريد أن نطيل بسرد أقواله ، فما نسب إلى شق لا يكاد يختلف عما نسب لسطيح .

ويبدو لي أن هذه الرواية كلها مختلقة مزورة... وفكرتها الأساسية ما هي إلا تقليد وتكرار لرواية وردت في سفر دانيال بشان حلم رآه ملك بابل نبوخذنصر الذي كان قد سبى الإسرائيليين ونقلهم إلى بابل في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. ونقرأ في الإصحاح الثاني من سفر دانيال أن نبوخذنصر رأى في المنام حلما ، وطلب من السحرة تفسيره، لكنه رفض أن يقص حلمه عليهم كما طلبوا، وأصر على أن يخبروه بالحلم ثم بتفسيره لكي يصدقهم [82]. أما صياغة النص العربي فهي من إنشاء ابن إسحاق نــفســـه .

وفضلا عن ذلك ، فإن الرواية عن الملك اليماني تنسب لكهنة اليمن علم الغيب ، كما تنسب لهم أنهم كانوا يؤمنون بالله ورسوله قبل ظهور الإسلام ، كما يؤمنون بيوم الحساب ! وابن إسحاق الذي ساق لنا هذه الرواية هو: - حسب ما قدمه لنا محقق كتابه - : "الشيخ المحدث المؤرخ محمد بن إسحاق بن يسار ، أبوبكر المدني ، ولد سنة 80 هـ، ... وأخذ العلم عن جمع غفيرمن العلماء الأفاضل، ... وارتحل إلى الكوفة والجزيرة والري وبغداد وآخرها مصر ، ثم عاد إلى المدينة المنورة.. وتوفي سنة 151 هـ ... "

"وقال ابن المديني : حديث ابن إسحاق صحيح ... وللعلماء مآخذ عليه ، خلاصتها أنه كان صدوق [كذا] في الرواية ، وكان يدلس ..."

"والتدليس قسمان : أحدهما أن يروي عمى [كذا في الأَصل ، عمن، عن من] لقيه ما لم يسمع منه ، أو عمن عاصره ولم يلقه موهما أنه سمع منه[83] " وهنا يمكن أن يتساءل القارئ : وما الفرق بين هذا وبين الكذب والتزوير ؟

---

[81] محمد بن إسحاق المطلبي ، ***السيرة النبوية*** ، ص 22 - 25. ويلاحظ هنا محاولة ابن إسحاق تقليد بعض أسلوب النص القرآني.

[82] ســفر دانيال ، الإصحاح الثاني ، ص 1261 - 1265 من الطبعة العربية للكتاب المقدس.

[83] ابن كثير ، ***الباعث الحثيث شرح ا ختصار علوم الحديث*** ، ص 50 - 51.

وأمثلة آخرى من التزوير :

" قال الزبير بن بكار ... عنعنة... وعبدالملك بن عبد العزيز ومن لا أحصي كثرة من أصحابنا "إن ابن الزبير كان يواصل الصوم سبعا ، يصوم يوم الجمعة ولا يفطر إلا ليلة الجمعة الأخرى [أي التالية] ، ويصوم بالمدينة ولا يفطر إلا بمكة ، ويصوم بمكة ولا يفطر إلا بالمدينة ..." وهذا مستحيل عمليا ، خاصة بالنسبة لشرب الماء أو السوائل البديلة؛ واسألوا الأطباء ، إن شئتم لتتأكدوا. أما الرحلة بين مكة والمدينة فقد كانت تحتاج بضعة أسابيع في تلك الأيام، وأكثر من ذلك لمن يمشي على قدميه ، كما نسبت بعض هذه الروايات إلى الحسن بن علي. هذا مع أن الله خفف عن المسافر في حالة صوم الفرض في رمضان، فكيف بصيام التطوع والنافلة **!**

ونذكر القارئ هنا بما سجلناه قبل قليل في سياق الروايات المتضاربة عن الذبيح، إسماعيل أو أسحاق ، وكيف كان بعض المزورين من الرواة يجعلون الصحابي

- المنسوب إليه الخبر - يقول عدة مرات أن الذبيح إسماعيل، ثم في مرات أخرى تالية يجعلونه،هو نفسه ، يقول : إنه إسحاق.

- " قال أبو نعيم الأصبهاني ... عنعنة ... كان لابن الزبير مئة غلام يتكلم كل غلام منهم بلغة غير لغة الآخر ، وكان ابن الزبير يكلم كل واحد منهم بلغته[84] ، وهذا كذب صريح أيضا ، وعبدالله بن الزبير برئ منه. أما ابن كثير فهو يروي عن غيره دون تدخل بالتصديق أو التكذيب، وإن كان يتدخل أحيانا، أي أننا لا ننسب هذه المبالغات الكاذبة لابن كثير نفسه.

التأثير الفارسي والإغريقي في الفكر الإسلامي:

بلاد فارس وسكانها جاوروا جزيرة العرب منذ أقدم العصور التاريخية ، من أيام حمورابي حوالي بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت آنذاك تعرف باسم عيلام، حضارة مجاورة، لكنها أقل شأنا، مع علاقات جوار متقلبة.

أما غريس Greece بلاد اليونان فقد ظهرت حضارتها القديمة في القرن السابع قبل الميلاد، بينما كان القرن الثامن قبل الميــلاد - بالنسبة

---

[84] ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، ج 8 ، ص 287 .

لليونان - فترة مظلمة، وسابقة - من الناحية التاريخية - على ارتفاع اليونانيين إلى مرتبة الحضارة والتحضر. ولقد نقل الإغريق المكونات الحضارية الأهم من الشام والعراق ومصر، فنقلوا الأبجدية من الساحل الشامي الذي شغله العرب الكنعانيون، وهم الذين أطلق عليهم اليونانيون القدماء اسم الفينيقيين، كما نقلوا الرياضيات عن البابليين والآشوريين. وكان لكل من جزيرتي كريت وقبرس دور مهم في الاتصال ونقل المكونات الحضارية إلى اليونانيين ، بحكم موقعهما الجغرافي الأكثر قربا من مصر والشام.

والشام هي أقصى شمال جزيرة العرب، ومن هذه الحقيقة الجغرافية ، اشتق اسمها (الشام)، أما اسم "سوريا" فقد استخدمه الإغريق وورثوه للرومان ومن بعدهم البيزنطيين. وكانت كريت قد ظهرت فيها الحضارة المينوية ، نسبة إلى ملكها مينو الأول، في القرن الثامن قبل الميلاد.

وكانت بلاد الإغريق مجزأة - من الناحية السياسية - في وحدات صغيرة أطلق المؤرخون على الواحدة منها اسم " ألمدينة - الدولـــة " City-state ، وكانت علاقاتها البينية تتميز بالتنافس والحروب والعداوات حتى النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد.

وقد نجح فلب Philip ملك مقدونيا، في توحيد الدويلات الإغريقية، ثم وجه جهوده لمهاجمة الإمبراطورية الفارسية التي كانت تشكل التهديد الأكبر لبلاد الإغريق وجوارها ، غير أنه تعرض للإغتيال سنة 336 قبل الميلاد ، وهكذا صار ابنه الإسكندر (الكساندر) ملكا وعمره ثماني عشرة سنة ، وكان معلم الكساندر هو الفيلسوف الإغريقي المشهور أرسطو.

ولم يضيع الأسكندر وقتا ، بل واصل تنفيذ خطة أبيه، وبدأ بالولاة الفرس المزروعين في آسيا الصغرى بلقب ستراب، وهو لقب فارسي كان يحمله عسكري مهمته عسكرية - مدنية؛ مسئولا عن إدارة محافظة أي وحدة إدارية.

وكانت الإمبراطوية الفارسية قد توسعت في تلك الحقبة من التاريخ فمدت سيطرتها إلى بلاد الشام ومصر .

وفي أقصى شمال الساحل السوري قاد الإسكندر قواته التي كان أعدها بتدريب جيد قبل أن يخرج بها من بلاده ، فألحق الهزيمة بالإمبراطور الفارسي دارا في معركة Issus شمال موقع مدينة إسكندرون التركية الحديثة، سنة 333 قبل الميلاد ؛ وقد فر دارا (داريوس) من أرض المعركة. ولم يجد الأسكندر - بعد ذلك - صعوبة في الاستيلاء على سهل كيليكيا وعلى الساحل الشامي كله، عدا ما واجهته به مملكة صور (وكان موقع عاصمتها

- أعني مملكة صور - في جنوب لبنان حاليا) ، حيث قاومت زحف جيشه وحصاره لها لمدة تسعة أشهر. وبعد أن احتلها نكل بسكانها وباع من نجوا من الموت في أسواق الرقيق. وواصل زحفه جنوبا فاستولى على مدينة يافا ثم على مدينة عسقلان بسهولة. لكن مدينة غـزة قاومته لمدة عشرة أيام؛ وكان سكان هذه المدن الثلاث - يافا وعسقلان وغزة من الفلسطينيين؛ ثم واصل الإسكندر زحفه إلى مصر. وفي مصر سافر إلى واحة سيوة في الجنوب الأقصى ، واحتفى به الكهنة المصريون باعتباره إبن آمون رع ، الإلاه الأسطوري عند قدماء المصريين؛ ثم بنى مدينة الإسكندرية ، التي سميت باسمه، وصارت بعده أهم مدينة في المنطقة ، وربما في العالم ، لفترة ما في العصور القديمه.

ويبدو أن معلومات وصلت الكساندر عن استعداد الإمبراطورالفارسي للحرب من جديد، فأسرع لملاحقته، فأدركه في شمال العراق وجرت المعركة الأخيرة في مكان ذكرته المصادر باسم Arbilaالذي يرجح أنه موقع مدينة أربيل ، عاصمة إقليم كردستان العراق حاليا (2015 م). ونتيجة لاستمراره في ملاحقة دارا ضاق قادة القوات الفارسية المنهزمة بملكهم فقتلوه ليرتاحوا من تلك الملاحقة المستمرة[85]. ومع ذلك فقد واصل الإسكندر حملته في

---

[85] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ***تاريخ الطبري*** ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، 2005) ، مجلد 1 ، ص 336 - 339.

نواحي وسط آسيا ، ثم انعطف نحو الجنوب لينحدر عبر ممر خيبر من سلسلة جبال هملايا لينقض على وادي السند. ولم يوقف رغبته في التوسع بلا حدود إلا تمرد جنده لكثرة ما نالهم من تعب وإعياء؛ وهكذا انعطف من وادي السند نحو بلوشستان الممتدة حاليا في أراضي باكستان وإيران ، ليصل إلى منطقة الخليج العربي. وقد قيل إنه عول على غزو جزيرة العرب، وكلف أحد قادة جيشه بجمع المعلومات عنها ؛ ويبدو أن المعلومات التي وصلته لم تحمل إغراء ، فيمم صوب العراق. وفي بابل أدركته الوفاة فمات بتاريخ الثالث عشر من حزيران سنة 323 ق.م. وقد قسمت إمبراطوريته بين قادة جيشه ، فكانت من شظاياها دولة البطالمة في مصر ودولة السلوقيين في بلاد الشام [86]. وقد أنشأ الإسكندر، وأنشأ خلفاؤه من بعده ، مدنا وممالك إغريقية بالطابع الإغريقي ، فكان منها الإسكندرية التي صارت عاصمة البطالمة في مصر، وأنطاكية التي صارت عاصمة السلوقيين في الشام بعد موت الإسكندر، ومدينة اسكندرونة ، وأنطاكيا، وإسكندرية أخرى في العراق، وأخرى قرب موقع هرات في أفغانستان غير بعيدة عن حدود أيران؛ حتى لقد قيل إن مجموع ما بناه من (الإسكندريات) بلغ اثنتين وسبعين مدينة. لكن الطبري ذكر في تاريخة إن المجموع كان نصف هذا العدد فقط. ومن المدن التي ذكرها الطبري مما بناه الإسكندر وسماها باسمه "مدينة بإصبهان ، وثلاث مدائن بخراسان، منهن مدينة هراة ومدينة مرو ومدينة سمرقند[87] ... وفي داخل كل من هذه المواقع التي أنشئت بعد موت الإسكندر كان ملوكها يؤسسون مدنا - ليس على النمط الإغريقي فحسب - بل يجلبون نواة سكانها من بلاد الإغريق، ويعدون لها دستورا، ومجلسا عاما له مكان ثابت ومحدد ، على غرار المدن اليونانية في موطنها الأصلي. وقد استمر الحكم الإغريقي في الشام ومصر مئتين وستين سنة ، وتأثر به السكان الأصليون، حتى في أسمائهم ولباسهم وممارساتهم اليومية. ولم ينقطع أو يمح التأثير الإغريقي بحلول الاسعمار الروماني محل الإغريقي واستمراره طوال القرون الستة

[86] ***Encyclopedia Britannica,*** 2011, Article Alexander the Great.

[87] ***المصـر نفســه.***

الأولى من التقويم الميلادي، لأن الرومان كان قد سبق لهم التأثر بالحضارة الإغريقية .

وبعد توقف حركة الفتح واستقرار العلاقات السلمية بين العناصر البشرية التي تشكل منها السكان في الشام ومصر والعراق وبلاد فارس ، أخذت المؤثرات الفارسية والإغريقية وغيرها تتسرب إلى عقول العلماء والمتعلمين المسلمين ، الأمر الذي ظهر أثره في الكتب المؤلفة في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي ؛ كما ترك اختلاط الناس من مستوى العامة آثارا واضحة في اللغة وأنماط السلوك الاجتماعي والمهن والمطالب الحياتية اليومية . وللتدليل على قوة هذه التغيرات - حتى على من هم في مستوى العلماء - اخترنا كتابا لعالم دين مشهور عاش في القرن الخامس الهجري وحاولنا إحصاء المرات التي استشهد فيها المؤلف بأفكار وأقوال من مصادر غير عربية وغير إسلامية اعتبرها نماذج من الحكمة السياسية والأخلاقية ؛ والمؤلف هو الفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت 450هـ/1058م) الذي كان يلقب بأقضى القضاة ؛ وهو الذي اختاره الخليفة القادر بالله وأرسله سفيرا لمقابلة السلطان السلجوقي طغرلبك في عاصمته الري ، وكانت في موقع تهران الحاليى تقريبا. والماوردي هو مؤلف كتاب ***الأحكام السلطانية والولايات الدينية*** ، الذي صار الكتاب الأشهر في الفكر السياسي التشريعي عند معظم "الفقهاء". لكننا اخترنا كتابا آخر من مؤلفاته هو كتاب ***نصيحة الملوك***[88] . ففي هذا الكتاب الصغير نجد الماوردي ينقل شواهد من مصادر إغريقية أربعين مرة [89] ؛ ومن المصادر الفارسية ثمانية وثلاثين مرة[90] ؛ ومن المصادر الهندية تسع عشرة مرة [91] . كما ورد في الكتاب استشهاد واحد منسوب إلى مصدر حميري (اليمن) ، واستشهاد آخر من مصدر صيني . وبطبيعة الحال فقد استشهد هذا الفقيه المشهور بالقرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين أكثر بمرات من عدد استشهاده بأقوال من مصادر

---

[88] - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ،***نصيحة الملوك*** ، تح. الشيخ خضر محمد خضر ، الكويت : مكتبة الفلاح , 1983.

[89] ***المصدر نفسه*** ، صفحات : 44و46و63 (شاهدان)و 84و91 و 100 و 105و 115 (شاهدان) و 120و127 - 128 و 133 و 136 و 140 و 144 و 155 و 163 و180-181 و 184-185 و203 و 208 (شاهدان) و 211 223 و 230-231 و 267 و 277 و 279 و 284 و 297 و 300 و 302 و 304-305 و 306 .

[90] - ***المصدر نفسه*** ، الصفحات : 34 و 42 و 43 (شاهدان) و 56 و 61 و 63 و 84 و 102 و 115 و 120 و 121 (شاهدان) و 124 و 130-131 و 133 و 136 (ثلاث شواهد) و 140 و 151 و 154 و 163 و 173 و198 215 و 224 و 266 و 271 و 276 (شاهدان) و 277 و 304 و 307 .

[91] - ***المصدر نفسه*** ، الصفحات : 52 و61 (ثلاث شواهد) و 115 و 127 و 134-135 و 145 و 146 (شاهدان) 150 209 و 217 و 301 و 304 (شاهدان) و 305-306 .

غير إسلامية ، في نفس الكتاب ؛ لكن هذا العدد الكبير من الاستشهادات المأخوذة من خارج الفكر الإسلامي في الصفحات المئة الأولى فقط من كتاب أبرز عالم ديني سني في أيامه ، ليدل بوضوح تام على أن حجم المؤثرات غير الإسلامية كان كبيرا جدا . ولقد قدمنا هذا الكتاب مثالا ، لكن كتبا أخرى كثيرة ظهرت قبل كتاب الماوردي وبعده ؛ وأحد هذه الكتب هو كتاب ***عيون الأخبار*** للفقيه والمحدث السـني المشهور أبي محمد عبدالله بن محمد بن قتيبة المتوفى سنة 274هـ ، وليس في النية إحصاء الاقتباسات والاستشهادات التي وردت فيه من مصادر غير إسلامية ، ففيه منها الكثير ، وهو في أربعة مجلدات ، ويمكن لمن أراد الاطلاع على مزيد من هذه الاسـتشـهـادات أن يراجعه [92] .

لقد **اتسع التأثر** والنقل وبدأت ترجمة كتب كاملة في موضوعات شتى . ويكفي أن نلقي نظرة على ***كتاب الفهرست*** لمحمد بن إسحاق النديم (ت 385هـ) ، ففيه قوائم كثيرة بأسماء المؤلفين وعناوين كتبهم في موضوعات متعددة مما ظهر متداولا في أيدي المسلمين في عصره، قبل سنة 377هـ ، وهي السنة التي صنف فيها كتابه المذكور . وابن النديم كان وراقا، أي بائع كتب ، وعن طريق مهنته عرف الكتب التي مرت عليه وعلى زملاء المهنة ، ويبدو من طريقة عرضه أنه قرأ كثيرا منها وذكر أسماء مؤلفيها بالإضافة إلى عناوينها ، وأحيانا قدم نبذة مختصرة عن محتوى الكتاب . وفيما ضمته هذه القوائم نجد أسماء عدد كبير من الكتب المترجمـة عن الإغريقية والفارسية وغيرها ، إلى اللغة العربية [93]. وقد قسم ابن النديم كتابه عشرة أقسام ، أو عشرة مقالات ، كما سماها . ولعل المقالة الثامنة هي الأكثر إثارة فيما نحن بصدده . فالمقالة الثامنة تشمل ثلاثة أقسام ، أو ثلاثة فنون ؛ وقد بدأها هكذا : "المقالة الثامنة من كتاب الفهرست في أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب ، وهي ثلاثة فنون : الفن الأول في أخبار المسامرين والمخرفين وأسماء الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ." وقد ذهب إلى أن "أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن ... الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه [94] . ." وأضاف أن أول كتاب ألف في هذا الموضوع هو كتاب ***هزار أفسان*** [ألف خرافة] ،

---

[92] - أنظر على سبيل المثال : ص 312 من المجلد الأول ، و ص و113 و من المجلد الثالث من كتاب ابن قتيبة المذكور .
[93] - محمد بن إسحاق النديم ، ***الفهرست*** (بيروت : مكتبة خياط ، مصورة عن الطبعة الأوربية بعناية Gustav Flugel وآخرين.
[94] ***المصدر نفسه*** ، ص 304 .

ثم ذكر السبب في تأليفه فإذا به يماثل حكاية شهرزاد التي تزوجت ملكا كان يقتل عروسه كل ليلة ، فأخذت تحكي له حكايات مشوقة ، وتقطع الحكاية بحجة النعاس لتستأنفها في الليلة التالية حتى بلغت ألف ليلة وليلة وقد صار لها منه أطفال ، فصارحته بلعبتها الذكية ولم يقتلها. والمهم فيما ذكره صاحب الفهرست أن "محمد بن عبدوس الجهشياري ، مؤلف كتاب الوزراء ، وضع كتابا على شاكلة كتاب ***هزار أفسان*** جمع مادته من المسامرين ، ومن الكتب المصنفة قبله ، أودع فيه أربعمائة وثمانين حكاية ثم توفي قبل أن يتمه. وقد أشار ابن النديم إلى أنه اطلع بنفسه على أجزاء الكتاب [95].
ونورد فيما يلي عناوين بعض الأقسام من المقالة الثامنة من كتاب الفهرست :

(1)أسماء الكتب التي ألفها الفرس (2) أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث (3)أسماء كتب الروم في الأسمار والتواريخ (4) أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم للسمر .(5) أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس (6) الحيل والطلسمات (7)الكلام على الطريقة المحمودة في العزائم (8) أسماء العفاريت الذين دخلوا على سليمان بن داود ... الخ [96].

أما الفن الثالث من المقالة الثامنة من كتاب الفهرست فنذكر منه العناوين التالية :

(1) الكتب المؤلفة في الخيلان والاختلاج والشامات والأكتاف والكتب المؤلفة في الفأل والزجر [لمؤلفين من] الفرس والهند والروم والعرب (2) الكتب المؤلفة في البيطرة وعلاج الدواب وصفات الخيل (3) الكتب المؤلفة في الجوارح واللعب بها وعلاجاتها للفرس والروم والترك والعرب (4) أسماء الكتب المؤلفة في المواعظ والآداب والحكم للفرس والروم والهند والعرب مما يعرف مؤلفه أو لا يعرف (5) الكتب المؤلفة في الطبيخ (6) الكتب المؤلفة في التعاويذ والرقي .

أما المقالة التاسعة ، أو الجزء التاسع من كتاب الفهرست فموضوعه المذاهب والاعتقادات . وتضم القائمة الأولى في هذا القسم : الكتب المؤلفة في "مذاهب الحرنانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة ، ومذاهب الثنوية الكلدانيين . أما القائمة الثانية من المقالة التاسعة فتتحدث عن مذاهب الهند ومذاهب أهل الصين.

---

[95] - ***المصدر نفسه*** والصفحة ذاتها .

[96] - هذه العناوين منقولة من الصفحات 30 - 310 من كتاب ***الفهرست*** .

لقد توسعنا قليلا في النقل عن كتاب الفهرست لأننا نريد أن نظهر حجم تغلغل الثقافات غير الإسلامية في الفكر الإسلامي خلال القرون الأولى من التاريخ الإسلامي ؛ وأظننا قد أنجزنا ذلك.

الفصل الــرابــع

أثــر الصراعات الداخلية في الفكر الإسلامي:

وكانت الصراعات الداخلية في المجتمع الإسلامي قد أطلت برأسها منذ بدأ التنافس على منصب الخلافة ، ثم اشتدت بعد حين، وعادت روح العصبية القبلية، وتشكلت بعض التكتلات السياسية والحزبية ، ثم حدث أول انقلاب عسكري في التاريخ الإسلامي عندما قام والي الشام وقائد القوة العسكرية المرابطة في بلاد الشام ، بحركة تمرد ، وتمكن من اغتصاب الخلافة ، فانفرط العقد ودخلت أمة الإسلام دوامة الصراع العشائري (الأمويون والعلويون والعباسيون) إلى آخر هذه السلسلة الطويلة المعروفة التي لا نحتاج إلى متابعة حلقاتها. وما يعنينا هنا أن المتنافسين والمتصارعين، أوأنصارهم لجأوا إلى نصوص القرآن والحديث لتأييد ادعاءاتهم.

التعصب للبلدان :

مثال حجية إجماع أهل المدينة:

كان مما استند إليه المالكية في قولهم : "الإجماع هو إجماع أهل المدينة" إذ هي "مهبط الوحي ودار الهجرة ومجتمع الصحابة، ومحل سكنى النبي .. فأهلها أعلم بذلك ممن سواهم ، وهم شهداء آخرالعمل من النبي وعرفوا ما نسخ وما لم ينسخ [97]. وكان القاضي عياض ممن يرفعون شعار حجية فقه أهل المدينة ، ومن ذلك قوله : " اعلموا رحمكم الله أن ترجيح مذهب مالك على غيره وإنافة منزلته في العلم وسمو قدره ، من طريق النقل والأثر ، لا ينكره إلا معاند أو قاصر لم يبلغه ذلك ، مع اشتهاره في كتب المخالف والمباعد ، وها نحن نقرر ذلك في حجتين ، أولاهما بالتقديم ، وهو الأثر المشهور الصحيح المروي في ذلك عن رسول الله عليه السلام من حديث الثقات ، منهم سفيان بن عيينة عن أبي جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم. وفي رواية يلتمسون العلم فلا يجدون عالما أعلم من ، وفي رواية من عالم المدينة. وفي بعضها آباط الإبل مكان أكباد الإبل ، وقد رواه غير سفيان عن ابن جريج بمثل حديث سفيان ، منهم المحاربي موقوفا على حديث أبي هريرة ومحمد بن عبدالله الأنصاري ، وهو في سند وهو ثقة مأمون. وهذا الطريق أشهر طرقه ، ورجال هذا الطريق رجال مشاهير ثقات خرج عن جميعهم البخاري ومسلم وأهل الصحيح ، ورواه أيضا المقبري عن أبي هريرة بلفظ آخر حدث به القاضي أبو البختري عن وهب بن منبه عن عبدالأعلى بن عبدالله عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تنقضي الساعة حتى يضرب الناس أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه ، إلا أن أبا البختري ضعيف عندهم ؛ وقد رواه النسائي أيضا وخرجه في مصنفه عن علي بن محمد بن كثير عن سفيان عن أبي الزناد عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم تضربون أكباد الإبل وتطلبون العلم فلا تجدون عالما أعلم من عالم المدينة. قال النسائي : هذا خطأ والصواب أبو الزبير عن أبي صالح. ورواه أيضا أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ آخر حدث به معن بن عيسى عن أبي المنذر التميمي زهير قال :

---

[97] الإمام علي بن حزم الظاهري ، ***الإحكام في أصول الأحكام***، تحقيق محمد محمد تامر (بيروت : دار الكتب العلمية ، 2010م.) المجلد الأول،
ص 682.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة. وذكر ابن حبيب حديثا بسنده عن أبي صالح عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تنقطع الدنيا حتى يكون عالما [كذا] بالمدينة تضرب إليه أكباد الإبل ليس على ظهر الدنيا أعلم منه.

قال سفيان بن عيينة من غير طريق واحد : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس وفي رواية هو مالك بن أنس ، ومثله عن ابن جريج وعبدالرزاق ، وروي عن سفيان أنه قال كنت أقول هو ابن المسيب حتى قلت : كان في زمن ابن المسيب سليمان وسالم وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك؛ وذلك إنه عاش حتى لم يبق له نظير بالمدينة ، وهذا هو الصحيح عن سفيان ، رواه عنه الثقات والأئمة ابن مهدي ويحيى بن معين وعلي بن المديني ، والزبير بن بكار ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وذويب بن غمامة السهمي وغيرهم (كلهم) سمع سفيان يقول في تفسير الحديث إذا حدثهم به : هو مالك ، أو أظن أو أحسبه أو أراه وكانوا يرونه ، قال ابن مهدي يعني سفيان بقوله كانوا يرونه التابعين. قال القاضي أبو عبدالله التستري هو اخبار عن غيره من نظرائه أو ممن هو فوقه وان منزلته كانت في نفوسهم هذه المنزلة لما شاهدوه من حاله التي تشبه ما أخبر به في الحديث ، قال وقد جاءت هذه الأحاديث بلفظين أحدهما : لا يجدون عالما أعلم من عالم بالمدينة ، والآخر : من عالم المدينة ، ولكل واحد منهما معنى صحيح ؛ فأما قوله : من عالم بالمدينة فإشارة إلى رجل بعينه يكون بها لا بغيرها ، ولا نعلم أحدا انتهى إليه علم أهل المدينة وأقام بها ولم يخرج منها ولا استوطن سواها في زمن مالك مجمعا عليه إلا مالكا ، ولا أفتى بالمدينة وحدث نيفا وستين سنة أحد من علمائها يأخذ عنه أهل المشرق والمغرب ويضربون إليه أكباد الإبل غيره ...

وقال القاضي ابو محمد عبدالوهاب : أما إنه لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول المراد به إمامي. ونحن ندعي أنه صاحبنا بشهادة السلف ، وأنه إذا أطلق بين أهل العلم : عالم المدينة ، وإمام دار الهجرة فالمراد به مالك عندهم دون غيره من علمائها ، كما إذا قيل : قال الكوفي فالمراد به أبو حنيفة دون سائر فقهاء الكوفة.

قال القاضي أبو الفضل رضي الله تعالى عنه : فوجه احتجاجنا بهذا الحديث من أنه مالك من ثلاثة أوجه : أحدها تقييد السلف بأن المراد بالحديث هو حسبما نقلنا عنهم ، وما كانوا ليقولوا ذلك إلا عن تحقيق ، ولا ليذيعوه بهوى ، وهم المبرؤون من ذلك مع تنافس الأقران ، وما جبلت عليه القلوب من قلة الإنصاف للأمثال ، فكيف فضل هذا [كذا]. الوجه الثاني أنك إذا اعتبرت ما أوردناه من شهادة السلف الصالح بأنه أعلم من على ظهر الأرض، وأعلم من بقي ، وأعلم الناس وإمام الناس ، وعالم المدينة وإمام دار الهجرة، وأمير المؤمنين في الحديث ، وأعلم علماء المدينة وتعويلهم عليه ، واقتداؤهم به ، وإجماعهم على تقديمه ، وطالعت ذلك فيما نورده من أخباره ، ظهر وبان أنه المراد بالحديث إذ لم تحصل هذه الألفاظ لغيره ولا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه. الوجه الثالث هو ما نبه عليه بعض الشيوخ من أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها إلى عالم ولا

رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك لما اعتقدوا فيه من تقديمه على سائر علماء وقته ، ولو اعتقدوا ذلك في غيره لما ولوا إليه[98]..."

وكما فعل أتباع المذاهب الأخرى فقد حرص المالكية على حشد عدد كبير من الروايات عن الأحلام التي تزيد من تأكيد مكانة مالك وترفع من شأنه ، واعتبروها أدلة قطعية تؤكد ما أرادوه، وجعلوها تحت عنوان : " باب في رؤيا أهل العلم الدالة على علمه وإمامته" وقد غطت قصص هذه الأحلام والمنامات ست صفحات من المجلد الأول من كتاب ***ترتيب المدارك*** [99] ، وسنكتفي باستعراض واحد منها فقط ، وهو أقصرها ، تجنبا للإطالة :

"وقيل إن الفضيل بن عياض رأى في المنام أنه دخل الجنة ، قال : بينما أنا في طرقها إذ مررت بزيد بن أسلم بين غرفة من غرفها وعليه قلنسوة طويلة ، فقلت : زيد ؟ قال نعم. قلت له : سكنك الله وشرفك ، فأين مالك ، لا أراه ، قال : مالك فوق ... قال : مالك فوق ذلك ، فما زال يقول فوق حتى وقعت قلنسوته[100]."

وصيغة هذا النص تتطلب شيئا من الإيضاح: القلنسوة: غطاء الرأس الذي يسمى بالعامية "طقية" ، وكانت تنسج باليد ، ويعمل لبعضها رأس وسطي مرتفع إلى أعلى ، وعندما سئل زيد عن مالك وقيل له إنه فوّق ، فهذا يعني أنه رفع بصره إلى السماء، وذلك جعله يحني مؤخرة رأسه إلى الخلف كي يصوب بصره إلى السماء ويزيد من هذه الحركة كلما كرر كلمة فوق فوق ليبين ارتفاع درجة مالك في مراتب الجنة ، حتى سقطت قلنسوته = طـقيته ، **أي طقية زيد، عن رأسه.**

الشاميون:

ونجد فيما رواه لنا الإمام ابن تيمية بعض أمثلة من التعصب للبلدان والأقطار : ومنها أن كثيرا من الحجازيين يرون ألا يحتج بحديث عراقي أو شامي إن لم يكن له أصل بالحجاز ، حتى قال قائلهم : "نزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، لا تصدقوهم ولا تكذبوهم."

وبعض العراقيين يرى ألا يحتج بحديث الشاميين ؛ وإن كان أكثر الناس قد ترك التضعيف بهذا، فمتى كان **الإسناد جيدا** كان الحديث حجة ، حجازيا ، عراقيا ، شاميا ، أو غير ذلك[101]."

ونقرأ في حديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" سيكون هجرة بعد هجرة ،** فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم حيث ما كانوا وتقيل معهم حيث ما قالوا."

---

[98] القاضي عياض ، ***ترتيسب المدارك*** ، م.1 ، ص 82 - 86 .

[99] ***المصدر نفسه*** ، 239 - 246 .

[100] ***المصدر نفسه*** ، ص 239.

[101] أحمد بن تيمية ، ***رفع الملام عن الأئمة الأعلام*** :(دمشق: المكتب الإسلامي، 1398 هـ.) ص29.

" فقد أخبر[النبي] أن خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ومهاجر إبراهيم هي الشام. وفي هذاالحديث بشرى لأصحابنا [النص لابن تيمية] الذين هاجروا من حران وغيرها إلى مهاجر إبراهيم واتبعوا ملة إبراهيم ودين نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة."

"والشام إليها يحشر الناس ، كما في قوله : " لأول الحشر"، نبه على الحشر الثاني ، فمكة مبدأ وإيلياء [أي القدس] معاد في الخلق ؛ وكذلك بدأ الأمر ، فإنه أسرى بالرسول من مكة إلى إيلياء ، ومبعثه ومخرج دينه مكة ، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي ، بالشام ، فمكة هي الأول والشام هي الآخر ، في الخلق والأمر ، في الكلمات الكونية والدينية. ومن ذلك أن بها الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة التي ثبت فيها الحديث في الصحاح من حديث معاوية وغيره: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة [102]." [مرجعه الذي استند إليه وذكره : صحيح الجامع الصغير[7164 - 7173] ، وأضاف إلى ذلك : وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل قال: "وهم بالشام" وفي تاريخ البخاري مرفوعا : قال : "وهم بدمشق[103]."

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة ، إلى جانب مديهة يقال لها دمشق ، من خير مدائن الشام." [تعليق الشيخ الألباني]

حديث صحيح أخرجه أبو داود ... والحاكم ... وأحمد... وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وأقره المنذري ... وهو كما قالوا.

-- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسوالله صلى الله عليه وسلم: "أربع مدائن من الدنيا في الجنة: مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق. وأربع مدائن من مدائن النار : رومية ، وقسطنطينية ، وصنعاء ، وأنطاكية..." وقدعلق الشيخ الألباني: " قلت حديث موضوع ، في إسناده الوليد بن محمد الموقري، قال ابن حبان وغيره : (روى عن الزهري أشياء موضوعة لم يروها الزهري قط)

قلت [الألباني قال]: وهذا من روايته عن الزهري ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، فأصاب ... ونص كلام ابن الحوزي : (لا أصل له ، والوليد كذاب...).

-- عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :ستكون دمشق في آخرالزمان أكثر المدن أهلا، وهي تكون لأهله معقلا ، وأكثر أبدالا

---

[102] مرجعه الذي استند إليه : ***صحيح الجامع الصغير***، رقم 7164 - 7173.

[103] شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، ***مناقب الشام وأهله***، (دمشق : المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ، 1405 هـ) ، ص 78--79 و 82-85.

، وأكثر مساجد ، ، وأكثر مالا ، وأكثر رجالا ، وأقل كفارا . ألا وإن مصر أكثر المدن فراعنة ، وأكثر كفورا ، وأكثر ظلما ، وأكثر رياء وفجورا وسحرا وشرا ،

فإذا عمرت أكنافها بعث الله عليهم الخليفة الزائد البنيان ، والأعور الشيطان والأخرم الغضبان ، فويل لأهلها من أتباعه وأشياعه." ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور[104].**)) قلت: [الألباني قال] حديث منكر تفرد بروايته محمد بن إبراهيم ... فهو مجهول الحال ، وسائر رواة الحديث ثقاة غيره... غير أن حديثه هذا فيه جملة صحيحة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي خروج المهدي ؛ والأحاديث في ذلك كثيرة جدا ، وأشهرها حديث منسوب إلى عبدالله بن مسعود مرفوعا :" لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما." ثم انعطف الالباني ليقول لقرائه : "وقد أخطأ ابن خلدون خطأ واضحا حيث ضعف أحاديث المهدي كلها ، ولا غرابة في ذلك فإن الحديث ليس من صناعته. والحق أن الأحاديث الواردة في المهدي فيها الصحيح والحسن وفيها الضعيف والموضوع ، وتمييز ذلك ليس سهلا إلا على المتضلع في علم السنة ومصطلح الحديث [105]. "

وزعم الألباني "أن الأحاديث الواردة في المهدي فيها الصحيح والحسن ... "، هذا الزعم ينقضه ويفضح خطأه النص القرآني في عدد من الآيات التي سنوردها بعد قليل. وتخطئة الألباني لابن خلدون هي الخطأ بعينه ، ليس لأن ابن خلدون من كبار علماء الدين المسلمين فحسب ، بل ولأن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ليس من أقرانه ، مع احترامنا للألباني وابن خلدون كليهما؛ ومصدر الخطأ عند الألباني هو المنهج الذي يعتمد بالدرجة الأولى على تصنيف رجال السند ، وعلى الرواة الأولين الذين يعتبرون من الصحابة، وعلى تعريف أهل الحديث للصحابي، إذ أن المجتمع الإسلامي في العهد النبوي ضم الصحابة ، كما ضم كثيرين من المنافقين الذين لم تكن أسماؤهم معروفة حتى للنبي نفسه، كما يخبرنا القرآن ، وهذا يعني أن كل واحد من هؤلاء المنافقين المجهولين الكثر ظل يعتبر صحابيا عند متبعي المنهج المعتمد على السند بشكل رئيسي ، وعلى أن الصحابة كلهم عدول. و السند هو الذي كان يحفظه المحدثون والمشتغلون بالحديث غيبا عن ظهر قلب، قبل البدء بتسجيل الحديث في

---

104 سورة سبأ / 17

105 محمد ناصر الدين الألباني ، ***تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي*** ، ص34 - 48.

القرن الثاني ، واستمرت وسيلة الحفظ بعد ذلك طويلا ، كما أشرنا من قبل ، مع ما في الطبيعة البشرية من النسيان والتعرض للخلط اللا إرادي. والمنزه عن النسيان هو الله جل وعلا وحده ، **((وما كان ربك نسيا[106].))** هذا فضلا عن ثقافة ابن خلدون الإسلامية والعامة ، وخبراته الحياتية، أوسع بكثير مما كان لدى الشيخ ناصر الدين الألباني بدرجة لا تسمح بالمقارنة ؛ رحمهما الله جميعا ، ورحمنا

المذاهب والفرق:

ولم تنحصر محاولات استخدام نصوص الكتاب والسنة في ادعاءات المشتغلين بالصراع على السلطة وأنصارهم ومن تبعهم، بل تطورت تلك الخلافات وانتقلت إلى المشتغلين بالعلوم الإسلامية ، وأدى كل ذلك إلى ظهور الفرق والمذاهب الفقهية السنية والشيعية المختلفة. وهكذا انضاف ميدان جديد للجدل ؛ وميدان جديد للتشرنق الفكري المنغلق على نفسه ؛ ومن خلال هذا الإطار المذهبي ظهر مصدر جديد تمثل في أقوال وكتابات الفقهاء البارزين والكبار من رجال كل مذهب ؛ ثم صارت مؤلفات البارزين من فقهاء المذاهب هي "الشريعة" في نظر كثيرين ، بل الأكثرين ؛ وهنا أجدنا بحاجة إلى وقفة تأمل وتدبر وتفحص ، أشارك فيها قرائي.

لقد صارت الكتب التي ألفها فقهاء كل من المذاهب مرجعا رئيسيا لفقهاء المذهب ثم اعتبرت وافترضت مرجعا إسلاميا عاما همش الكتاب والسنة من الناحية العملية؛ وإن لم يعلن أي من العلماء ذلك ولم يقصده عن وعي؛ وفيما يلي نستعرض بعض الأمثلة لتوضيح هذه الحالة وبلورتها من خلال ما ورد في الكتب المذهبية التي كانت تعبر عن المذهب باعتباره كيانا جمعيا لمنتسبيه وليس عن الرأي الشخصي لمؤلفه وحده.

- **مثال** من الفقه الحنبلي[107] :

لقد استعرض مؤلف كتاب ***القواعد في الفقه الإسلامي*** مائة وأربعا وسـتين قاعدة فقهية اخترت منها واحدة مثالا وحرصت أن تكون قصيرة.

نص القاعدة الرابعة عشرة:

---

106 سـورة مريم / 64.

107 الحافظ عبدالرحمن بن رجب الحنبلي، ***القواعد في الفقه الإسلامي*** ، بعناية محمد العرب (صيدا - بيرت: المكتبة العصرية ، 2005).

" إذا وجد سبب إيجاب أو تحريم من أحد رجلين لا يعلم عينه منهما، فهل يلحق الحكم بكل منهما أو لا يلحق بواحد منهما شئ ؟ "
وقد بين لنا ابن رجب أن في المسألة خلافا بين كبار فقهاء المذهب الحنبلي نفسه ، ولها صور :
وفيما يلي: مثالين تطبيقيين قدمهما لنا لشرح هذه القاعدة الرابعة عشرة:
" الصورة الأولى : إذا وجد اثنان منيا في ثوب يناماهن فيه ، أو سمعا صوتا خارجا ولم يعلم من أيهما هو [أي ضراط] ، ففي المسألة خلاف ولها صور :
إحداهما : لا يلزم واحد منهما غسل ولا وضوء ؛ نظرا لأن كل واحد منهما متيقن للطهارة شاك في الحدث.
والثانية : يلزمهما الغسل والوضوء لأن الأصل زال يقينا في أحدهما فتعذر البقاء عليه ، وتعين الاحتياط ، ولم يلتفت إلى النظر في كل واحد بمفرده ، كثوبين أو إنائين نجس أحدهما .

الصورة الثانية : [رجلان كانا يمشيان معا فرأيا طائرا يتحرك عاليا عن بعد، فاختلفا بشأن نوع الطائر، فكان من جدلهما :] قال أحد الرجلين : إن كان هذا الطائر غرابا فامرأتي طالق. وقال الآخر : إن لم يكن غرابا فامرأتي طالق ، وغاب الطائر ولم يعلم ما هو . ففيها وجهان :
أحدهما : ما قال القاضي في المجرد ، وأبو الخطاب وغيرهما : يبقى كل واحد منهما على يقين نكاحه.
والثاني : وهو اختيار الشيرازي في الإيضاح ، وابن عقيل أنه تخرج المطلقة منهما بالقرعة ؛ وقال القاضي في الجامع : هو قياس المذهب ، لأن واحدة منهما طلقت يقينا وأخرجت بالقرعة كما لو كانت الزوجتان لرجل واحد. وذكر بعض الأصحا ب [أي المنتسبين إلى المذهب] احتمالا يقتضي وقوع الطلاق بهما حكما كما تجب الطهارة عليهما في المسألة الأولى. وقد أومأ إليه أحمد في رواية صالح ؛
[المثال الثالث] : وحكي له قول الشعبي في رجل قال لآخر : إنك لحسود **!** فقال له الآخر : أحسدنا امرأته طالق ثلاثا ، فقال الآخر : نعم. ، قال الشعبي : حنثتما وخسرتما وبانت منكما امرأتاكما جميعا ؛ وحكي له قول الحارث : أدينهما وآمرهما بتقوى الله عز وجل ، وأقول : أنتم أعلم بما حلفتما عليه. فقال أحمد [بن حنبل] : هذا شيء لا يدرك ألقاهما في التهلكة ، فإنكاره لقول الحارث يدل على موافقته لقول الشعبي بوقوع الطلاق فيهما. هذا هو الظاهر، ذكره الشيخ تقي الدين وقال : هو بناء على أنه حلف على ما لم يعلم صحته ، أو ما لم تدرك صحته فيحنث كقول مالك، ويدل عليه تعليل أحمد وقوع الطلاق على من قال أنت طالق إن شاء الله ، بأن مشيئة الله لا تدرك، وهذا القول فيه بعد ، لأن إيقاع طلاقهما يفضي إلى أن يباح للأزواج من هي في زوجية الغير باطنا ، وفي إجبارهما على تجديد الطلاق إجبار للإنسان على قطع **ملكه**

بغير حق وهو ضرر. بخلاف إيجاب الطهارة عليهما فإنه لا ضرر فيه ، ولنا وجه آخر بوجوب اعتزال كل منهما زوجته حتى يتيقن الأمــر. " انتهى عرض ابن رجب وشرحه للقاعدة الرابعة عشرة. وفي هذا الموضع يحق للقارئ أن يسأل : ماهي علاقة التملك والملكية هنا ؟ يبدو أن بعض من ينسب إليهم **"الفقه"** يعتبرون أن الزواج تملك ، وعقد الزواج عقد بيع وتجارة وملكية **!** يا للعار**!** وما معنى((**وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ...**)) ، ((**... ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف...**))

ولنا ملاحظات أخرى:

لقد عرض ابن رجب القاعدة الرابعة عشرة ، ثم أتبعها بالأمثلة التطبيقية الثلاثة، ثم استعرض الأراء والأحكام والتعليقات التي صدرت عن كبار فقهاء المذهب الحنبلي في شأن الموضوع، وهم ، كما ورد في النص:

ما قاله : 1- القاضي ، 2- أبو الخطاب، 3- وغيرهما، أي فقهاء حنابلة آخرون بارزون غير القاضي وأبو الخطاب، لم يسمهم ، 4- الشيرازي ، 5- وابن عقيل ، 6- والقاضي مرة ثانية ، 7- وبعض الأصحاب ، أي بعض فقهاء المذهب الآخرين ولم يسمهم ، 8- وقد أومأ إليه أحمد [ابن حنبل] في رواية صالح ، 9- الشيخ تقي الدين ، 10- مالك.

في ضوء شرح ابن رجب نجد أن المرجعية التي اعتمد عليها وأبرزها هي مرجعية علماء المذهب ، واعتبرها كافية ، ولم يجد حاجة للرجوع إلى أية قرأنية أو حديث نبوي. وأنا لا أظن أن ابن رجب اهمل مرجعية الكتاب والسنة عن وعي وقصد ، ولكنه ـ فيما أرجح ـ شعر بالاكتفاء بالمراجع المذهبية التي ذكرها وعدم الحاجة إلى استدعاء شواهد من المرجعين الأساسيين، الكتاب والسنة. ولقد شاعت هذه الطريقة بين منتسبي المذاهب وأتباعها، وصارت كتب علماء المذاهب هي الممثلة للشريعة في أغلب الأحوال، ليس عند الجهلة والعوام وغير المتخصصين فحسب ، بل عند "العلماء" بشكل عام.

وضمن عرضه للقاعدة رقم 164 عاد ابن رجب للحديث عن مشكلة الرجلين اللذين رأيا الطائر وحلفا بالطلاق[108] ... الخ ... ومن المشكلات الفقهية التي استعرضها ابن رجب ، رحمه الله تعالى، قال :

" إذا تنازع الإمامة العظمى [أي منصب الخلافة] اثنان ، وتكافآ في صفات الترجيح قدم أحدهما بالقرعة ، قال القاضي : هذا قياس المذهب[109].

إن هذا التقعيد الساذج - بشأن الإمامة العظمى - ربما يجعل بعض من يقرأه يظن أن من صاغه لم يعرف شيئا من أحداث وأزمات التاريخ الإسلامي ! هل توقف النزاع والتنافس المخضب بالدماء على الخلافة ، أي الإمامة العظمى، في العاصمة، وعلى ما دونه من المناصب ، بين حكام الأقاليم والنواحي ، طوال القرون الماضية ، أو حتى في القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين من التقويم الميلادي، وفي هذه المرحلة الأخيرة تغير اسم المنصب فصار "رئيس الجمهورية/ رئيس الدولة ، الخ . هل فكر أي واحد من المتصارعين في الاحتكام إلى المشايخ أو "العلماء" لإجراء القرعــة بينهم ، وهل كان للمشايخ، الذين ينعتون بـ "العلماء" ، ويتوهم بعضهم أنهم أولو الأمر، هل كان لهم وزن أو دور في تقليل كمية الدماء التي أهريقت في سبيل الفوز بالسلطة أكثر من مجرد السكوت المطبق **"فرارا من الفتنة"** ، كما كانوا يزعمون ، أو جبنا ، أو لانشغال كثيرين منهم بالإغراق في النفاق لمن تولوا السلطة بغرض الانتفاع الشخصي، من خلال مخاضة في الدماء وليس عن طريق القرعة ، بجانب أنهم كانوا يساهمون في تشويه سمعة من يرفضون الخضوع للطغاة ، ويحرضون الطغاة على قتلهم باعتبارهم من الخوارج ؟ وبذلك رفعوا من قيمة الخوارج . لقد استخدمت القرعة قبل ذلك في القضايا والتعاملات التجارية والمالية ، أما الحديث عن استعالها بين المتصارعين على المنصب الأعلى فلا يمكن طرحه إلا في إطار السخرية والإضحاك .

ومثال آخر مما دونه علماء الشافعية لإعلاء شأن مذهبهم :

نسب إلى الشيخ عبد الله بن محمد المؤيدى الشافعي أنه رأى في المنام ، في منتصف محرم سنة 468 هـ ، الشيخ أبا إسحاق الشيرازى (ت 476 هـ) ، وهو كبير الفقهاء الشافعية في عصره ، رآه يطير في السماء الثالثة أو الرابعة ومعه جماعة من أصحابه ، وأن أحد الملائكة اعترضهم وأقرأ الشيخ ابا اسحق السلام من الله ، كما نقل له سؤالا من الله : "ماذا تدرس لأصحـابك؟ فقال الشيخ :

---

[108] ابن رجب الحنبلي ، ***القواعد في الفقه*** ، ص 348.

[109] ***المصدر نفسه*** ، 354.

ادرس ما نقل عن صاحب الشرع . فقال له الملك : فاقرأ علي شيئا من ذلك لأسمعه . فقرأ عليه الشيخ مسألة لا أذكرها ، فاستمع له وانصرف . وأخذ الشيخ يطير وأصحابه معه ، فرجع الملك بعد ساعة ، وقال للشيخ : إن الله تعالى يقول : الحق ما أنت عليه وأصحابك ، فادخل الجنة معهم ".[110]

ومن الجائز أن يكون الشيخ المؤيدى قد حلم ، ورأى في المنام ما وصفه ، بيد أننا لا نقصد تصديق أو تكذيب حدوث الرؤيا ، بل الذي نقصده هو بيان ما تحمله القصة من دلالات عقلية خرافية ، ذلك أن الشيخ المؤيدي وجماعته صدقوا هذه القصة المنامية كأنها حقيقة واقعية ، ونشروها على أساس أنها تدعم مذهبهم ، مادام الله سبحانه وتعالى قد قال للشيخ الشيرازى أن الحق ما هو عليه ، أي مذهب الشافعي. وفوق ذلك تلزم الإشارة إلى المعنى الضمني للسؤال الذي وجهه ذلك "الأحد الملائكة" للشيخ الشيرازي ، ثم ذهابه وعودته بعد ساعة يحمل تحبيذا وبشرى بالجنة.

تعصب منتسبي الفرق وأثره السلبي في الفكر الإسلامي:

الأشـــعريـــة :

وأنقل هنا نصا كتبه أبو الحسن الأشعري يصف مسرح الأحداث عندما بدأ هو نفسه يغوص فيه بكل طاقته منذ أواخر القرن الثالث الهجري . قال علي، أبو الحسن الأشعري المولود سنة 260 هـ :

" اختلف الناس بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم في أشياء كثيرة ضلل فيها بعضهم بعضا وبرئ بعضهم من بعض ، فصاروا فرقا متباينين وأحزابا مشتتين، إلا أن [اسم] الإسلام يجمعهم ... وأول ما حدث الاختلاف ... [كان بشأن منصب الخلافة، ثم تمدد وتشعب على نطاق واسع]، وانقسم... المسلمون عشرة أصناف: الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية والضرارية والحسينية والبكرية وأصحاب الحديث والكلابية أصحاب عبدالله بن كلاب [بضم الكاف وتشديد اللام] القطان [111]." ، وقارن مع ما ورد في كتابه الآخر الموسوم بعنوان : ***الإبانة عن أصول الديانة***، الذي ظهر في أكثر من طبعة ، دار النفائس في بيروت ، 1994م.

ورواية عن أبي حامد الغزالي :

---

110 السبكي ، ، ***طبقات الشافعية***، مجلد 4 ، ص 226 - 227 .

111 الأشعري ، ***مقالات الإسلاميين*** ، ص 9 و 12.، وكتابه الآخر ، ***الإبانة عن أصول الديانة*** (بيروت: دار النفائس ، 1994) ، ص

وإذا كان الأشعري قال إن المسلمين انقسموا عشرة أصناف فإن الغزالي، محمد بن محمد الغزالي قال إنهم انقسموا أكثر من عشرين فرقة:

"... اختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ... كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله سبحانه وصفاته ؛ وقال الفقهاء : ... هو علم الفقه ، إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام ... وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة ... وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ... وقال بعضهم هو علم الباطن [112]... "

الفصل السادس

مخلفات التراث الجاهلي وأثرها في الفكر الإسلامي:

وأخيرا بقي أن نستعرض شيئا مما تخلف من التراث الجاهلي وخالط سلوك كثيرين من المسلمين عبر القرون ووصل شئ منه إلى العصر الحديث. لقد جاء الإسلام نقيضا لمعظم المعتقدات وموجهات السلوك التي اولعت بها المجتمعات الجاهلية في جزيرة

---

[112] ابو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ***إحياء علوم الدين*** ـ ص 14.

العرب ، وقد تلقى الصحابة الموجة الأولى من التوجيهات القرآنية والنبوية ، فتبدلت شخصيات أكثرهم إلى الأفضل في كل نواحي حياتهم العملية وتطلعاتهم الروحية ومساراتهم السلوكية؛ ومع ذلك لم تنمح كل أصول وآثار التقاليد الجاهلية تماما في سلوك بعض المسلمين أو كثيرين منهم، بل وجرى تداولها في مناقشات بعض مشاهير العلماء. ففي مجتمعات الجزيرة العربية قبل الإسلام كان كثيرون يعيشون ويمارسون التعالي والفساد في الأرض ، وكان ذلك من أبرز مظاهر السلوك القبلي ، ولعل من أقبح ما يمثل ذلك ما ورد في أبيات من الشعر الجاهلي نقتبس بعضها من معلقة الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم :

وكأس قد شـــربت ببـعـلبك وأخـــرى في دمشـــق وقاصرينا[113]

"أبا هـند فلا تعـجـل علـينـا وأنـظـرنا نخـبرك اليقـيـنـا

بأنـا نـورد الـرايـات بيـضا ونصدرهن حمـرا قـد روينا[114]

ونشرب إن وردنا الـماء صفوا ويشـرب غيرنا كـدرا وطينـا[115]

ملأنـا الـبر حتى ضاق عـنـا ومـاء البحر نـمـلـؤه سـفـينـا

وأيـام لـنـا غـــر طـــوال عصينا الـمـلـك فيها أن ندينـا

إذا بـلـغ الـفـطام لـنـا صبي تـخـر له الجـبـأبـر سـاجـديـنـا[116]

ونقرأ في معلقة الشاعر زهير بن أبي سلمى حكمة من عصر الجاهلية:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم **ومن لا يظلم الناس يظلم[117]**

---

113 هنا في هذا البيت من قصيدته نجد الشاعر التغلبي يتباهى بالسفر إلى الشام والاما كن المشهورة للسياحة والفسح وتشراب الخمور الراقية المشهورة في زمانه، كما يتباها بعض من أمثاله في زماننا بسفرهم إلى باريس.

114 راياتهم بيضاء وهم ذاهبون إلى الحرب تصير حمراء من دماء أعدائهم أثناء المعركة مع القبائل المنافسة.

115 كان الماء شحيحا جدا في صحارى جزيرة العرب ، يتجمع في بعض العيون، ويستخرج منها ، حيث يربط الدلو بحبل ويدلى في بئر العين ليصل الماء فيمتلئ ثم يسحب إلى أعلا . وكان الأقوياء من أبناء القبائل يمنعون الضعفاء من الوصول إلى العين إلا بعد أن يأخذ القوي حاجته. ونتيجة لذلك يحصل القوي على الماء رائقا، فيأتي الضعيف فلا يجد إلا بقايا الماء المعكر.

116 أنـظـر ***شرح المعلقات السبع*** ، الحسين بن أحمد الزوزني (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، 1952) ص 139 - 161، معلقـة عمرو بن كلثوم.

117 زهير بن أبي سلمى ، ***ديوان زهير بن أبي سلمى*** ، بعناية الدكتور عمر فاروق الطباع (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د. ت.) ، ص 77, وهنا يبدو التأكيد على مبررات المبادأة بالعدوان بدافع استباقي.

وعندما تشيع مثل هذه المشاعر والمفاهيم ، وما يتبعها من سلوك ، في أي مجتمع فإنها تقطع جميع أواصر الترابط والمحبة والتعاون بين مكوناته من القبائل والجماعات والأسر والأفراد. وقد حارب الإسلام كل هذه التوجهات ، كما يتبين من قول الله تعالى :(**(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء أن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسـوله وجهاد في سـبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين [118].))**

((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين. [119]))

ورغم هذا التوجيه الإلاهي ظلت هذه المفاهيم عند كثيرين ، وما زالت تحركهم فيعيشون ويتصرفون من خلالها ، بل ويتباهون بها، حتى في أجواء الأفراح وبين الناس البسطاء ، وفي اختيار بعض الناس لأسماء أبنائهم عند ولادتهم في القرن العشرين الميلادي، وما زالت لها بقايا في القرن الحالي، وفيما يلي بعض الأمثلة :

في الأفراح الشعبية كان يمكن أن تسمع امرأة تغني لابنها باللهجة العامية يوم زفافه:

او ويها يا عريسنا يا محمود[120] يا غالي

او ويها سيفك طويل ولا سيف ابو زيد الهلالي

او ويها وسألت رب السما يوخذ عدوينك هللي فبالي

وتتبع ذلك بالزغروته ، أو الزلغوطة.

ونضيف هنا بعض أمثلة من هذا التفاخر ورد في كتاب مطبوع [121]:

- أو ويها نحنا (عيلة كذا) مين يقدر يخاصمنا ؟ أو ويها يا لابسين الخواتم في خناصرنا ،

---

[118] سـورة التوبة / 23 - 24.

[119] سـورة القصص / 83 . أنظر ***تفسير ابن كثير*** لهذه الآية ، وسورة القصص في الجزء العشرين من القرآن الكريم.

[120] ويتغير اسم العريس ، ويعدل وزن النغم بالتطويل والتقصير، في حالات أخرى.

[121] مروان أبو نصر الدين ، ***الشعر اللبناني والغناء الفولكلوري*** (بيروت ، لم يذكر الناشر ، 2012م.) ، ص 74 - 76.

- أو ويها وسألت رب السما والأرض ينصرنا ؛

أو ويها نصرو قوي ما يكسر بخاطرنا.

- أو ويها نحن السمر نحنا الخوخ بعناقو ،

- أو ويها انجاصنا السكري يا سعد من داقو

- أو ويها قولو لصاحب البيضا يبرد خلاقو

أوويها اللبن حمض بالصحون ما حدا داقو.[122]

وأمثلة أخرى من التفاخر مما يغنى في حفل جلوة العروس ليلة الزفاف :

- هي بنت مين يا عرب ! - هي بنت كسار الشنب[123]؛ - هي بيها سيفو صقيل ؛ وخيا[124] ما بهاب الطلب.

- بتتهني يا بنت العم ، يا زهر الورد الملتم - ويديم خيك (فلان) ، فارس ما بيهاب الدم.[125]

وما دمنا في مضمار الحديث عن أجواء الأفراح والزواج وما يجري فيه من التعالي وطلب **"العلو والفساد في الأرض"** فإننا لا نستطيع أن نغفل مشكلة قديمة ما زالت لها بقايا تمارس على المستوى الشعبي؛ وقد تبدو الآن بسيطة ومحدودة ، بيد أنها شغلت مساحة واسعة في كتب الفقه وشغل بها كبار الفقهاء منذ القرون الأولى ، وهي تندرج في التعالي والتباهي وطلب العلو في الأرض ، ومثالها ما كان يجري في اتفاقات الزواج بين عشيرتين (عائلتين) لشاب وشابة منهما ، فيكون من بين بنود الاتفاق ما يتعلق بمقدار المهر، فيكون هناك المهر الحقيقي ألف (مثلا) ويكون سريا وغير معلن، بينما المهر المعلن مقداره ألفان ، والهدف الواضح لهذا الكذب والخداع هو التباهي. وقد عرفت هذه الممارسة ووردت في كتب الفقه تحت عنوان : **"مهر السر ومهر العلانية"** من غير أن يستنكرها الفقهاء بل تركوا لها مكانا رحبا وشغلوا بها كثيرا من وقتهم وصفحات كتبهم ؛ وفيما يلي بعض مقتبسات من جدلهم :

---

122 ذكر اللبن هنا لأن لونه أبيض ، تشبه به النساء البيضاوات، عكس الأسمر والسمراوات ، والقصد إهانة البيضاوات.

123 والشنب - الشارب - كان يعتبر رمزا للقوة والرجولة والاعتزاز بها، والذي يكسر الشنب يعتبر الأقوى.

124 خيـا ، عامية تعني أخاها ، وهي تحريف لكلمة أخيها.

125 المصدر نفسه ، ص 74 - 76.

"مهر السـر ومهر العلانيــة" في عقود الزواج :

" فما تقولون فيما لو تجملوا وجعلوه [المهر] حالا، وقد اتفقوا في الباطن على تأخيره ، كصدقات النساء في هذه الأزمنة في الغالب ، هل للمرأة أن تطالب به قبل الفرقة أو الموت ؟ قيل هذا ينبني على أصل ، وهو : إذا اتفقا في السر على مهر وسموا في العلانية أكثر منه ، هل يؤخذ بالسر أو بالعلانية ؟ فهذه المسألة مما اضطربت فيه أقوال المتأخرين لعدم إحاطتهم بمقاصد الأئمة ، ولا بد من كشف غطائها، ولها في الأصل صورتان :

إحداهما : أن يعقدوه في العلانية بألفين مثلا ، وقد اتفقوا قبل ذلك أن المهر ألف وأن الزيادة **سـمعة [أي للتباهي والتعالي]** من غير أن يعقدوه في العلانية بالأقل ، فالذي عليه القاضي ومن بعده من أصحاب أحمد [ابن حنبل] أن المهر هو المسمى في العقد ولا اعتبار بما اتفقوا عليه قبل ذلك ، وإن قامت به البينة أو تصادقوا عليه ، وسواء كان مهر العلانية من جنس مهر السر أو من جنس غيره أو أقل منه أو أكثر ، قالوا : وهو ظاهر كلام أحمد في مواضع ، قال في رواية ابن بدينا في الرجل يصدق صداقا في السر وفي العلانية شيئا آخر : يؤخذ بالعلانية ؛ وقال في رواية ابن الحارث : إذا تزوجها في العلانية على شئ وأسر غير ذلك أخذنا بالعلانية ، وإن كان قد أشهد في السر بغير ذلك. وقال في رواية الأثرم في رجل أصدق صداقا سرا وصداقا علانية يؤخذ بالعلانية إذا كان قد أقر به ؛ قيل له : فقد أشهد شهودا في السر بغيره ؟ قال : وإن ، أليس قد أقر بهذا أيضا عند شهود ؟ يؤخذ بالعلانية [126]."

"وقال كثير من أهل العلم أو أكثرهم : إذا علم الشهود أن المهر الذي يعلنه سـمـعة وأن أصل المهر كذا وكذا ثم تزوج وأعلن الذي قال فالمهر هو السر ، والسمعة باطلة ، وهذا هو قول الزهري والحكم بن عتيبة ومالك والثوري والليث وأبي حنيفة وأصحابه وإسحاق ، وعن شريح والحسن كالقولين ، وذكر عن أبي حنيفة أنه يبطل المهر ويجب مهر المثل [كذا في الأصل] وهو خلاف ما حكاه عنه أصحابه وغيرهم ؛ وقد نقل عن أحمد ما يقتضي أن الاعتبار بالسر إذا ثبت أن العلانية تلجئة ، فقال: إذا كان رجل قد أظهر صداقا وأسر غير ذلك نظر في البينات والشهود ، وكان الظاهر أوكد ، إلا أن تقوم بينة تدفع العلانية. قال القاضي : وقد تأول أبو حفص العكبري هذا على أن بينة

---

[126] ابن قيم الجوزيــة، ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، ص659 - 660 .

السر عدول وبينة العلانية غير عدول ، فحكم بالعدول. قُال القاضي : وظاهر هذا أنه يحكم بمهر السر إذا لم تقم بينة عادلة بمهر العلانية.

وقال أبو حفص : إذ تكافأت البينات وقد شرطوا في السر أن الذي يظهر في العلانية الرياء والسمعة فينبغي لهم أن يفوا له بهذا الشرط ولا يطالبوه بالظاهر ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم "المؤمنون على شروطهم. [127]"

هذا كلام شيخ الإسلام [ابن تيمية] في مسألة مهر السر ومهر العلانية ... ولهذه المسألة عدة صور هذه إحداها . **الثانية** أن يتفقا في السر على أن ثمن المبيع ألف ويظهرا في العلانية أن ثمنه ألفان ، فقال القاضي في "التعليق القديم" والشريف أبو جعفر وغيرهما: الثمن على ما أظهراه ، على قياس المشهور عنه في المهر أن العبرة بما أظهراه وهو الأكثر ، وقال القاضي في التعليق الجديد وأبو الخطاب وأبو الحسين وغيرهم من أصحاب القاضي : الثمن ما أسراه ، والزيادة سمعة ورياء ، بخلاف المهر[128] ..." انتهى الاقتباس.

وهنا ينبغي أن أنبه إلى ملاحظتين :

أولا : ورود أسماء عدد من كبار الأئمة والفقهاء ضمن من تداولوا الحديث في هذه المشكلة واختلفت وتناقضت فتاواهم ، وهذا يبين أنها لم تكن في القرون المتأخرة فقط ، بل كانت في القرون الثلاثة الأولى : التي يسمونها **القرون المفضلة** ،

ثانيا : ظهور اختلاف في الأحكام والأقوال حتى بين فقهاء المذهب الواحد **!**

وهذا يذكرنا بمشكلة مشابهة مررنا بها في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، مشكلة الرجلين اللذين رأيا الطائر واختلفا فيما إذا كان غرابا أو غيره ، وحلفا بالطلاق وافتعلا لنفسيهما وزوجتيهما ، أو زوجاتهما وأولادهما مشكلة لمجرد العبث والثرثرة، وهي مشكلة شغلت أيضا عددا من مشاهير الفقهاء [129].

لقد اكتفيت بهذا القدر من النقل، وهو يصلح - في تقديري - لإعطاء القارئ فكرة عامة عن حجم الجدل الذي دار حول مشكلة **"مهر السر ومهر العلانية"** كما استعرضه الإمام ابن ألقيم. والحقيقة أن ابن القيم استعرض المشكلة من خلال سبعة "صور" كما

---

[127] المصدر نفسه ، ص 660 - 661.

[128] ***المصدر نفسه*** ، ص 662 .

[129] أنظر ص 95 - 99 فيما سبق من هذ الكتاب.

سماها، في خمس صفحات كبار (659 - 663) ولم يكن مناسبا أن أنقل عنه أكثر مما نقلت. ومما صدمني في هذه النصوص التي نقلتها أن العلماء الأجلاء قد خلطوا (فيما تداولوه) بين عقود الزواج وعقود التجارة في سياق واحد، وتحدثوا عن الزوجة وكأنها سلعة من الجمال والأغنام [130]، ولم يلتفتوا إلى مضمون قول الله تعالى : ((... **وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا.** [131]))

((وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا [132]**))**

وفي جانب آخر من حياة المجتمعات الإسلامية نلاحظ التوجه العدواني والمتعالي من خلال الأسماء الشخصية التي يختارها بعض الأباء لأولادهم ، وهي أسماء ترمز إلى القوة العدوانية والوحشية داخل مجتمعهم ، وهذه أمثلة منها :

ديب ، دياب ، نمر ، فهد ، شبل ، ليث ، سبع ، أسامة ، أسد حرب ؛ وحتى المرأة تأخذ مكانها في قائمة هذه الأسماء ، أو الألقاب الوحشية حيث نجد "كايداهم، يا كايداهم، وإسم ضبعة ، في بعض المجتمعات الريفية ، ربما لتحقيق المساواة مع الرجال الذين اشتق اسمهم من الكيد الذي يعني قهر الأعداء الذين يعيشون في الحي المجاور لتخويفهم والتعالي عليهم ؛ وغير ذلك. وهذه "الوحشية المخيفة والمدمرة" تنحصر أهدافها داخل الوطن، وداخل البلدة الصغيرة أو الحي. ومعنى ذلك أن هذه العبارات والأسماء والمسميات التي تحمل المظاهر والأشكال والرموز العدوانية المتعالية لا يقصد بها أعداء الوطن الذين يأتي عدوانهم من الخارج ، بل : الأعداء المقصودون موجودون داخل الوطن ، وربما كانوا من الحي المجاور ، أو من فرع آخر من فروع العشيرة نفسها ، أي العائلة الممتدة ، بل وفي بعض الحالات ربما كانوا إخوة أو أخوات من أم أخرى.

وهكذا ظلت هذه المثل الجاهلية تفتك بصلابة وبنية المجتمعات العربية والإسلامية عبر القرون حتى وصلت إلى القرن العشرين ، على الرغم من كل المبادئ التي حملها وأكدها القرآن والسنة ، وذلك بسبب تقصير أو عجز وضيق أفق القيادات الثقافية والفكرية خاصة. غير أن هذه الظاهرة أخذت تضعف بعد منتصف القرن

---

130 خاصة مع استعمال عبارة "ثمن المبيع" وتكرار كلمة "الثمن" في تصريحات بعض علماء المذهب التي اقتبسناها.

131 سـورة النساء / 21

132 سـورة الفرقان / 54.

العشرين بتأثير انتشار التعليم الحديث المنفلت من قبضة المشايخ التي تجمدت وفارقتها الحياة من زمن طويل..



الفصل السادس

المجموعات الحديثية المكتوبة: ظهورها وأثرها

لـقـد كان من أهم ما قام به جيل الصحابة من عمل في خدمة المجتمع الإسلامي والدعوة الإسلامية الناشئة حفظ السنة النبوية ونقلها إلى الأجيال التالية والمجموعات البشرية البعيدة التي نأت ديارها عن المدينة. وكانت الأحاديث والسنن تنقل مشافهة من خلال الاتصال الشخصي المباشر بين الأفراد من الصحابة والتابعين. وكان طبيعيا أن تختلف قدرة الأفراد من الصحابة على حفظ نصوص الأحاديث بين من يحفظون النص بمفرداته الدقيقة وبين من يحفظون المعنى العام ويعبرون عنه بكلمات وجمل من تأليفهم ، ومدى حرص وعناية كل منهم على الدقة ، حسب اختلاف طبائع وقدرات الأفراد في حياتهم العادية . ويلـزمنا أن نستحضر في وعينا ونضيف هنا أن السنة لم تكن كلها توجيهات نبوية نصية لفظية ، بل كان قسم كبير منها وصفا لموقف وتصرف لأحد الصحابة أو لمجموعة منهم وإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لتصرفهم. والخبر عن موقف كهذا كان يمكن أن يصدر عن صحابي واحد ، أو أن يكرره أكثر من صحابي من الذين شهدوا ذلك الموقف ، وبأقدار متعددة من الاختلاف من الإيجاز والإطناب ، والقدرة على النقل الدقيق أو عدمها، وذلك من غير أن نذكر التشويه واللغوالمتعمد من جانب المعادين الذين عاشوا في المدينة ، من المنافقين ومن ضعفاء الإيمان، الذين اعتبروا من الصحابة.

ومنذ القرن الثاني للهجرة بدأت تظهر الكتب التي جمعت مقدارا من الأحاديث النبوية، ومن أولها كتاب ***الموطأ*** للإمام مالك بن أنس، ثم كتاب الجامع الصحيح للبخاري ، والجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج وغيرها من كتب ومجاميع السنة المعروفة. وفي مرحلة لاحقة وغير بعيدة ظهرت كتب من نوع آخر، **"كتب الرجال"** التي دونت فيها أسماء الصحابة والتابعين،

وربما كان أولها كتاب ***الطبقات الكبرى***، لمحمد بن سعد ، المتوفى سنة 230هـ ، والكتاب يشغل تسع مجلدات كبار. وفي فترة أخرى أضيفت أسماء رواة الحديث موضوعا منفردا، مع تسمية الموصوفين بالصدق والأمانة، وأولئك الموصوفين بالضعف وسوء النقل وقلة الأمانة. ومن أشهر هذه الكتب ***أسد الغابة*** ، لابن الأثير، ***ولسان الميزان***، **وسير أعلام النبلاء** ، للذهبي، وغيرها ؛ هذا فضلا عن تراجم علماء ، وغيرها كثير.

وقد استغل الوضاعون المزورون كل ذلك ووظفوه لخدمة أغراضهم. ثم إن التعرف على الورق وظهور صناعته في بلاد الإسلام، وانتشار المعرفة بالقراءة والكتابة بعد حالة الأمية التي تميز بها عرب الحجاز ووسط جزيرة العرب ، خاصة في بداية عصر الرسالة، كل ذلك سهل على المزورين إعادة نسخ الكتب الصحيحة وتحريف بعض محتوياتها بل وإدخال نصوص لم تكن موجودة فيها، كما سهل عليهم تركيب سلسلة سند مزورة، حيث ينتقي الواحد من المزورين أسماء الرواة بما يتفق مع شروط المحدثين، ويضع في أعلى القائمة اسم أحد الصحابة المشهورين برواية الحديث ، مثل أبي هريرة أو ابن عباس ، أو عبدالله بن عمر ، وبعد ذلك يصبح الحديث متداولا على نطاق واسع [133].

وفي مواجهة هذا التطور نشط كثيرون من الغيورين على السنة بجمع نصوصها وتدوينها مسجلة بسندها. وربما كان الإمام مالك بن أنس أول من قام - أو من أوائل من قام - بهذا الإنجاز، ثم تابعه آخرون وتكرر المثال وانتشر. ولم تبدأ هذه العملية إلا في القرن الثاني بعد الهجرة ، في وقت لا يمكن تحديده بشكل يقيني. لقد ولد الإمام مالك في المدينة سنة 95 هجرية، وعاش أربعا وثمانين سنة ، وتوفي سنة 179 هـ ، ويمكن أن نتصور أنه بدأ بتأليف الموطأ بعد أن تخطى الثلاثين من عمره ، وما قلته هنا هو مجرد تقديرات تقريبية ، ربما كانت هي الحقيقة ، أو قريبة منها، وربما كان فيه

---

[133] أنظر ص 49 وما بعدها فيما يلي من هذا الكتاب ، وقارن مع ما جرى من العبث بتفسير القرآن ، ص 36- 49.

بعض الخطأ ، أو كانت خاطئة ، والعلم اليقيني بمثل هذه الأمور التي لا نملك عنها أدلة كافية إنما هـو عند الله تعالى وحده.

إذن ، في الفترة التي سبقت جمع الحديث وتدوينه ظلت نصوص الحديث النبوي وغيرها مما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائمة دوارة ومتداولة بين أفراد كثيرين ، منهم المؤمنون الصادقون ومنهم غيرهم ، مدة تقارب قرنا كاملا وبضعة عقود من القرن التالي ، ثم بدأت تظهر النتائج الإيجابية لمجهودات بعض جامعي الحديث النبوي، غير أن ثغرة قصور كبيرة في تلك الجهود المخلصة أضعفت ثمارها ، لأن أصحابها حصروها - إلى مدى كبير- في تدقيق أسماء الرواة ومستوى قدراتهم وأمانتهم. والوصول في ذلك إلى معرفة يقينية تبدو احتمالا صعب التحقيق ، كما انضاف إلى ذلك ندرة الاهتمام ، أو انعدام التدقيق في متن الحديث ونصه ومحتواه المعلوماتي وما يحمله من خبر ، في أغلب الأحوال ؛ ولذا فقد تسرب كم كبير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، حتى ضمن المجموعات الحديثية التي اشتهرت، أو سميت بأنها صحيحة، وبذلك أخذت المشكلة وخطرها دورا سلبيا جديدا.

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري أطل الإمام عبدالرحمن بن الجوزي - المتوفى سنة 597هـ - على الباحثين بكتابه ***الموضوعات*** ، الذي دون فيه الأحاديث الموضوعة ، بمعنى : المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم زورا، وبذلك شق مسارا جديدا للدفاع عن السنة. وقد طبع الكتاب طبعة حديثة في أربعة مجلدات كبار. ومن أشهر المؤلفات المعاصرة التي سلكت طريق ابن الجوزي : كتاب ***سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة*** ، للشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله ، ويقع في ثلاثة عشر مجلدا حسب قائمة دار الكتاب العربي؛ ثم ***موسوعة الأحاديث الضعيفة والموضوعة*** ، ، إعداد حسن الحلبي ، وتقع في خمسة عشر مجلدا حسب قائمة دار الكتاب العربي أيضا. وفي الشهور الأخيرة ابتعت نسختين من طبعتين جديدتين

مختلفتين[134] لكتاب ***الموطأ*** للإمام مالك بن أنس ، وأهم ما يلفت النظر في إحدى الطبعتين أنها صدرت في مجلدين، واحد رئيسي بعنوان : ***صحيح الموطأ***، ويقع في 881 صفحة، بينما المجلد الثاني يشغل 204 صفحات فقط ، ويحمل عنوان : ***ضعيف الموطأ*** ، وهذه الطبعة من إصدار دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان سنة 1433هـ/2012م ، إعداد "فضيلة الشيخ الدكتور المحدث" أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي" ، وهو من تلاميذ وأتباع الشيخ ناصر الدين الألباني. وهذا الذي كتبته ليس حصرا لمجهودات المحققين بل أمثلة فقط. ومما أثار دهشتي أن عدد الأحاديث التي صنفها الدكتور الهلالي في الضعيف من كتاب الموطأ بلغ **ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين** حديثا ضعيفا؛ والموطأ في مجموعه كتاب صغيرالحجم مقارنا بالمجموعات الأخرى ، حيث طبع في مجلد واحد مرات كثيرة.

حرب " للدفاع عن السنة من خطر القرآن ! "

ولكن بالرغم من كل هذه المعلومات الموثقة عن حجم التزوير الذي طال السنة، بجانب ما طال تفسير القرآن من عبث ، فإن ذلك لم يمنع كثيرين من المشتغلين بالحديث والمنتسبين إليهم من مقاومة أي توجه أو جهد لتصحيح آثار هذا التزوير على ضوء نصوص القرآن الكريم ، حتى لقد بدا بعض جدالهم وكأنهم **يخوضون معركة للدفاع عن السنن(أي كل مجموعات الحديث التي ركموها)، في مواجهة مع النص القرآني** ، وفيما يلي بعض الأمثلة من نص لمحمد بن القيم :

" ثم ذكر أحمد الاحتجاج **على إبطال قول من عارض السنن بظاهر القرآن** وردها بذلك ، وهذا فعل الذين يستمسكون بالمتشابه في رد المحكم ، فإن لم يجدوا لفظا متشابها غير المحكم يردونه به استخرجوا من المحكم وصفا متشابها وردوه به ، فلهم طريقان في رد السنن : أحدهما رده بالمتشابه

[134] والاختلاف المقصود هنا هو ما وقع من خلال خيارات وتعليقات كل من المحققين.

من القرآن أو من السنن [135]، الثاني جعلهم المحكم متشابها ليعطلوا دلالته.
وأما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالشافعي والإمام أحمد ... فعكس هذه الطريقة ، وهي أنهم يردون المتشابه إلى المحكم ، ويأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه ويبينه لهم فتتفق دلالته مع دلالة المحكم وتوافق النصوص بعضها بعضا، فإنها كلها من عند الله ، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه [136]... ولنذكر لهذا الأصل أمثلة:"
" المثال الأول : رد الجهمية النصوص المحكمة غاية الإحكام المبينة بأقصى غاية البيان أن الله موصوف بصفات الكمال من العلم والقوة والإرادة والحياة والكلام والسمع والبصر والوجه واليدين والغضب والرضا والفرح والضحك ... والعلم بمجئ الرسول بذلك وإخباره به عن ربه ... فرد الجهمية ذلك بالمتشابه من قوله :((ليس كمثله شئ))[الشورى / 11]، ومن قوله : ((هل تعلم له سميا)) [مريم / 65] ، ومن قوله : ((قل هو الله أحد)) ثم استخرجوا من هذه النصوص المحكمة المبينة احتمالات وتحريفات جعلوها به من قسم المتشابه."

"المثال الثاني: ردهم المحكم المعلوم بالضرورة أن الرسل جاءوا به من إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه بمتشابه قول الله تعالى : ((وهومعكم أينما كنتم)) [الحديد / 4] وقوله :((ونحن أقرب إليه من حبل الوريد))[ق / 16] ، ((ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ..)) [المجادلة / 7] ثم تحيلوا وتمحلوا حتى ردوا نص العلوية والفوقية بمتشابه.

المثال الثالث : رد القدرية النصوص الصريحة المحكمة في قدرة الله على خلقه ، وأنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، بالمتشابه من قوله : ((ولا يظلم ربك أحدا)) الكهف/49 ، ((ومار بك بظلام للعبيد)) فصلت /46 ، ((إنما

---

[135] وهنا نجد أنهم لم يكتفوا بوصف القرآن بالمتشابه ، بل وصفوا بعض الحديث النبوي بأنه متشابه ، من غير دليل ، وبصورة اعتباطية.

[136] محمد بن القيم ، ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، ص 494 - 495.

تجزون ما كنتم تعملون)) الطور /16 ، ثم استخرجوا لتلك النصوص المحكمة وجوها اخر أخرجوها به من قسم المحكم وأدخلوها به في المتشابه.

المثال الرابع : رد الجبرية النصوص المحكمة في إثبات كون العبد قادرا مختارا فاعلا بمشيئته بمتشابه قوله : ((وما تشاءون إلا أن يشاء الله)) الإنسان30 ، ... [137])).

تعليقي:

ابن القيم هنا يعلن أنه يدخل معركة ضد فريقين من الخصوم يحددهما بأوصاف اختارها لهما:

أولا: متبعوا ظاهر القرآن ضد باطنه ،

ثانيا : متبعوا المتشابه ضد المحكم.

وهذان الخصمان لا وجود لهما في واقع الحياة بل انحصر وجودهما في خيال محمد ابن القيم ومن وافقه واختار نهجه القائم على الوهم؛ ففكرة الباطن والظاهر بالنسبة للنص القرآني لا تقوم على أي دليل ، والله سبحانه وتعالى يقول : إنه أنزل القرآن بلسان عربي مبين : ((وهذا لسان عربي مبين)) النحل/103 ، والشعراء /195 ، ويوسف / 1و2 ، بالإضافة إلى آيات أخرى ، وكلها تعني الوضوح في بيان المقصود باللغة العربية، وانظر تفسير الطبري وتفسير ابن كثير. وفكرة الباطن اعتنقها واحتفى بها فريقان: الشيعة والمتصوفة ، وهنا انضاف إليهما السلفية، أو بعضهم. لذا فإن الاحتجاج بادعاء الظاهر والباطن احتجاج لا يؤيده النص القرآني، ولا قيمة له في الحوار أو في الجدال أو المناظرة. وابن القيم ليس من الباطنية ، سواء الشيعة أو المتصوفة ، فيما أعلم، ولكنه بهذا الجدل السطحي انحاز إليهم ودس نفسه في زمرتهم عن غير قصد ، خطأ ! غفر الله له ولنا، والله أعلم.

---

[137] ابن القيم ـ المصدر نفسه ، ص 30.

أما في شأن الأمثلة الأربعة التي استعرضها ابن القيم ونسبها إلى الجهمية والقدرية والجبرية ، وهذه "الطوائف" كانت في العصور الماضية، وقد انتهى وجودها تحت وطأة ما تعرضت له من حرب وخصومة ، ولم يعد لها وجود في عصرنا الحديث. أما معلوماتنا عن فكرها وأقوالها المتاحة للباحثين الآن فأكثرها مما يقوله خصومها ومعارضوها، وأقوال الخصوم وحدها لا تعد دليلا ولا مستندا لأي باحث يتمسك بالأمانة العلمية ويدرك مسئوليته أمام الله وأمام الجمهور والأفراد الذين يخاطبهم. لذا فإن تعليقنا لا بد أن يستند إلى ما نعلمه من القرآن والسنة الصحيحة أولا، ثم من تحليلنا لخطاب واتهامات الخصوم التي بين أيدينا. ثم إن الحديث عن"الذين يستمسكون بالمتشابه في رد المحكم ... " الخ ، تهمة جدلية وصراخ فارغ لا يعني ولا يفيد شيئا، لأن المحكم والمتشابه غير محدد في آيات معينة ومتفق على وصفها بإحدى الصفتين، بل هناك عشرات الآراء والادعاءات المتضاربة، إن لم يكن مئات الآراء. وأوفى الكتب في موضوع علوم القرآن هو كتاب ***الإتقان في علوم القرآن ،*** للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي[138]، وقد تناول موضوع المحكم والمتشابه بين ص495 إلى ص 503) من كتابه ؛ ويمكن الاطلاع على الموضوع في تفسير الطبري وتفسير ابن كثيروغيرهما من التفاسير، مع الحذر والتدقيق عند النظر في تفاسير الشيعة والصوفية والسلفية.

فإذا انتقلنا إلى مناقشة المثال الأول من أمثلة ابن القيم نجده يحدد آيات يصفها بالمتشابهة :((ليس كمثله شئ))و((هل تعلم له سميا)) و(قل هو الله أحد)). ليس لمحمد بن القيم أي مستند في وصف هذه الآيات بالمتشابهة ، وفي قوله جرأة مسرفة دفعه إليها طيش مشاعر الصراع. ولذا نجده بعد خمس كلمات فقط يعود ليصف النصوص نفسها بأنها محكمة ، وهذا تخبط تحدثه العواطف المتهيجة. الله سبحانه وتعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : **((هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر**

[138] جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ***الإتقان في علوم القرآن*** (صيدا - بيروت: المكتبة العصرية ،2012)، ص495 - 503.

متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب.)) [آل عمرن/7] كما أنزل الله أية أخرى وصفت القرآن كله بأنه متشابه : **((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ...))** [الزمر / 23]
لذا نقول إن صفة التشابه والمتشابه ليست صفة مذمومة كما أراد أن يقنعنا محمد بن القيم ، بل نجد أنها وصفت في هذه الآية الثانية بـ **"أحسن الحديث"**، وشملت القرآن كله. ونقرأ فيما كتبه الكيا الهراسي "... جعل الله آيات الكتاب منقسمة إلى المحكم والمتشابه ، وسمى المحكمات أم الكتاب ، وذلك يقتضي رد المتشا بهات إليها ، فإن الأم لا يظهر لها معنى هنا ، سوى أنها الأصل لما سواها ، ويفهم منها معانى المتشابهات، وذلك يقتضي كون المتشابهات محتملا لمعاني مختلفة يتعرف مراد الله منها بردها إلى المحكمات ، وإن كان كثير منها يستدل [عليه بالأدلة العقلية] لمعرفة معناها "[139]

والمرجح لدي أن الموضوع المتعلق بالمتشابه يدور حول الكلمات التي تتشابه في لفظها وتختلف في المعنى ، عندما تعبرعن مدلولات ومعان مختلفة حسب سياق النص الذي ترد فيه. فعندما يراد أن يوصف شخص بأنه شجاع ، ويستخدم الواصف كلمة يراها أكثر بلاغة وقوة ، مثل: سبع ، أسد ، شبل ؛ وعندما يصف امرأة بالجمال ، فيستخدم كلمات مثل قمر ، شمس ، ورد ، زهر ، ندى ، ففي مثل هذه الحالات يكون الاختلاف في الألفاظ المستخدمة بينما الشخص الموصوف واحد/واحدة [140]. وقد كان مما أورده السيوطي أن

---

[139] عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، ***أحكام القرآن***، بيروت : دار الكتب العلمية ، 2001) الجزء الثاني،ص277.

[140] بشأن المحكم والمتشابه أنظر الإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، ***الإتقان في علوم القرآن*** ، جزء 3 ، ص 495 - 516.

المتجادلين في تعيين المحكم والمتشابه : "يسمي كل واحد منهم الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ، ويصف الآيات المخالفة له متشابهة... [141]"



[141] ***المصدر نفسه*** ، ص 516. ، كما أورد السيوطي مثل هذا القول نقلا عن الإمام الفخر الرازي ص 515 - 516.

الفصل السابع

التصـوف وأثره السلبي على الفكر الإسلامي

وهذا الصراع الذي استعرضنا بعض مظاهره لم ينحصر فيما دار بين من يسمون أهل الفقه ، والحديث، والتفسير فقط ، بل انفتح ميدان آخر ربما كان أكثر خطورة، ، فالذي جرى في ميدان التصوف وتكاثر الحركات والطرق الصوفية كان أكثر تدميرا، إذ شمل النشاط الصوفي عامة الناس الجهلة والأميين ؛ وسنكتفي بعرض بعض الشهادات، وندع للقارئ مجال البحث عن المزيد ، وسنبدأ ببعض ما كتبه العلامة عبدالرحمن بن خلدون ، المتوفى سنة 808هـ/1406م. قال ابن خلدون:

"إن المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف ، وفيما وراء الحس ، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة، وملئوا الصحف منه [أي من الكلام في وحدة الوجود،أي الخالق والمخلوق] ، مثل الهروي في كتاب *المقامات* ... وغيره ، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين، ثم ابن العفيف وابن الفارض، والنجم الإسرائيلي في قصائدهم." ويعرفنا ابن خلدون أن أسلافهم، أي الأجيال التي سبقتهم من المتصوفة "كانوا مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول [أي حلول الله في الإمام] وإلاهية الإئمة، مذهبا لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدم ، وظهر في كلام المتصوفة القول ب "القطب" ، ومعناه : رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان. وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم. فانظر كيف سرقت

طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به. ثم قالوا بترتيب الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء[142]. "

ولدينا شهادات أخرى لبعض كبار الصوفيين يجأرون بالشكوى من الانحرافات المفزعة سنورد طرفا منها.

لقد تعددت الطرق الصوفية وتعدد مشايخها بشكل لا حدود له عبر القرون : فالمريد يبدأ تلميذا لشيخ، ثم يستقل ويصبح شيخا بعد أن يأذن له شيخه؛ وقد يؤسس له طريقة تبقى فرعا ضمن الطريقة الأكبر التي عليها شيخه ، أو تنفصل وتغدو طريقة مستقلة ؛ ومع ذلك فقد كثر انتقال المريدين من مرحلة التلمذة إلى مرحلة المشيخة دون إذن الشيخ، حتى لقد اشتكى بعض كبار الصوفية ورموزها المشهورة من ذلك بمرارة، ومما صاحبه من انحرافات أخرى، منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

ومن أمثلة الانحرافات في الحراك الصوفي ما كتبه عبدالكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة 465هـ ، وهو من كبار مشاهير المتصوفة ، يحدثناعما آل إليه أمر التصوف في عصره فيقول :

"إن المحققين من هذه الطائفة [أي المتصوفة] انقرض أكثرهم ، ولم يبق في زماننا [زمان القشيري] إلا أثرهم ... لا ، بل اندرست الطريقة بالحقيقة ... وزال الورع واشتد الطمع ... وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ... واستخفوا بأداء العبادات ... وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان ، وأصحاب السلطان ... وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال [أي الاتصال المباشر بالله تعالى] ...

---

[142] عبدالرجمن بن خلدون ، *المقدمة*، ص 584-585 .

وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية[143]."

وبعد شهادتي القشيري وابن خلدون نستدعي شهادة أبي حامد الغزالي المتوفى سنة 505 هـ ، وشهادته تسير في اتجاه معاكس لشهادتيهما . والغزالي من أشهر الرموز الصوفية ، وقد توفي بعد وفاة القشيري بأربعين سنة. ويخبرنا الغزالي أنه ترك تدريس الفقه وعمل الفقهاء بعد أن اقتنع " أنه لامطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ... وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ... بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق، " ويضيف : "ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق... ثم تفكرت في نيتي في التدريس [أي تدريس الفقه والعلوم الشرعية] فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار... ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة إياك أن تطاوعها ... فلم أزل أتردد بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ..." ، وهكذا ترك الغزالي التدريس في المدرسة النظامية ، الأهم والأشهر في الدولة العباسية وبغداد عاصمة الخلافة[144]. وقد تظاهر الغزالي - عند تركه بغداد - بأنه ذاهب للحج ، غير أنه أتجه إلى الشام ، فأقام فيها سنتين، ومارس الخلوة في المسجد الأموي، ووصف لنا ذلك بقوله : "وكنت أعتكف عادة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي." ثم رحلت منها إلى بيت

143 عبدالكريم بن هوازن القشيري، ***الرسالة القشيرية*** ، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود وزميله، المجلد الأول، ص 20-21.

144 أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن محمد ، ***المنقذ من الضلال*** ، ص 39 - 41.

المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي[145]." وبعد ذلك ذهب لأداء فريضة الحج ؛ ثم عاد إلى بلده طوس ، وفيها كان أولاده. وفي طوس اتجه إلى حياة الخلوة والتعبد واستمر في هذه الحال عشر سنوات. وهنا انتهى إلى إلقاء نفسه بكليتها في خضم التصوف ؛ ومن هنا ذهب إلى القول بأن سيرة المتصوفين "أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ... وآخرها الفناء بالكلية في الله... ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يرتقى الحال من مشاهد الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل طائفة منهم الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول؛ وكل ذلك خطأ."

وعندما قال إن من يدعون ذلك [الحلول، والاتحاد والوصول] لا يستطيعون الاحتراز من إطلاق مثل هذه التصريحات ، فقد برأهم من الذنب ، واكتفى بوصف تصريحاتهم بأنها مجرد خطأ (أي غير إرادي) ، وهنا ينصح من تلبسته هذه الحالة "أنه لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر."

وتأكيدا لما قاله عن المكاشفات والإلهام عرض ما اعتبره دليلا قاطعا على صدقيتها ، وحث قراءه على اعتبارها كذلك، فكان أول دليل

---

145 ***المصدر نفسه*** ، ص 142 ؟

إثباتي قدمه تصريحه : **"أن علوم الطب والتنجيم لايمكن ولا يتصور أن تدرك بالعقل أو بالتجربة ، وأكد أنهما لا يدركان إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى[146]"** . أما الدليل الثاني الذي قدمه لنا **فكان نوعا من "الأحجبة" أو التمائم:**

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

4	9	2
3	5	7
8	1	6

" يكتب على خرقتين ، لم يصبهما ماء وتنظر إليهما الحامل بعينها، وتضعه تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك ، وأورده في كتاب (عجائب الخواص)، وهو شكل فيه تسعة بيوت، يرقم فيها رقوم مخصوصة، يكون مجموع ما في جدول واحد : خمسة عشر، قرأته في طول الشكل أو عرضه أو على الترتيب.

فليت شعري ، من يصدق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق ..."

---

146 ***المصدر نفسه*** ، ص 148.

انتهى الاقتباس من أبي حامد الغزالي[147].

لكن يحق لنا أن نسأل : التصديق بماذا ؟ بمقولات الصوفية عن مشاهدتهم الملائكة وسماع كلام الأنبياء من بداية طريقهم في تصوفهم ، ثم ادعائهم بالوصول والحلول ؟ لقد سقط الغزالي الذي يلقبه أشياعه بأنه حجة الإسلام، سقط سقوطا كبيرا عندما قرن الطب بالتنجيم ووصفهما بأنهما علمان لا يعرفان بواسطة العقل والتجربة ، بل يعرفان بالإلهام من قبل الله تعالى ؛ ثم سقط ثانية عندما اعتبر التنجيم علما ولم يميز بينه وبين الطب ، ثم عندما استخدم الحروف التي ربط المنجمون والسحرة كلا منها بقيمة عددية محددة في قواعد التنجيم ، وعرضها بأنها أداة مقدسة ناجحة لمساعدة المرأة المتعسرة الولادة ، وعندما صدق وصادق على الادعاء بشأن ما يحدث للمتصوف من بداية الطريق وتصور وادعاء حلول الله فيه أو اتحاده معه، وهون ذلك باعتباره مجرد خطأ .

ومثال آخر من الاستعراض والخطاب الصوفي:

الإمام الكبير أحمد زروق 846 - 899 هجرية :

وهو مغربي صوفي شاذلي الطريقة ، يعرف في الخطاب الصوفي بأنه "بحر العلوم والمعارف ، أستاذ كل مجذوب وعارف ، القطب الرباني والهيكل الصمداني أبو العباس مولانا أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي المعروف بزروق. ..."

"كان رضي الله عنه صاحب حال ، وبهاء وجمال ودلال ، أطلعه الله على المغيبات ، فنطق بسائراللغات ..."

---

[147] ***المصدر نفسه*** ، ص 143 - 144.

وفي مواجهة مع بعض قطاع الطرق من قبائل الأعراب في منطقة طرابلس الغرب، طلب منه البدو أن ينزع سرواله ليأخذوا الذهب الذي ظنوا أنه يخبئه، وإلا قتلوه، فوعظهم بأن كشف العورة محرم فتقدموا ليهاجموه ، فقال: "ابلعيهم يا أرض، فأخذتهم الأرض جميعا ، فصاروا يتضرعون إلى مولانا ويقولون :تبنا إلى الله. فقال مولانا للأرض : إطلقيهم يا أرض ، فأطلقتهم. فخرجوا... وصاروا مع مولانا... وإلى الآن باقي من نسلهم يخدمون هذه الزاوية[148]."

دورالمتصوفة والزهاد في تزوير الحديث:

ويخبرنا الدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله، أن بعض الزهاد والمتصوفة "استباحوا لأنفسهم وضع الأحاديث والقصص في الترغيب والترهيب ونحوها، وتأولوا في ذلك الحديث المتواتر المعروف: (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.) وقالوا : إنما نكذب للنبي وليس عليه [بمعنى انهم يكذبون لترويج دينه]؛ وهو جهل منهم باللغة وبالشرع، فكل ذلك كذب عليه[149]." ويماثل هذا النوع من التزوير ويدخل فيه ما قاله الطوسي، شيخ الطائفة الإثني عشرية عن قصة ولادة علي بن أبي طالب، وذلك بهدف ترويج المذهب الشيعي. وقد سجلناه في الصفحات السابقة [150].

---

148 الحسن الفاسي المغربي ، ***طبقات الشاذلية الكبرى***، ص 118 - 119.

149 أبو شـــهبة ، ص 81 - 90 ؛ وقد أورد ابن كثير مثل هذا القول : أنظر صفحة 44 فيما سبق. والدكتور أبوشهبة كان عميد كلية أصول الدين وأستا ذ التفسير وعلم الحديث في الأزهر,

150 أنظر صفحة --- فيما سبق.

الفصل الثامن

مشكلة القضاء والقدر وأثرها االسلبي

عندما يتجول الباحث بين المصادر الإسلامية القديمة يجد أن هذه المسألة قد شغلت رواة الحديث ومفسري القرآن وكثيرين غيرهم فترة طويلة، ووقفت بإزائها عقول كثيرين معلنة العجز والاستسلام، وصار الاستسلام لها وعدم مناقشتها هو النصيحة المفضلة. وسنحاول هنا أن نختصر الطريق ما أمكن، وأن نتناول المشكلة من مدخلين:

أولهما : تعليق بلسان واحد من "العلماء" المعاصرين مشهور في مكانته ومنصبه ، ممن شغل أشهر وأهم المراكز في مراتب السلفية الحديثة ، تناول فيه رواية عن وفاة طفل من الأنصار،

وثانيهما: مجموعة أحاديث رواها البخاري ومسلم ومحدثون غيرهما.

ولست أدعي أن هذا الدخول يعني الوصول إلى حل يرضاه الجميع أو الأغلبية، إنه مجرد محاولة للفهم من خلال المرور عبر المسالك الصعبة التي تكتنفها الأشواك، لوضع القراء في أجواء المشكلة. وفي كل ذلك نستحث الفكر على استيعاب ما تحمله النصوص القرآنية التي سنستدعيها ، ثم ما تحمله النصوص الحديثية والسلفية.

(1) "توفي طفل من الأنصار، وأتي به ليصلي عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم فتأثرت عائشة رضي الله عنها وقالت: "طوبى لك ، طير من

طيور الجنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عائشـــة أنه في الجنـــة ، لعل الله اطلع على ما كان يفعل [أي ما كان سيفعل] .

المدخل الثاني : تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز :

وعلق الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله على الموضوع فكان مما قاله:

"هذا الحديث حديث صحيح عند الشيخين [البخاري ومسلم]. قالت عائشة: "عصفور من عصافير الجنة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يا عائشة ، إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم . والمقصود أن هذا منعها أن تشهد لأحد بالجنة أو بالنار ولو أنه طفل ، لأنه قد كان تابعا لأبويه ، وأبواه ليسوا على الإسلام ، وإن أظهراه ، فالإنسان قد يظهر الإسلام نفاقا ، وتظهر أمه نفاقا ؛ فلا يشهد لأحد بالجنة ولا بالنار، ولو طفلا ، لا يقال هذا من أهل الجنة قطعا؛ لأنه لا يدرى من حال والديه ، والأطفال تبع لآبائهم. ومن كان مات على الصغر وليس تبعا للمسلمين فإنه يمتحن يوم القيامة على الصحيح إذا كان ولدا للمسلمين ، فإن أطاع دخل الجنة وإن عصى دخل النار كأهل الفترة ، الصحيح أنهم يمتحنون أهل الفترة [كذا] فهكذا الأطفال . ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين قال : "الله أعلم بما كانوا عاملين". وجاء في السنة ما يدل على أنهم يمتحنون ، يعني يختبرون يوم القيامة ، ويؤمرون بأمر، فإن أطاعوا دخلوا الجنة، وأن عصوا دخلوا النار. فالمقصود من هذا أن لا يشهد لأحد معين لا بجنة ولا نار ، إلا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم. هذه قاعدة أهل السنة والجماعة.[151] " هنا انتهى النقل عن الشيخ بن باز رحمه الله.

[151] **الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله** . تاريخ النقل من الإنترنت: السابع من تشرين الأول/ اكتوبر 2015 م.

ويلاحظ أن الشيخ ابن باز أضاف لمضمون الحديث أربع فكرات جديدة لم يتضمنها نص الحديث :

(أ) والدا الطفل الأنصاري لم يكونا على الإسلام وإن أظهراه.

(ب) أن مصير الطفل في الآخرة تبع لمصير والديه

(ت) أن الطفل يمتحن يوم القيامة، وعلى نتيجة الامتحان يتحدد مصيره إلى الجنة أو إلى النار ،

(ث) أن الله يحدد مصير الطفل الميت بناء على علمه بما كان سيفعل، لو كبر وبلغ سن الأهلية للحساب والجزاء، والله وحده هو العليم بما كان سيعمل أي طفل بعد أن ينتقل من الطفولة إلى البلوغ. وما يستنتج من قول الشيخ ابن باز أن علم الله السابق بالنسبة للطفل الأنصاري جعل ذلك الطفل يوجه إلى النار. لكن الطفل نفسه مات قبل سن الأهلية للحساب ؟ هنا تكمن الصعوبة.

وقد وردت مجموعة أخرى من الأحاديث منسوبة إلى النبي

صلى الله عليه وسلم في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما تتعلق كلها بموضوع **"القضاء والقدر"** ، وقد تناولها كثيرون من "العلماء" عبر القرون من غير أن يلاحظوا أدلة التزوير ، ولا خطورة المضمون الذي تحمله ، وهو "عقيدة الجبر" ، بما فيها من إلغاء حرية الإنسان التى أكدتها آيات كثيرة في كتاب الله ، ويرتكز عليها الحساب والثواب والعقاب في الآخرة ؛
وسنستعرض فيما يلي شيئا من ذلك:

(2) عن زيد بن وهب، عن عبدالله [؟] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ، ثم علقة - مثل ذلك - ثم يكون مضغة - مثل ذلك - ثم يبعث الله الملك ، قال: فيؤمر بأربع كلمات ، يقال : اكتب أجله ورزقه وعمله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح.

(3) وقال صلى الله عليه وسلم ، (إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ؛ وإن أحدكم ليعمل عمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها [152]..."

(4) عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : "وكل الله بالرحم ملكا فيقول : أي رب نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب ، ذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ، فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه."

باب جف القلم على علم الله ، وقوله : "وأضله الله على علم."

(5) وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم: جف القلم بما أنت لاق، وقال ابن عباس - لها سابقون - سبقت لهم السعادة [153].

(6) عن عمران بن حصين قال : قال رجل : يا رسول الله ، أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم ؛ قال: فلم يعمل العاملون ؟ قال: كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له [154].

ومن صحيح مسلم :

(7) - عن زيد بن وهب عن عبدالله قال: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل

---

[152] ***صحيح البخاري*** ، كتاب القدر ، رقم 593 ، وقارن مع أبو الحسن علي الأشعري ، ***الإبانة عن أصول الديانة*** ، تح. عباس صباغ (بيروت : دار النفائس ، 1994) ، ص 151 ، وانظر أيضا الإمام أحمد بن الحسين البيهقي، ***الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة*** (القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر 1961) ص ---

[153] ***صحيح البخاري*** ، رقم 594.

[154] ***المصدر نفسه*** ، كتاب القدر ، 595 .

أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها [155]."

- وعندما نصل إلى الحديث رقم (2645) نقرأ في المقدمة ، قبل نص الحديث : تساؤلا : وكيف يشقى رجل بغير عمل ؟ ثم يأتي نص الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم برواية حذيفة بن أسد الغفاري :

(8) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال: اي رب ، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب أجله ، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص [156]."

وفي هذا الحديث نجد أن مزوره نسب إلى أحد الملائكة أنه "صور النطفة **وخلق** سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها"، وبهذا النص تماما.

إن نسبة فعل الخلق إلى أحد الملائكة مناقض للنص القرآني كما في عدد من الآيات القرآنية ، حيث نقرأ عن النساء :((**ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن [157]...**))، وهنا نسبة الخلق في الأرحام إلى الله وحده وليس لواحد من الملائكة. وعندما يخبرنا نص الحديث عن أحد الملائكة : " ثم خرج" ، [من أين خرج ؟ من رحم المرأة أو من بطنها!] وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن الورق (ألصحيفة الورقية) معروفا ولا مستخدما ، والذي أعتقده أن النص "ثم يخرج بالصحيفة في يده" يشي بأن هذه الصياغة حدثت في أواخر القرن الثاني أو في القرن الثالث الهجري بعد أن صار الورق معروفا ومستخدما على نطاق واسع وصار هناك كتاب رسميون في

---

155 ***صحيح مسلم***، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه. ويلاحظ أن مزور هذا الحديث أضاف قسما معظما نسبه إلنبي صلى الله عليه وسلم.

156 ***صحيح مسلم*** ، رقم 2645

157 سـورة البقرة ، 288.

الدواوين ، وصار مشهد الكاتب عندما يخرج من الديوان حاملا بيده صحيفة رسمية كتبها، صار مشهدا مألوفا يمكن أن يسجله المؤرخون كما يمكن أن يقلده بعض المشتغلين بتزوير الحديث ؛ هذا بينما كانت أدوات الكتابة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن الصحابة عظام أكتاف الحيوانات ، وسعف النخيل ، وجلود الحيوانات أحيانا [158] .

(9) ومن الأحاديث التي أوردها الإمام البيهقي : عنعنة ... عن عبدالله بن عمرو بن العاص : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **"**قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة [159]**."**

(10) - عن محمد بن كعب القرظي قال: قال معاوية ابن أبي سفيان وهو على المنبر : **"**أيها الناس ، أنه لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطي لما منع الله ، **ولا ينفع ذا الجد جده** ، من يرد الله به خيرا يفقه في الدين. ثم قال معاوية : سمعت هؤلاء الكلمات من رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الأعواد [160]. هنا وجدت من المهم أن أنبه القارئ إلى عبارة : **"*ولا ينفع ذا الجد جده*،"** وأدعو لتأملها وتحليل ما توحي به في كل الاتجاهات.

المسلم العادي، أعني الذي لم يحز ثقافة شرعية واسعة ، يعرف أن الخطأ غير المتعمد في التعامل بين الناس يعفو الله عنه ، ويعرف مما يقرأه في القرآن أن الله تعالى لا يعاقب الناس عليه : ((**من كفر بالله من بعد أيمانه - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم [161].**)) ففي هذه الآية من سورة النحل يؤكد الله استثناء المكره من العقوبة ، فكيف يزعمون أن الله أكره المؤمنين الذين اختاروا طريق الإيمان بحريتهم وحافظوا على توجههم حتى لم يبق بينهم وبين هدفهم الصالح إلا ذراع أو باع فأكرههم وأجبرهم على تغيير سلوكهم

---

[158] أنظر ص 9 - 10 فيما سبق من هذا الكتاب.

[159] البيهقي ، ***نفس المصدر*** ، ص 56.

[160] الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، ***صحيح الموطأ*** ، ص 672 - 673.

[161] سـورة النحل / 106 .

في الاتجاه المعاكس تماما لما اختاروه بحريتهم ؛ لماذا ؟ .. لأنه قد سبق عليهم الكتاب ، مما يعني أن قرارا مسبقا سد طريقهم وأجبرهم على العودة في الاتجاه المعاكس. الله سبحانه أعلن بنفسه من خلال كتابه أن : **"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"** ، فهل يعقل ويقبل في إطار عقيدة المسلم أن يقدم الله نفسه على فعل الإكراه الذي نهى عباده عنه ، ثم يحاسبهم على ما فعلوه مكرهين **!** هذا ، بينما يؤنب الله بعض المؤمنين بسبب مناقضة قولهم لفعلهم: ((**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** [162].)) ، هل يمكن أن ينهى الله عن فعل سئ معيب ثم يقوم هو نفسه بفعله **!** ثم يقال لنا بعد ذلك : إنه يفعل في ملكه ما يشاء **!** ونعرف من الحديث النبوي المشهور : "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه." أي أن العقاب والتهمة رفعا عن المكره.والإكراه ، هو كل فعل لم يقم به فاعله باختياره الحر ، وأنه لم يكن يستطيع الامتناع عنه لو أراد ذلك. هذا هو العدل في أحكام الله. غير أن المراء والجدل الذي ولده التعصب للرأي الموغل في الخطأ يستمر ، ليضلل الأجيال المسلمة المتتابعة عبر القرون؛ لنقرأ ما اضافه الإمام البيهقي:

(11)_"باب القول في وقوع أفعال العبد بمشيئة الله عز وجل:

"قال الله تبارك وتعالى: (**(وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)**) [التكوير/29 و الإنسان30] ، فأخبر أنا لا نشاء إلا أن يكون الله قد شاء.

لم يحسن البيهقي تفسير هذه الآية بسبب تعجله المتحمس ؛ فعل المشيئة إذا نسب للإنسان يعني الإرادة والشعور بالرغبة أصلا ، منفصلا عن العمل من أجل تحقيقها، ثم يأتي العمل ؛ ومثال ذلك : سعيد وفريد [اسمان للمثال فقط] شاء/أراد كل منهما أن تكون له سيارة خاصة وبينما يجلسان سويا مساء ذات يوم بدا وكأن رغبة كل منهما مؤكدة . في اليوم التالي ذهب سعيد إلى الوكالة واشترى سيارة وتحققت مشيئته. أما فريد فلم يتحرك عمليا ، فبقيت

[162] سـورة الصف / 2 - 3.

مشيئته معلقة وغير نافذة ، وقد تتلاشى الرغبة والمشيئة وقد تنشط بقوة فتحمله على الحركة غدا فيمتلك السيارة. ومعنى ذلك أن المشيئة بالنسبة للإنسان تمر في ثلاثة مراحل : الإحساس بالرغبة ، ثم النية ، ثم العمل التنفيذي. أما التأثير الإلاهي فإن الله قادر على دفع الإنسان وحمله على العمل والنشاط لتحقيق الرغبة وشراء السيارة ، وقادر كذلك على دفعه لإسقاط وإلغاء رغبته والتخلي عنها تماما. والمشيئة التي أحس بها كل من سعيد وفريد تندرج ضمن الدوافع الأساسية التي خلقها الله في الإنسان ، الدوافع هي منبع كل المشيئات والإرادات الإنسانية ، وكل هذه الدوافع والمشيئات والإرادات هي من خلق الله وبإرادته[163]. أما عندما نتكلم عن مشيئة الله فإن الأمر مختلف: مشيئة الله نافذة ومستقلة، بينما مشيئة الإنسان خاضعة لمشيئة الله.

ومضى البيهقي في جدله : ((**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين !**))وأتبع ذلك بقوله: ((**فمن يرد الله يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا**)) وأضاف : ((**ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم** [164].)) ، ((**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**)) ، **يقول: من شاء الله له الإيمان آمن** ، ومن شاء الله له الكفر كفر ، وهو قوله عز وجل (**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين**)). ونحو هذا من القرآن. قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويبايعوه على الهدى فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ؛ ثم قال لنبيه : ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول ؛ ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ((**لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**)).

---

163 أنظر قائمة الدوافع ، ص 7 - 8 من هذا الكتاب.

164 سـورة المائدة / 41 ، وانظر البيهقي ، ص 68 - 69.

إن هذا تفسير موغل في الخطأ ومضل ضلالا كبيرا ، ناتج عن التعصب لاعتقاد خاطئ - مقتبس من مصدر غير إسلامي - وضع إرادة الإنسان ضد إرادة الله ، مع تجاهل للخطة والبرنامج الذي وضعه الله لتعامله مع خلقه : **الإرشاد والهداية ، ومنح القدرة على الاختيار** وهي منحة بدأت وتظل خاضعة لإرادة الله، ثم **الحساب** ، ثم **الجزاء**. ولا يضيرني إن كنت كررت هذه النقطة وأكررها أكثر من مرة.

"قال الشيخ [البيهقي] رحمه الله : وقد روينا في حديث زيد بن ثابت وفي حديث أبي الدرداء وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن." وهذا كلام أخذته الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذه التابعون عنهم ولم يزل يأخذه الخلف عن السلف [165]"
وهذا قول صحيح لا يمكن أن يعترض عليه مسلم. لكن الاعتراض يظهر عندما يلبس الحديث بالتحريف في نصه أو في سياقه ليتناقض مع النص القرآني ؛ وأما غير الصحيح فهو استهداف إلغاء إرادة الإنسان تحت غطاء تأكيد إرادة ومشيئة الله وكأن بينهما صراع ومغالبة ؛ والله سبحانه أكد أنه قدر الإنسان وأقدره ومكنه من أن يمارس فعل المشيئة وأن يشاء وأن يختار ، ومع ذلك تظل مشيئة الإنسان محكومة بمشيئة الله، فلا تكون نافذة رغم إرادة الله بأية حال. لكن حشر هذه العبارة في هذا السياق من الجدل يراد منه الإيحاء بأن من يرفضون إلغاء دور إرادة الإنسان يرفضون أيضا مضمون " ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. " وهذه مغالطة فجة وغير صحيحة تهدف إلى تشويه صورة المخالف بتهمة مختلقة ، غير صحيحة وغير أخلاقية.

(12) وهنا في هذه الاقتباسات مما ورد في كلام البيهقي تحت عنوان : **"باب القول في وقوع أفعال العبد بمشيئة الله "** نجده استشهد بعدد من الآيات القرآنية وتسارع في تأويلها ليجعلها تتوافق مع عقيدته في الجبر، أي أن الإنسان مجبر في كل فعله ، وليس له فرصة الاختيار بأخذ طريق من

---

165 البيهقي ، ***الاعتقاد*** ، ص 71 - 72.

الطريقين ؛ ودعني أقتبس من نصه حرفيا: "وفي قوله **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** يقول من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء الله له الكفر كفر." هكذا أولها البيهقي باختصار وتعجل؛ وبالعودة إلى نص الآية كاملة وسياقها مع سابقتها ، والخطاب فيهما موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ، : ((**وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** [166].))

قل يا محمد للناس: **[من شاء منكم فليؤمن ومن شاء منكم فليكفر]** وأتبع ذلك بالتحذير مباشرة : **"إنا أعتدنا للظالمين نارا..."** ، لكن البيهقي صاغ التأويل على هواه ونسبه إلى الله ، وبدأه هكذا: "يقول [من الذي يقول ؟] من شاء الله له الإيمان آمن ومن شاء الله له الكفر كفر وهو قوله عز وجل (وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين.)" ((فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)) الفاعل (من شاء) في آية 29 من سورة الكهف هو: **الناس المبلغون**، الذين خاطبهم محمد بأمر من الله، حيث وجه الله لهم أمره من خلال نبيه ، وأعطاهم حق الاختيار: "فمن شاء [منكم فليؤمن] ومن شاء فليكفر. لكن البيهقي حرف المعنى بقوله ، بزيادة من عنده: "فمن شاء الله له الإيمان آمن...، وهنا أقحم فاعلا آخر غير الإنسان الذي تلقى الخطاب ووجه له الخطاب، فجعل فعل المشيئة لله (فمن **شاء الله** له الإيمان) وبذلك ألغى التخيير المتضمن في الآية الذي يعطي الأنسان حق المشيئة والاختيار ضمن دائرة مشيئة الله ؛ وكأنه - البيهقي - لا يعترف أن للإنسان مشيئة ، رغم أن الله بين أن الإنسان يستطيع أن يشاء، مع التأكيد بأن الله يستطيع أن يمنع أو يلغي مشيئة أي إنسان من أن تتحقق.

ثم إن البيهقي استحضر نص أية أخرى انتزعها من سياقها لكي يلغي التخيير، وليصوغ معنى وحكما مناقضا يفرض عقيدة الجبر!

---

166 سـورة الكهف / 29.

والتفسير الصحيح للآية ، من غير أن يفرض عليها أحد عقيدة الجبر، هو أن الآية تعلن تخييرا واضحا من الله لعباده ، لا لبس فيه ولا يمكن إخفاؤه أو التعتيم عليه ، تخييرا بين نقيضين : طريق الإيمان والجنة، وطريق النار والبوار والعقاب، غير أن التخيير أعلن مصحوبا بتحذير واضح يتبعه تهديد لمن اختار طريق الضلال؛ هذا عن مدلولات النص القرآني بحرفيته ، ومع ذلك فإن علينا أن نتذكر - بجانب ذلك - ما حدث عمليا في كل عصور التاريخ ، وما واجهته دعوات الأنبياء ، وهو أن الأكثرين من الناس الذين تلقوا الدعوة لم يشاءوا اختيار طريق الإيمان ، بل اختاروا نقيض الإيمان ، ومع ذلك فإن الله الذي أعطاهم الاختيارلم يلغ قرارهم واختيارهم ولم يمح أثره، بل تركهم يواجهون النتيجة، حسب النظام الذي وضعه الله : الدعوة والإرشاد إلى الحق ، تتبعها حرية الاختيار قولا وعملا ، ثم الحساب ، والجزاء يوم القيامة موافقا لعمل الفرد في الحياة الدنيا.

ويبدو أن البيهقي فهم الموقف وكأنه مواجهة بين الله وعباده، بين إرادة الإنسان المخلوق في مواجهة مع إرادة الله الخالق ، وعلى أساس هذا الفهم الخاطئ حدد دوره الوعظي بأن يكون مناصرا لإرادة الله ضد إرادة الإنسان ، عن طريق الجدل القاصر ، حتى لو كان مغايرا للبديهيات القرآنية وبعيدا عنها. ومما استخدمه البيهقي في هذه النقطة قول الله تعالى : **((ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.))** إن الموضوع الأساس لهذه الآية هو النهي عن الإكراه ، لآن الله لو شاء أن يحمل الناس على الإيمان بالإكراه لآمن من في الأرض كلهم جميعا، فإذا كان الله استبعد ، ولم يشأ، أي لم يحب ولم يرد - بضم الياء وكسر الراء - أن يكون الإيمان بالإكراه ؛ أفتقوم أنت يا محمد بأكراه الناس على الإيمان على الرغم من أن الله بين الطريق الذي أراده ، وشاءه ، وأحبه، وفضله للإنسان، **وهو الإيمان والصلاح،** لكنه - مع ذلك - أراد **أن يختارالإنسان نفسه طريقه بحرية** ، بعد تلقيه الإيضاح والتعريف بالنتيجة

والنهاية التي تقود إليها كل من الطريقين ((**وهديناه النجدين**)) ثم يلقى ما استحق من جزاء يوم الحساب.

وهناك مبدأ عقيدي مهم وأساسي ربما يلتبس ببعض الغموض في أجواء الجدال والتناطح الهائج، ويسبب عتمة وسوء رؤية للذين تغلبهم العاطفة ؛ وهذا يستلزم أن نضعه تحت الإضاءة الواضحة المبينة.

الله الرحمان الرحيم بعباده يذكر لنا أنه يهدي ويضل، ويأتي ذكر ذلك في القرآن وفي الحديث النبوي ، كما أنه يتكرر في مقولات المتجادلين. وبعض المتجادلين يعرضون شيئا من هذه المقولات وكأنها مجرد إظهار واستعراض لقوة الله وسلطته من غير أي مضمون آخر، ويقولون : هم عبيده ، يفعل بهم ما يشاء ولا ينبغي أن يعد ذلك ظلما . والحقيقة التي لا يجوز تجاهلها أن الله تعلى شأنه أراد وأحب أن يؤمن كل الناس ، ولكنه أراد أن يكون إيمانهم باختيارهم وحريتهم دون إجبار أو إكراه ، وعلى أساس اختيارهم يكون جزاؤهم. وبذلك أرسل الله تعالى الأنبياء والكتب ، ووجه الدعاة والمرشدين والمبشرين. ولو صح أن الله قرر مصير الناس وهم في أصلاب آبائهم ، أو قبل خلق السماوات والأرض ، فلماذا يرسل الرسل وينزل الكتب والدعاة إلى الإيمان ، بينما الطريق مسدود بإحكام يمنع أي تغيير ؟ تعالى الله عن هذا العبث.

أما الضلال والإضلال فإن الله لا يحبه ولا يريده من فاعله ، لكنه سبحانه يقوم بإضلال بعض الناس في حالات محددة يذكر أمثلة منها في كتابه ، وهو لا يضل الناس بغير سبب يبرر ذلك في موازين عدله ورحمته، وفيما يلي أمثلة :

((يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء [167].)

[167] سـورة إبراهيم / 27.

((ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد. كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير [168].))

((...يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا، وما يضل به إلا الفاسقين [169].))

في هذه الأمثلة القرآنية االثلاثة نجد أن الله تعالى يضل ***الظالمين*** ، ويضل ***الفاسقين*** ، ويضل ***متبعي الشيطان.*** وفي الآية 27 من سورة إبراهيم نجد تنبيها وتأكيدا بأن الله لا يضل المؤمنين الصالحين الأبرياء ، كما حاول البيهقي خطأ أن يقنعنا ، بل يثبتهم على الإيمان، أما الإضلال فهو : للفاسقين ومن دخل في معنى الفسق من الظلم والفساد والعدوان. إن فعل **الإضلال** ، عندما يصدر عن الله بحق إنسان يكون نتيجة لمعصية وانحراف من قبل الفرد ، ونوعا ودرجة من العقاب. ولذا فإن من الخطأ نسبته إلى الله وكأنه مجرد استعراض لامتلاك القوة على عبيده الضعفاء، أولأنهم عبيده "يفعل بهم ما يشاء ، ولا ينبغي أن يسمى ذلك ظلم."

(13) وأخيرا نستعرض شيئا مما كتبه الإمام عبدالقادر الجيلاني في كتاب ، ***الغنية لطالبي طريق الحق*** ؛ والجيلاني من كبار ومشـــاهير أئمة الصوفية ويعتبر من المعتدلين، وكانت فترة الرشد في حياته ضمن القرن السادس الهجري إذ (ولد 470 هـ - وتوفي561هـ) ، قال الجيلاني :

"وينبغي أن يؤمن [المسلم] بخير القدر وشره ، وحلو القضاء ومره ... وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان ، وما يكون إلى يوم البعث والنشور، بقضاء الله وقدره المقدور ، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور... ؛ وروي عن زيد بن وهب عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة - وفي لفظ أربعين ليلة - ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة

[168] ســورة الحج / 3 - 4.

[169] ســورة البقرة / 26.

مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات : خلقه ورزقه وعمله وشقي أم سعيد ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا باع ، فيسبق عليه الكتاب فيدخلها.] انتهى الحديث ، ولنا ملاحظة هنا بشأن : "أن جميع ما كان في سالف الدهور... وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور ، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور." وهذا النص يعني أن جميع ما حدث في التاريخ من الحروب والقتل والدماء والتدمير ، كل ذلك فرضه الله على الناس وأنهم كانوا عاجزين عن تجنب متطلبات هذا القدر المقدور. وهذا يعني تبرئة جميع الطغاة الظالمين والمعتدين والنهابين وإلقاء التهمة على جهة أخرى واحدة ! من هي ؟ ومن المتهم الذي أكدت هذه الروايات المغشوشة الجاهلة مسئوليته واستبعدت اسم أي متهم آخر تماما ؟

وعن هشام بن عروة ، عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل النار، فإذا كان عند موته تحول فيعمل عمل أهل النار- فمات فدخل النار ؛ وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل الجنة فإذا كان قبل موته عمل بعمل أهل الجنة فمات فدخل الجنة." وعن عبدالرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينكث في الأرض إذ رفع رأسه فقال : ما من أحد إلا وقد علم مقعده في النار أو مقعده في الجنة ، فقالوا أفلا نتكل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : اعملوا فكل ميسر لما خلق له." وعن سالم بن عبدالله رضي الله عنه قال : إن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال : "يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ، أشئ قد فرغ منه ، أو شئ مبتدع أو مبتدأ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه ؛ قال : **أفلا نتكل ؟** قال عليه الصلاة والسلام : اعمل يا ابن الخطاب ،

فكل ميسر لما خلق له ، فمن كان من أهل السعادة فيعمل بعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فيعمل للشقاوة.[170]"

ومحمد بن القيم أيضا قال :

"وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مسألة القدر ، وما يعمل الناس فيه ، أمر قضي وفرغ منه ، أم أمر يستأنف ؟ ، فقال : بل أمر قضي وفرغ منه. فسئل حينئذ:

ففيم العمل؟ فأجاب بقوله : اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة ؛ ثم قرأ قوله تعالى: ((فأما من أعطى واتقى [الليل: 5 إلى 10] ، والحديث أورده البخاري وأورده مسلم كلاهما ، ومر معنا من قبل[171]. وقد ولد ابن القيم سنة 691 هجرية وتوفي سنة 751 هجرية ، فهو من رجال القرن الثامن الهجري.

لكن هنا ملاحظة تبدو مهمة جدا تتعلق بما نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" ، في ضوء ما تعنيه آيات سورة الليل من الخامسة إلى العاشرة : فما تقوله هذه الآيات لا يتماشى ويتوازى ، ولا يسير في نفس الاتجاه مع القرار الإلاهي المسبق [**المزعوم في الرواية**]، المسمى بالقدر ، بل إنه يعاكسه ويناقضه؛ ولو وضعنا نص الآيات الأخيرة من سورة الليل نفسها (الآيات 14 - 18) أمام أعيننا سنجد أنها تنفي فكرة الإجبار: ((**فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى.**)) النار لا يصلاها إلا الأشقى. وسيجنبها الأتقى . وهذا خبر أعلنه الله مؤكدا بقوة ؛ وهو يكشف لنا أن هذا الحديث المتناقض من داخله، مزور ، ولا يمكن صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[170] الجيلاني ،*نفس المصدر* ، 97 - 98.

[171] محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، *أعلام الموقعين عن رب العالمين* ، ص 1058.

ليس هذا فحسب ، بل إن الحديث يتعارض ويتناقض تماما مع مدلول الآية الكريمة : **((الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.**[172])) ، والحديث يقول عكس ذلك تماما.

وآية أخرى تالية:

((للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين.[173])).

والآن لننظر ولنتدبر فيما أوردنا وقرأنا: هل صحيح ما قيل : إن الله تعالى يخلق أناسا للنار وهم في أصلاب آبائهم ، أو بعد أن يمضي على الجنين أربعين أو اثنتين وأربعين ليلة ؟ كما قرأنا في الأحاديث التي نقلناها هنا ؟ وهل صحيح أن الله يرسل أطفال غير المسلمين إلى النار تبعا لآبائهم؟

إن مصدر الإجابة الوحيد المقبول بالنسبة لهذه التساؤلات لا بد أن يكون الأعلى والأسبق من كل المصادر **"إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم..."**

الله جل ثناؤه نفى كل هذه الادعاآت التي أشارت إليها الأسئلة ، وذلك بآيات من كتابه واضحات بينات ؛ حيث قال : ((**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور.**[174])) المعنى الواضح لهاتين الآيتين أن هدف خلق الحياة وما يتلوها من العمل ، ثم الموت هو : **ليبلوكم** ، أي ليختبركم ، كيف يختبركم ؟ من خلال عملكم في فترة حياتكم قبل الموت. إذا عملية الخلق للإختبار أولا قبل توجيه الناس للحساب ، أو للرحمة أو للعذاب ، وبعد الاختبار يأتي دور الحساب والجزاء يوم القيامة ، وعلى أساس نتيجة الحساب يتحدد مصير الفرد إلى الجنة أو النار ، وليس قبل يوم الحساب؛ هذا هو ما أخبر الله به عباده

---

[172] سـورة البقرة /257 .

[173] سـورة النحل /30.

[174] سـورة الملك /1-2.

المؤمنين بإعلان قرآني واضح معبر ومبين، ومتواصل مع مسيرة العصور والسنين:

((ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين.[175])) وعندما يفسر ابن كثير هذه الآية يقول : " أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ... وقوله: فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين." يأتي الله بها ليضعها في ميزان الشخص الماثل للحساب ؛ كما قال تعالى : **"ولا يظلم ربك أحدا"** وقال : **"إن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجرا عظيما [176]"** وقال لقمان : **" يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير.**[177]" ونقرأ في سورة الزلزلة عن مشهد الحساب يوم القيامة : **((يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** [178].))

وفي هذه الآيات الأخيرة التي ورد فيها "مثقال حبة من خردل" ومثقال ذرة ، ثم "مثقال حبة من خردل" مرة أخرى ، نجد ما يدلنا على أن الله سبحانه لا يضيع على المؤمن الطائع أقل شئ من حقه في الأجر والثواب ؛ ونفس الآيات تصرح بأن حرمان الإنسان من جزء صغير من حقه في الثواب ، حتى لو كان مثقال ذرة أو حبة من خردل يعتبر ظلما : **"إن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة"** ، وفي هذا رد قرآني على الذين قالوا "إنهم عباده وملكه، وهو يفعل في ملكه ما يشاء ، وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا ينبغي أن يسمى ذلك ظلما [179]. لكن هذه الآيات **بينت لنا أن الله سماه ظلما ، كما بين أنه تعالى لا يفعل ذلك الظلم.**

---

[175] سـورة الأنبياء / 47.

[176] سورة النساء / 40

[177] سورة لقمان / 16

[178] سـورة الزلزلة / 5 - 8 .

[179] وعندما ننظر في النصوص المسيحية واليهودية لعقيدة القضاء والقدر سنجد مثل هذه العبارات والمفردات .

فما هو أثر هذا البيان الإلاهي الواضح على الادعاء بأن الله خلق للنار أناسا وهم في أصلاب آبائهم ، قبل زواج أبويهم، أو بعد أن يصيروا أجنة في أرحام أمهاتهم ؟ وخلق للجنة أناسا وهم في أصلاب آبائهم ... جفت الأقلام ، ورفعت الصحف ؟ وكيف يكون مصير الطفل .. عصفور الجنة الأنصاري ما دام أهله من الأنصار، أولم يكن الأنصار مسلمين ؟ وكيف يكون حال أطفال غير المسلمين ، هل يساقون إلى النار عقابا لهم على ما اقترف آباؤهم قبل ، ولادة أولائك الأطفال أو أثناء طفولتهم ؟ وهل يبقى مصير أولئك الأطفال معلقا على نتيجة الامتحان الذي يجرى لهم يوم الفزع الأكبر ، **((يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.))** ، حيث **((تأتي كل نفس تجادل عن نفسها))** ، هل يساق الأطفال إلى الامتحان ، كما أخبرنا وشدد بالخبر سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله ، فيما يتعلق بالأطفال ؟ وهل نسي أو أنسي قول الله تعالى : **((ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون.**[180])) ولم يقل بما كنتم ستعملون.

ويتبين لنا مقدار الشطط والغلو في هذا الجدل الذي أفرزته الغفلة أو الجهل، أو هما معا ، عندما نضع أمامنا مشهدا لجماعات من عباد الله المؤمنين ، اختاروا بحريتهم طريق الحق وساروا مسيرة عزم وصدق وتصميم ، وواظبوا على ذلك حتى اقتربوا من خط النهاية ، ولم يبق على وصولهم ودخولهم إلى الجنة إلا ذراع أو باع ، وعند هذه النقطة صدوا وأبعدوا عن طريق الحق رغم إرادتهم ، وأجبروا على السير في الاتجاه المعاكس ، في طريق الضلال ، بناء على قرار علوي سابق - كما يزعم الجبريون - اتخذ بحقهم قبل أن يولدوا، لأنهم خلقوا للنار ، والقرار لا عودة فيه ، ولا رجعة عنه ، وعملهم الصالح كله طوال حياتهم، حتى اللحظات الأخيرة والذراع الأخيرة، لا أثر له يوم الحساب ؛ " جفت الأقلام ورفعت الصحف" ، بل حتى فرصة التوبة والندم حرموا منها ، ولم يسمح لهم باستخدامها ، لأن عملية

[180] سورة الأنعام / 164

التحويل القسري إلى طريق الضلال تمت، من غير أن يكون لهم ذنب ، وفرضت عليهم في آخر لحظة قبل موتهم، وبالحجة ذاتها : "رفعت الأقلام وجفت الصحف" !

إذا كان الله حدد مصير الناس وهم في أصلاب آبائهم قبل أن يخلقهم، وأن القرار لا رجعة فيه فلماذا يختبرهم ولماذا يحاسبهم ؟ تعالى الله عن هذا العبث!

والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى أكد وعده لعباده مرات كثيرة بأنه لن ينقصهم من أعمالهم الصالحة شيئا :

((إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ؛ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم.[181])) ، وهذا خبر يحمل وعدا من الله، والله لا يخلف وعده ، والخبر غير قابل للنسخ أو التغيير. لماذا ؟ ندع للقارئ أن يفكر ليكتشف.

((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا [182].))

((أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين [183].))

((وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم [184].))

- ((وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم [185].))
((يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [186]))

---

181 سورة فصلت / 30 - 32 .
182 سورة الكهف / 107 - 108 .
183 سورة آل عمران / 135 -136.
184 سورة آل عمران / 179

- ((واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [187].))

- ((للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير، ولنعم دار المتقين [188])). إن كلا من هذه الآيات حملت لنا نفس الوعد.

فهل نصدق وعد الله سبحانه وتعالى، المؤكد مرات كثيرة اكتفيت منها بهذا العدد ، أم نصدق مزوري الأحاديث ، والمشايخ الذين اتبعوهم بغفلة شديدة بناء على سلسلة سند مزورة من غير أن يلقوا بالا إلى محتوى المتن الذي يفضح نفسه بنفسه ، وقبلوا أكذوبة : أن الله خلق أناسا للنار حدد مصيرهم وهم في أصلاب آبائهم ، أو قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة حسب إحدى الروايات التي نقلها لنا الإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي غفر الله له !

هذا .. مع أن الله فتح باب التوبة للعصاة المذنبين مؤكدا حصولهم على المغفرة ، وفيما يلي بعض من أمثلة البيان الإلاهي القرآني بهذا المعنى:

- ((إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما [189].))

- ((إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكونوا من المفلحين [190].))

- ((فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم[191].))

- ((وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم ، والله بصير بما يعملون [192].))

---

[185] سـورة المائدة / 9.

[186] سـورة الأعراف / 35.

[187] سـورة هود / 115.

[188] سـورة النحل / 30.

[189] سـورة الفرقان / 70 .

[190] سـورة القصص / 67 .

[191] سـورة المائدة / 39.

- **((وإني لغفارلمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى [193].))**

- **((من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون [194].))**

- **((ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور [195].))**

- **((وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم [196].))**

- **((إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شـيئا[197] .))**

- **((ومن تاب وآمن وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا [198].))**

هذه أمثلة كثيرة من كتاب الله، ويوجد في القرآن من أمثالها المزيد ، ومضمون هذه الآيات ودلالاتها تبين : دعوة المذنبين إلى التوبة ، وتشجيعهم بانهم سينالون المغفرة والرحمة ، وبأن الله يبدل سيئاتهم حسنات ، ويضاعف لهم الحسنات الواحدة منها بعشر أمثالها ، وأنهم يدخلون الجنة بغير حساب ؛ ومعاذ الله أن تكون هذه الدعوات غير جادة على أساس أن مصير الشخص قد تقرر قبل أن تحمل به أمه. فكيف يدعى بأن الله يسلب فرصة التوبة والاستغفار من الذين عملوا بالاستقامة والطاعة والتقوى طوال حياتهم حتى ما قبل الذراع الأخيرة ؟ والخطاب في هذه الآيات موجه لمن وقعوا في الذنوب فعلا ، فكيف يقال لنا إن الله يسوق إلى النار من لم يرتكبوا ذنبا بل اختاروا العمل الصالح من البداية وظلوا يعملون في إطاره حتى لم يبق من

---

192 سـورة المائدة / 71.

193 سـورة طــه / 82.

194 ســورة الأنعام / 16.

195 ســسورة الشورى / 23.

196 ســورة الأنعام / 54.

197 ســورة مـريم / 60 .

198 سـورة الفرقان / 71.

مسيرتهم سوى ذراع أو باع لكي يصلوا فسبق عليهم القدر ! وماذا عن الأطفال ، عصافير الجنة ! !

وهنا قد ينغلق على بعض الناس طريق التفكير .. فيتساءلون : وكيف يحدث التناقض بين كلام الله وحديث رسوله الأمين ! والجواب الوحيد والصادق هنا : **"ليس هناك تناقض بين القرآن والحديث الصحيح"** ، لكن التناقض يظهر عندما يكون "الحديث" المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم غيرصحيح النسبة ، مزورا؛ أو عندما يكون محرفا بالزيادة أو النقصان أو تغيير المعنى باية طريقة من طرق الاحتيال خلال عبث المزورين بنصوص كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بتفسير بعض آيات الكتاب المبين، فغيب هذا العبث الحقائق [199]. وهذه الأحاديث المزورة التي ترد تحت عنوان "القضاء والقدر" تهدف كلها إلى إقناعنا بأن الله يفرض على الناس أن يسلكوا سلوكا خاطئا ثم يحرمهم فرصة الاختيار وهم في مرحلة الابتلاء والاختبار، كما يحرمهم فرصة التوبة لأن التحويل حدث قبل وفاتهم بذراع أو باع من الوصول.

تفسير معاني بعض الألفاظ المتعلقة بمشكلة القدر :

وهنا نجدنا محتاجين إلى أن نقف قليلا للتدقيق في معاني بعض المفردات والعبارات التي تتكرر كثيرا في مسار بحثنا عن الحقيقة :

القــدر ... القـضـاء ... المشيــئــة ... إرادة/مشيـئة الله ... مشــيئة الإنسان.

<u>القـدر</u> : وتلفظ بتسكين الدال أو بفتحها والمعنى واحد ، والقدر هو مقدار الشئ ومبلغه [200]؛ وقول الله تعالى **"وما قدروا الله حق قدره "** ، أي ما عظموه حق تعظيمه.

---

[199] انظر ص 43 - 45 فيما سبق من كتابنا هذا تذكيرا بما قاله ابن كثير وما قاله الدكتورمحمد أبو شهبة عن مدى التزوير في الحديث.

[200] أنـظـر معجم مختار الصحاح.

الله حدد مقدار كل شئ من مخلوقاته بقدر محدد ، أو في حدود معينة، سواء من حيث الوزن، أو الطول والعرض والعمق والشكل واللون أيضا ؛ وهذا هو معنى قوله : ((**إنا كل شئ خلقناه بقدر**) هذا هو الأصل اللغوي للكلمة وتفسيره لغويا. والاشتقاق الفعلي للكلمة يزيد وضوح معناها حسبما تبينه معاجم اللغة ؛ المهندس المعماري قدر حجم البناية، أبعادها طولا وعرضا وسعة وارتفاعا أي صممها قبل البناء، وحدد قدر مواد البناء اللازمة لإنجازها ...الخ.

وقدر الشئ بفتح الدال وتشديدها ، أو بفتحها : كأن تحمل في يدك كيسا فيه عنب أو تفاح، وترفعه قليلا وتحزر مقداره فتقول: (فيه ثلاثة أرطال)، وبذلك تكون قد **قدرته** ، أي قدرت وزنه ، **حزرت وزنه** ، **أو خمنته**. وقدره - بتشديد الدال ، وأقدره : جعله قادرا ، وأعطاه القدرة ؛ وهذا النوع من الاشتقاق مألوف في الأفعال ، كما تقول: جرب الشئ ، فصار مجربا ، وخبره واختبره وعرفه ، فصار مخبورا ومعروفا ، وتقول مكنه جعله متمكنا أن يفعل ، طوله وقصره وسمنه وجوعه وجمله ، فصار طويلا ، أو قصيرا، وسمينا وجائعا، أو جميلا. وقس على ذلك "قدره" جعله قادرا.

وعندما نتكلم عن خلق الله سبحانه ومخلوقاته فإن القدر يعني: تحديد مقدار المخلوق - إنسانا أو حيوانا أو نباتا - طولا وعرضا ووزنا وشكلا ولونا وعمرا... الخ. وعلى سبيل المثال : متوسط طول الرجل متر واحد وثلاثة أرباع المتر، وقد يزيد عن ذلك قليلا أو ينقص ، لكنه لايمكن أن يصل إلى ثلاثة أمتار أو ينقص عن متر واحد مثلا. وقس على ذلك بقية الحيوانات والطيور والأشجار والنباتات ، حيث قدر الله أحجام كل نوع منها وألوانها، ودورة حياة الفرد منها ، وبقية التفاصيل المتعلقة بها. ((**وخلق كل شئ فقدره تقديرا**)) أي حدد مقداره.

أما القضاء :

وقضى : القضاء هو الحكم ، والجمع الأقضية، وقضى يقضي قضاء، أي حكم، ومثاله قول الله تعالى : ((**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**)) ، أي حكم وأمر: وقوله : ((**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا**))، ونقرأ في تفسير ابن كثير : "يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين ، ويعلون علوا كبيرا ؛ أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس ، كقوله تعالى :
((**وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.**)) ، أي تقدمنا إليه ، وأخبرناه بذلك ، وأعلمناه به. وهنا قد يتساءل القارئ : وكيف يتحول معنى القضاء من كونه خبرا ينقل أو أمرا يبلغ إلى جهة معينة ، فيصبح مصيرا سلوكيا مفروضا لا قدرة للإنسان على تغييره أو اختيار غيره ؟

وعندما يتعلق الأمر بالإيمان والاعتقاد والسلوك والعمل والجزاء والحساب والثواب والمصير في الآخرة يصبح الأمرمختلفا تماما ، وقد بحثناه بتوسع في الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، وقاعدته الأساسية : " **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ." ولا مجال للعودة لمناقشته زيادة عما سبق .

محاولة فاشلة للهرب:

وعندما اكتشف الجبريون ورطتهم بأنفسهم ، حيث وقعوا في التناقض حاولوا العثور على طريق جدلي للهرب : فقالوا إن أخذ الطائعين للنار يجري بناء على علم الله السابق بأنهم سوف يقعون في الآثام ، وهذا العلم محفوظ في الكتاب الذي يحتوي على علم الله بكل ما كان ويكون ، حتى الورقة تسقط من شجرة ليلا ! ولكن الطفل الأنصاري لم يكبر ولم يصل إلى سن المسئولية والمحاسبة، بل مات طفلا !

الأحاديث المزورة تقول لنا إن الناس أخذوا لجهنم وعذابها بعد أن أمضوا حياتهم كلها في العمل الصالح حتى ما قبل وصولهم بذراع واحدة أو

ذراعين ، من غير أن ينحرفوا، وأن انحرافهم لم يكن باختيارهم ، بل بقرار سابق على ولادتهم.

ومثل هذه المحاولة للهرب قادت الجبريين - في النهاية - إلى نتيجة تعني ضمنيا :أن علم الله المسبق الذي انبنى عليه ادعاء أخذ الصالحين إلى النار - كما زعموا - لم يكن علما صحيحا ، تعالى الله عما قالوا ويقولون.

ولدينا حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد في روايتين بينهما اختلاف قليل في الألفاظ ، **ولكنه اختلاف حاسم** ، فقد روى البخاري :

" كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال : متى الساعة ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي [ص] إن الله عنده علم الساعة، الآية ، ثم أدبر [أي الرجل السائل] فقال : ردوه ، فلم يروا شيئا، فقال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم."

الراوي : **ابو هريرة** ، المحدث: البخاري،المصدر ***صحيح البخاري***،

والملاحظ في هذا الحديث المشهور أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر القدر ، أو القضاء والقدر ضمن مكونات الإيمان، ولا ضمن تعريف مكونات الإسلام عندما رد على السؤالين : "ما الإيمان؟"و "ما الإسلام ؟"

ومع ذلك فإن لدينا نصا آخر للحديث مشابها لحديث البخاري في مضمونه العام، مع زيادة ذكرت القدر : "... الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله واليوم الآخر والقدر كله ، خيره وشره ..[201]" ففي هذه الرواية الثانية للحديث نجد أن أحد المزورين قد أضاف "الإيمان "بالقدر". ولست أنسب هذه الزيادة إلى البيهقي نفسه، فهو من كبار الحفاظ والمحدثين، ولكنه تسرع في نقل النص عن آخرين لكونه يؤيد عقيدته في القدر؛ ومع ذلك فإن هذا لا يغير النتيجة التي توصلنا إليها من خلال استعراضنا الطويل والواسع للموضوع.

ما هي الأصول الأولى لهذه العقيدة ؟:

لقد أشرت باختصار إلى أن *عقيدة القدر* تسربت إلى الفكر الإسلامي من مصادر غير إسلامية ؛ وعلينا الآن أن نستكشف ذلك ونلقي عليه شيئا من الضوء ليظهر بوضوح تام إن شاء الله.

في **الإصحاح السابع عشر** من سفر التكوين، أول أسفار العهد القديم، نقرأ شيئا عن ما سمي بأنه عهد الله لإبراهيم: "ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له :

أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملا ، 2فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا ، فسقط أبرام على وجهه ، وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدي معك ، وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد أبرام ، بل يكون اسمك ابراهيم ، لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما ، وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك ، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم.

... وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لا تدع اسمها ساراي بل اسمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضا منها إبنا، أباركها فتكون أمما وملوك وشعوب منها يكونون. فسقط

[201] البيهقي ، ***الاعتقاد على مذهب السلف*** ... ، ص 54 - 55.

إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه : هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة.

18 وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك. 19 فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من **بعده.** 20 وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا. إثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة، 21 ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده سارة في هذا الوقت من السنة الآتية22 . فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم."

الإصحاح الثامن عشر: 1وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار 2 فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه فلما نظر ركض لاستقبالهم وسجد إلى الأرض وقال يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك ، 4 ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة وآخذ كسرة خبزفتسندون قلوبكم ثم تجتازون. لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت. 6 فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميذا . إعجني واصنعي خبزملة. 7 ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصا وجيدا وأعطاه للغلام وأسرع ليعمله. 8ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا. 9 وقالوا له أين سارة امرأتك. فقال ها هي في الخيمة. فقال إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهي وراءه. وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. 12 فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ 12 فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. 14 هل يستحيل على الرب شئ. في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. 15فأنكرت سارة أنها ضحكت ، قائلة : لم أضحك ، لأنها خافت. فقال : لا ، بل ضحكت.

16ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم."

إذن من نص الإصحاح السابع عشر والثامن عشر من سفر التكوين من العهد القديم ارتسم لنا مشهدان يجسدان ويصوران لنا ما يفترض أنه عهد الله لإبراهيم عليه السلام,

رسالة القديس بولس إلى أهل روميــة

القديس بولس ولد لأسرة يهودية في طرسوس ، وهي مدينة صغيرة في سهل كيليكية [202]، قريبة من مدينة أضنة في الجمهورية التركية الآن.

ومنذ بداية العصر المسيحي نجد نصا واضحا ضمن كتاب أعمال الرسل من العهد الجديد[203] يشير إلى المشهدين اللذين مررنا بهما خلال الإصحاحين السابع عشر والثامن عشرمن العهد القديم. ويبدو واضحا أن القديس بولس استند إلى ما ورد في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين من العهد القديم ، الذي مررنا به قبل قليل. ونستعرض هنا نص الإصحاح التاسع من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية [روما] ،

نص رسالة القديس بولس :

" الإصحاح التاسع:

1أقول الصدق في المسيح لا أكذ ب وضميري شاهد لي بالروح القدس ، 2إن لي حزنا عظيما ووجعا في قلبي لا ينقطع. 3فإني كنت أود لو أكون أنا نفسي محروما من المسيح لأجل إخواني أنسبائي حسب الجسد 4الذين هم إسرائيليون ولهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد 5ولهم الآباء ومنهم المسيح حسب الجسد ، الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد آمين. 6ولكن ليس هكذا حتى أن كلمة الله سقطت ، لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيل 7ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعا أولاد ، بل بإسحاق يدعى لك نسل. 8أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلا ، لأن

---

[202] وقد زرتها سنة 1987 استكمالا لمتطلبات بحث دراسي في موضوع الثغور الشامية ، وكانت طرسوس عاصمة ولاية الثغور .

[203] العهد الجديد يخص المسيحيين.

كلمة الموعد هي هذه ، أنا آتي نحو هذا الوقت ويكون لسارة ابن ، 10وليس ذلك فقط بل رفقة أيضا وهي حبلى من واحد وهو إسحاق أبونا ، 11 لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيرا أو شرا لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذي يدعو. 12 قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير 13كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو.

14فماذا نقول . ألعل عند الله ظلما. حاشا."[204] انتهى الاقتباس من رسالة القديس بولس.

هنا نود أن يتركز انتباه القارئ على النقاط الرئيسية في رسالة القديس بولس ، بين رقم 6 إلى رقم 13 من الترقيم الذي يظهر بين الجمل والسطور : ونقتبس النص فيما يلي:

"ليس جميع الذين هم إسرائيليون ، ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعا أولاد،

بل بإسحاق يدعى لك نسل،

أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلا.

لأن كلمة الموعد هي هذه :

"أنا آتي نحو هذا الوقت ويكون لسارة ابن[205].

وليس ذلك فقط بل رفقة أيضا وهي حبلى ...

لأنهما وهما لم يولدا بعد ولافعلا خيرا أو شرا لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذي يدعو[206]. قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير. كما هومكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو." انتهى الاقتباس.

---

204 قارن مع ما سبق، ص حيث يتشابه الفكر بل وبعض الألفاظ بين الأصل والمنقول عنه.

205 الموعد المشار إليه هنا ورد في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين من كتاب ***العهد القديم*** ، وقد أوردنا نصه.

تعليق وشرح : أول أبناء الجسد لإبراهيم هو إسماعيل، وقد استبعد، وكذلك الأمر بالنسبة لعيسو، فقد استبعد أيضا. وذلك رغم أن يعقوب وعيسو لم يكونا قد ولدا عندما صدر هذاالتصريح ولا فعلا خيرا أو شرا ، فتفضيل يعقوب اختيار وقرار من الله وليس بناء على استحقاق نتيجة عمل صالح؛ وهذه نقطة أساسية في مقولات السلفيين الجبريين أيضا ، أي "الاستحقاق من غير عمل صالح" ، [لأن الله قرر مصائر عباده قبل ولادتهم]؛ وكذلك في الأحاديث الكثيرة التي يرددونها. أي أن قرار الله لا علاقة له بعمل الإنسان أو بدعائه ورغبته ، بل ويعلن السلفيون الجبريون مصيرا أخرويا مناقضا للجزاء العادل القائم على العمل. والأحاديث المزورة التي تقول كلها إن القرار صدر قبل ولادة الشخص تعني ذلك أيضا. ويلاحظ مما ورد في نص القديس بولس عبارة:

" 14 ألعل عند الله ظلما .. حاشا.." وهذا المعنى ورد في مقولات السلفيين كذلك ، وبلفظ قريب من هذا.

القديس أوغوستين:

وعدا عن النصوص الموجودة في العهد القديم ، سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر والثامن عشر[207] ، ومع إضافة رسالة القديس بولس إلى أهل روما ، نجد أن القديس أوغستين أوف هيبو قد تعرض لمشكلة "القضاء والقدر" في ثلاثة من كتبه ، وأحدها كتاب صغير من خمس وسبعين صفحة من الحجم المتوسط. وقد ولد القديس أوغستين سنة 354 م. وتوفى سنة 430 ميلادية ، قبل الإسلام بمئتي سنة تقريبا. وكتابه الصغير هذا مخصص كله لبحث حول إرادة الله من ناحية وأرادة الإنسان من الناحية الأخرى ، وكان قد كتبه لبعض أصدقائه الذين شغلهم الموضوع. وأوغستين أقل تعصبا وأكثر اعتدالا من السلفيين المسلمين الذين تناولنا

---

[207] وهذه أهم مصادر الديانة اليهودية .

مقالاتهم ومستنداتهم في هذا الفصل[208]. فبينما يؤكد إرادة الله ونعمته وعطاءه وبركته ورحمته، فإنه يؤكد كذلك وجود إرادة الإنسان ويذم إنكارها أو استبعادها. وقد تعرض أوغستين إلى موضوع إرادة الله وإرادة الإنسان في كتاب آخر من كتبه، وهو كتاب ***اعترافات القديس أوغستين*** [209]. وكذلك في كتابه الأشهر والأكبر، وهو بعنوان ***مدينة الله*** ؛ فقد تعرض لمقولة علم الله المسبق بما سيحدث في المستقبل من عمل الإنسان ، كما تعرض لموضوع التبرئة بالإيمان [210].

الأصول الإغريقية للقضاء والقدر:

ونضيف هنا باختصار أن أصول هذه العقيدة موجودة كذلك في الفلسفة الإغريقية فيما كتبه بلوتينسPlutinus [211] ضمن كتابه الذي يحمل عنوان : ***The Enneads*** وقد ولد بلوتينس سنة 204 ميلادية وتوفي 270 م.

---

[208] St. Augustine, ***On Grace and Free Will***, USA: Beloved Publishing, 2014), see pp.1- 16 in particular.

[209] St. Augustine, The ***Confessions of St. .Augustine***, Translated by Edward Bouverie Pusy (New York: Book Club), 1991)p.133.

[210] Saint Augustine, ***The City of God***, Translated by Marcus Dods, pp. 136, 480 , 484,

[211] Plutinus, ***The Enndeads***, (Penguin Classics, 1991, "Free Will and the Will of the One" , pp. 512 - 534.

الفصل التاسع

استعادة الوعي : نحو بداية جديدة

عندما نتكلم عن البداية المجددة القوية فإن علينا أن نستحضر في وعينا أنها لا تقوم وتستوي وتستمر كذلك إلا إذا قامت علي أسس أصيلة قوية راسخة وهي :

1) استعادة الوعي من خلال **النقد البناء**، و يشمل:(النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، نقد الماضي ومخلفاته ، ونقد الحاضر وتعقيداته،

2) الكتاب (القرآن)، خاصة ما تضمنه من المبادئ الحاكمة ، تتبعه وتصاحبه السنة الصحيحة ،

3) تفعيل العقل الجمعي للأمة (محررا من عوامل التنويم والقيود الكابحة)

4) اعتبارحالات تغير ظروف الزمان والمكان وتشابك المصالح العامة للمجتمعات الأسلامية ، وللأمة ، حاضرا ومستقبلا ،

5) التجارب والممارسات في تاريخنا ، بجانب التجارب والممارسات التي مرت بها شعوب العالم في الزمن الحديث والمعاصر،

6) الاعتراف بالتعددية ومقتضياتها حيثما كانت قائمة .

نحن إذن بحاجة إلى بداية جديدة ، نستلهم فيها الروح والخطى التي استلهمها وسار على ضوئها المجتمع الإسلامي الأول في المدينة (يثرب) ، انطلاقا من المبادئ القرآنية ، وما تضمنته وأفرزته من الأسس الصالحة للبناء ، وأولها التجربة العملية التي تمت بها مبايعة عبدالله بن أبي قحافة ، أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وانتخابه لمنصب الخلافة المنصب القيادي الأعلى. أما المثال الثاني، من حيث أهميته فهو ما أعلنه وطبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الأولى من هجرته إلى المدينة ، وأشرت إليه باسم **"دستورالمدينة"** ، الذي أظهر وشرع الاعتراف بالتعددية ووضع قواعد لتنظيم التواصل والتعاون الاجتماعي على أساسها ، فصار سابقة وسنة تتبع - باعتبار صدوره عن النبي صلى الله عليه وسلم ومشاركة الصحابة فيه عمليا، وتوظيف دلالة هذه السابقة السنية كلما كانت التعددية موجودة في واقع الحياة ؛ هاتان منارتان ما كان ينبغي أن يرخى عليهما ستار النسيان ، ولكن النسيان والتجاهل حدثا **!**

العقل الجمعي للأمـة:

وتفعيل العقل الجمعي للأمة وتطوير وتنظيم وتقنين طريقة عمله، لتتجسد فيه - أعني العقل الجمعي - السلطة العليا في المجتمع لتحسم الخلافات ، كما أننا بحاجة إلى الاستفادة من التجارب الكثيرة اللا محدودة العدد والتنوع التي خاضتها شعوب الأرض فضلا عن التجارب التي خاضتها شعوب عالم الإسلام خلال ما يقرب من ألف وخمسمئة سنة منذ تجربة الخلافة الراشدة، كما أننا بحاجة إلى كل الأدوات والآليات الحديثة، بما فيها الجمعيات العلمية والندوات والمؤتمرات والصحافة بتنوعاتها ، ومراكز الأبحاث المتخصصة) ، والمناظرات العامة وقياسات الرأي العام عن طريق المؤسسات الوطنية المستقلة ، والحوارات والاستفتاءات العامة، وحرية الرأي ، بجانب الاعتراف بالتعددية واحترام مخرجاتها ، على الصعيدين الوطني والدولي ، كل ذلك وغيره بجانب تقديم وتفعيل المبادئ

القرآنية الحاكمة ، وتأكيد سلطة البرلمانات (مجالس النواب) المنتخبة بحرية وشفافية.

تغير ظروف الزمان وأثره في التشريع:

ثم إننا بحاجة إلى أن ندرس الظروف والمواقف والأحوال التي صدرت فيها الأحاديث الصحيحة ، والأفعال النبوية ، ومدى التغيير الذي حدث في حياة مجتمعاتنا الحديثة وما إذا كانت الظروف التي استجدت تستوجب أي تعديل أو تغيير في التشريع ، على أن هذا التعديل والتغيير لا يعني الإقدام على تغيير شئ من المبادئ ، أو تحليل المحرمات أو تحريم الحلال ، أو إباحة ذلك. ويحضرني في هذا المقام شئ من نظرية سيد قطب رحمه الله ، مثالا توضيحيا عن أثر تغير الزمان والمكان.

لقد تحدث سيد قطب عن قيام مجتمع إسلامي جديد في القرن العشرين مستخلصا نظريته من الظروف الجغرافية والاجتماعية والبشرية التي سادت جزيرة العرب أوائل العصر الإسلامي ليطبق أحكامها على جميع الشعوب والمجتمعات البشرية في القرن العشرين ، وذلك عندما قال:

"وحين يؤمن الأنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكما). إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه.. إنه سينطلق بها... وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فإن هذه العقيدة تقول لهم: أنتم الآن مجتمع ، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ولا تسود فيه قيمها الأساسية ...
والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مئة ، والمئة يصبحون ألفا ، والألف يصبحون اثني عشر ألفا ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي" [212]. وعلاقة هذه الجزئية من نظرية قطب بالنقطة التي نتناولها في هذه الفقرة أن وصف سيد قطب لتدرج حالة ظهور مجتمع إسلامي مرت بمراحل عدة : أولها ظهور فرد واحد مؤمن، ثم ظهور ثلاثة مؤمنين، ثم ظهور مئة ، ثم ظهور ألف، ثم ظهور اثني عشر ألف وهنا يظهر المجتمع الإسلامي ! وهنا وجدت نفسي أتساءل : وما معنى وصوله إلى اثني عشر ألف وتوقفه عندها ؟ ثم تذكرت حديثا لرسول اللــه صلى الله عليه وسلم : " لا يغلب اثنا عشر ألف من قلة." ، غير أني توقفت وفكرت، ليس لشك في الحديث ولكن لتغير الزمان والمكان بين زمن النبي صلى الله عليه وسلم واالبيئة التي عاش وتحدث

---

[212] سيد قطب ، ***معالم في الطريق*** (القاهرة : مكتبة وهبة 1964 ، ص157 .

فيها والزمن والبيئة التي عاش فيها سيد قطب. الإعلان الذي تضمنه هذا الحديث كان صحيحا في ظروف جزيرة العرب بين سنتي 610 - 631 م (من بدء نبوته صلى الله عليه وسلم حتى وفاته) في صحراء قليلة السكان، ضئيلة الموارد مما جعلها لا تستطيع أو تتحمل إعالة عدد أكبر من السكان لتكوين جيش أكثر من اثني عشر ألف ؛ أما في عصرنا فإنك تجد كثيرا من الدول المتوسطة الحجم - سكانيا ومساحة - لها جيش يعد بمئات الآلوف، كما تجد دولا صغيرة يتكون جيشها من عشرات الألوف. غير أن دلالة هذه الحقيقة قديما وحديثا غابت عن فكر سيد قطب ، فوقع في الخطأ وهو يلقن جمهوره. وهذا مثال إيضاحي لتغير الزمان والمكان والبيئة ، وكيف يسهو بعض المفكرين والدارسين .

إستصحاب المبادئ القرآنية الحاكمة:

أما المبادئ القرآنية الحاكمة فإنها ترد متفرقة خلال امتداد النص القرآني وفي المواضع المناسبة، وقد ذكرتها وتعرضت لها في غير هذا الكتاب ، وليس في النية أن نستحضر ونحشد كل هذه النصوص مجتمعة تحت هذا العنوان ؛ بل نريد التركيز على عدد قليل ومحدد منها يشمل المبادئ الرئيسية التي تساعدنا في التأسيس لمرحلة نهضة جديدة ، كما تمكننا من تسليط الضوء على تموجات الفكر الإسلامي عبر القرون ، خاصة مع كل حالة نقف عندها لنحيطها بقدر أكثر من التأمل ينفذ بنظرتنا إلى منتهى هدفها:

أولا: الإيمان بوجود الله ووحدانيته:

من البديهي القول بأن الإسم ، اسم الله ، عندما يسمعه الإنسان الفرد المسلم لا بد أن يستدعي تصورا أو مفهوما يرتبط بالإسم تلقائيا ، كما هو الحال عندما نسمع واحدا من الأسماء الأخرى التي لا حصر لعددها ولا لحدودها وأنواعها، مادية أو معنوية ، طبيعية في أصلها وتكوينها أو طارئة ومبتدعة ، ومن أمثلة ذلك ، مما يسمع من أسماء الأشياء الأخرى :

رجل ، طفل ، جمل ، حصان، سيارة ، مظاهرة ، مؤتمر ، مصارعة، سباق ، صحة ، مرض ضحك، بكاء ، صراخ ، ألم ، شدة ، رخاء .. الخ؛ فكل

واحد من هذه الأسماء وأمثالها وغيرها يستدعي - فور سماعه - تصورا ماديا ممثلا للإسم يرتسم في عقل السامع وخياله ، إن كان للمسمى مكون مادي ؛ كما يستدعي مفهوما عقليا أو خياليا إن لم يكن له مكون مادي ، كلي أو جزئي ؛ ومصدر هذا التصور ياتي نتيجة لخبرات سابقة في حياة الفرد المستمع.

أما حين نتحدث عن الله تعالى فأن الامر مختلف تماما ، حيث نقرأ في النص القرآني أن الله ((**ليس كمثله شــئ وهو السميع البصير**[213].)) والقرآن يعرف الناس بالله في مواضع كثيرة ، لعل أوجزها تعريفا سورة الإخلاص : **"قل هو الله أحد ، ألله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد."** ، ثم التعريف المتضمن في آية الكرسي من سورة البقرة : **((الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض ، منذ الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السـماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم** [214]**.))** ، وقبل ذلك التعريف المتضمن في فاتحة الكتاب: **"الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين..." ثم أسماء** الله الحسنى التي ترد كثيرا وتزين النص القرآني وآياته عبر مئـة وأربع عشرة سورة ، من أوله.. من سورة الفاتحة إلى آخره ، حيث سورة الناس.

اللـــه - في عقيدة المسلمين - ليس مادة ، ولا هو في مادة ، ولا يوصف بأي شكل من الأشكال المادية. هو خالق كل مادة ، وخالق الكون وما فيه ، لا يمكن أن تستوعبه حاسة أي إنسان أو أحد من مخلوقاته . هل يستطيع أي إنسان ولد في الأرض ، أعني الكرة الأرضية، وعاش على ظهرها عشرات السنين وتنقل بين أقطارها، هل يستطيع - وهو يقف على الأرض - أن يستوعبها ببصرة ، أكثر من أن تمتد رؤيته بضعة كيلومترات على الأكثر ، والأرض كلها قطعة صغيرة من خلق الله الواسع ، فكيف يسمح إنسان

[213] ســورة الشورى / 11.
[214] ســورة البقرة / 255.

لنفسه أن يفكر في أن يدرك الله بحواسه ويستوعبه ، وهو لا يستطيع أن بستوعب الأرض التي يقف عليها وعاش على ظهرها **!** اللـه ((**ليس كمثله شئ وهو السميع البصير** [215].))

الله الواحد الأحد ، العلي الأعلى ، خالق الكون والحياة ، منه كل المبادئ، ((**هو الأول والآخر، والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم** [216].))، مع كل ما يعرفنا به القرآن من أسماء وصفات الله تعالى وخلقهِ .

لكل هذا ومعه نجد أنه عندما يذكر اسم الله سبحانه وتعالى أو يرد في خاطر المؤمن فإنه يرد محفوفا بالجلال والبهاء والعظمة والمهابة والحب والأمل والرجاء. ومن توابع هذا الإيمان وامتداداته ونتائجه إسلام المؤمن نفسه لله وحده إسلاما كليا لا شريك له فيه ، وله وحده ولاؤه وأخلاصه ، يتلقي منه الأمر والتوجيه ، ويتبعه بالتنفيذ المصحوب بالرضا والسعادة بالطاعة.

ثانيا :الإيمان بالقرآن الكريم كتاب الله:

باعتباره المصدر الأول للهداية والتوجيه، وهذا الإيمان مقترن ومرتبط بالإيمان بالله، وبإسلام النفس لله رب العالمين؛ وقد أشرنا لتونا إلى مبررات ومثبتات هذه الأولية ، وما نرانا بحاجة إلى المزيد من الشرح أو الإعادة : "القرآن فيه هدى للمتقين" و "القرآن يهدي للتي هي أقوم."

ثالثا : الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من البعث من الموت، والحساب والجزاء.

رابعا : **الإيمان برسل الله ومن بينهم محمد ، عليهم الصلاة والسلام جميعا.**

---

[215] سـورة الشـورى / 11.

[216] سـورة الحديد / 3 .

كيف نفهم الإيمـان بالـغيب ؟:

ويتردد في القرآن الكريم ذكر **الإيمان بالغيب،** وهذه صفة للإيمان المتعلق بهذه المبادئ الأربعة التي أبرزناها لتونا، **و**معنى الإيمان بالغيب وما يقابله ويميزه ويتميز عنه ، أي الإيمان بعالم الشهادة ، العالم المشهود ، والمحسوس، أن الإنسان يصل إلى حالة الإيمان بشئ معين أو فكرة معينة، من خلال طرق متنوعة : من خلال واحدة - أو أكثر - من الحواس الخمس : حيث يبدأ الفرد من مرحلة الطفولة ، بعد ولادته مباشرة، محاولاته للتعرف على الحقائق المادية من حوله ، باللمس والإبصار والذوق والشم والسمع. ومن خلال هذه الحواس تصل المعلومات مباشرة وتلقائيا إلى المخ ، الدماغ ، وتختزن فيه من غير أن يري الإنسان الصغير أو يدرك. وبناء على هذا المخزون التلقائي المتتابع والمتراكم من المعلومات يتصرف ؛ ثم تزداد التجارب وتتوسع وتتراكم المعلومات في الذاكرة وتتنوع ، فيرجع إليها عندما يواجه الحاجة إلى التعامل مع الخيارات العملية ، وهنا يأتي دور البحث والتفكير والاستنتاج للوصول إلى العلم والرأي والتصرف على ضوئه ، وذلك هو المصدر الثاني؛ وأخيرا يأتي الخبر ، مفردا أو متعددا. والأخبار لا تكون كلها صادقة أو في نفس المستوى من الدقة والأمانة ، ولذا فإن الخبر الذي يفيد العلم هو ذلك الذي يصل من مصدر موثوق ومأمون، ومن خلال قناة العقل وما تختزنه من الرصيد المعلوماتي التجريبي الضخم لتستخدمه في البحث والتفكير كلما دعت الحاجة إلى ذلك تلقائيا.

المصدر الغيبي:

ونحن نؤمن بالله سبحانه وتعالى من غير أن نراه ، كما نؤمن باليوم الآخر ، وبالبعث والحساب والجزاء يوم القيامة ، وهكذا يتبين أننا نؤمن بمفردات العقيدة الأساسية من خلال الخبر من المصدر الموثوق والمأمون ، ومن خلال استخدام عقولنا بالتفاعل مع مضامين الخبر، بجانب التحليل والاستنتاج مستندين إلى رصيدنا المعلوماتي المختزن ، **وذلك هو الإيمان بالغيب**. ولكن الإيمان بالغيب لم يكن دائما بالطريقة التي يقبلها الناس جميعا، ففي كل العصور وجد أناس يرفضون فكرة الإيمان بالغيب ، ويذكر القرآن أن أفرادا وجماعات قالوا ـ قبل ألف وأربعمئـة سنة، عند ظهور الإسلام : **((إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمعذبيـن))**، وآخرون كانوا يـقـولون : **((ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظـنون [217].))**

خامسا : مبدأ أن الولاء والإخلاص ينبغي أن يكون لله أولا وآخرا:

وهذا المبدأ ينطلق من نص الآيتين:((**قل إن صلاتي ونسكي ومحـيـاي ومـمـاتي للــه رب العالــمـيـن لا شــريك لـه، وبذلـك أمـرت وأنا أول المسلمين [218].))** و ((**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وازواجكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونـها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين [219].))** ففي نص هذه الآية الأخيرة جمع الله جل ثناؤه كل الأشياء التي اعتاد أكثر الناس على الارتباط بها ، وعلى حبها، رغم أنها يمكن أن تشدهم بعيدا عن طريق الله ، وعما يحبه الله ويرضاه، وبين أن على المؤمن الصادق أن يتخلى عن حبها كلما كانت متعارضة مع ما يأمر به الله. والله سبحانه يأمرنا من خلال أمره لرسـوله : ((**قل إن كنتم**

---

[217] سـورة الجاثية / 24.

[218] سـورة الأنعام / 162 - 163

[219] سـورة التوبة / 24.

تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم...[220])) أي باختيار طريق يتفق ويتواءم مع ما شرعه الله ، كما أنه يصف المؤمنين بقوله: **((والذين آمنوا أشد حبا لله [221]))**

سادسا : مبدأ وحدة الإنسانية :

لقد أعلمنا الله سبحانه ، من خلال كتابه الكريم، بأنه خلق آدم ، الإنسان الأول، واصطفاه (أي اختاره من بين المخلوقات الاخرى) وأعده لكي يكون خليفة في الأرض، أي مكلفا وموكلا من قبل الله بقيادة الحياة فيها ليعمرها حسب المنهاج الذي اختاره الله لعباده وأمرهم باتباعه ، أي ليقود ونسله من الأجيال المتعاقبة الحياة فيها ويعمرها ، على ضوء هداية الله وإرشاده. وقد زوده بالعقل ، وعلمه الله الأسماء كلها وما يشتق منها من صيغ الأفعال وغيرها ، أي علمه اللغة والكلام بجانب العقل، إعدادا له للقيام بذلك الدور :**((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة [222]))** ، ليقود الحياة في الأرض، بدلا من تلك المخلوقات التي سبق وجودها خلق آدم مفتقرة إلى العقل الإنساني ، أو ما يشبهه ، ولم تكن قادرة أو مؤهلة - لافتقارها للعقل والعلم - على للقيام بالدور الذي أراده الله للإنسان : **((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقو الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا [223]))**

وما دام البشر قد خلقوا كلهم من نفس واحدة، وما داموا قد خلقوا من ذكر وأنثى، زوجين اثنين هما نفسيهما ، تناسل منهما الجنس البشري كله ، فإن هذه الحقيقة تؤكد أن لا مبرر لأن يتعالى بعضهم على بعض بسبب اختلاف الأصل أو اللون ، وادعاء بعضهم أن أصله أفضل من أصل الآخر. ثم تأتي

---

[220] سـورة أل عمران / 31.

[221] سورة البقرة / 165.

[222] سـورة البقرة / 30.

[223] سـورة النساء / 1.

الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات : ((**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير[224].))** لتبين المـقيـاس الوحيد الذي يميز فردا عن آخر ، ويؤكد أفضليته، ألا وهو: تقوى الله مقترنة بالعمل الصالح ، أي الحرص على التزام ما يأمر به من قواعد السلوك الطيبة، والتعامل بين الناس على أساس المساواة والعدل ، واحترام حقوق الضعيف والقوي، والقريب والغريب سواء، كما بين الله في كتابه، وبين رسوله في ممارساته وتوجيهه، والابتعاد عن كل ما يغضب الله .

سابعا : مبدأ حرية الإنسان:

يتناول النص القرآني موضوع حرية الإنسان في عدد كبير من الآيات، نذكرأمثلة منها فيما يلي :

"وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..)) [الكهف/29]

((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم .))،

((ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! .))

((فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر.))

وهذه النصوص القرآنية ، بجانب نصوص أخرى كثيرة تماثلها في المضمون، تبين كلها أن الله جل شأنه أخبرنا بأنه هو **" الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا))** أي ليختبرنا فيها ، وهذا الاختبار، قام ويقوم على مبدأ حرية الفرد في الاختيار:((**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر...**)) و ((**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر**

[224] سـورة الحجرات / 13.

بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم.)) وغيرها مما يماثلها في المعنى ، وما يترتب على حرية الاختيار من المسئولية : طاعة الله باتباع سبيل الرشد ، من غير إكراه ، ثم يتبعها رضا الله ومثوبته ؛ أو اتباع الغي من غير إكراه ، واستجلاب سخطه ، وما يتبع ذلك من عقاب ؛ فالحرية والمسئولية قرينتان مرتبطتان لا انفصام بينهما.

إن الإجبار على إعلان الإيمان قهرا لا ينتج سوى حالة من الكذب والنفاق لم يختلقها المكره - بفتح الراء - بل صنعها وأختلقها ويتحمل وزرها من أجبره وأكرهه بالقوة العمياء ؛ ولهذا نهى الله عن ذلك بوضوح تام. الله ليس بحاجة إلى أحد من خلقه ، ولا يملك أحد من الناس أن يقدم له نفعا ولا أن يصيبه بضرر. والله يخبرنا أن المنافقين **في الدرك الأسفل من النار**، أي أنهم الأشد عذابا ؛ والإكراه لا ينتج إلا النفاق مصحوبا بالكره والحقد.

وهذا لا ينفي إمكان ظهور منافقين من غير أن يتعرضوا للإكراه ، وهذا الصنف يمكن أن تكون ممارستهم للنفاق من اجل الحصول على بعض المنافع ، أو تجنب بعض الضرر الذي يمكن أن يصيبهم - في تجارتهم أو في علاقتهم مع فريق ثالث ، وقد ظهر مثل هذا النفاق في العهد النبوي. أما في الأجيال الإسلامية اللاحقة ، فقد ظهرت أمثلة متعددة من النفاق بسبب ممارسات كانت تنبثق من الجهل أو الإسراف أحيانا. ومن أجل هذا فقد استنكر الخطاب الإلهي القرآني **"الإكراه في الدين"** ، المؤدي إلى هذه النتائج السلبية الشديدة الخطورة ، ومع ذلك وجد من المؤلفين من زعم أن الآية منسوخة[225].

غير أن كل هذا التوجيه والإيضاح القرآني لم يمنع كثيرين من الفقـهاء - بما فيهم محمد بن القيم - من إطلاق مقولة مناقضة : قال ابن القيم: إن النبي صلى الله عليه وسلم " أمر أن يقاتل الناس حتى يدخلوا في الإسلام ويلتزموا

---

225 انظر ص فيما سبق من هذا الكتاب.

طاعة الله ورسوله ، ولم يؤمر أن ينقب عن قلوبهم ولا أن يشق بطونهم ، بل يجري عليهم أحكام الله في الدنيا إذا دخلوا في دينه، ويجري [الله] عليهم أحكامه في الآخرة على [ما كان في] قلوبهم ونياتهم ؛ فأحكام الدنيا على الإسلام ، وأحكام الآخرة على الإيمان . ولهذا قبل إسلام الأعراب ، ونفى عنهم أن يكونوا مؤمنين ، وأخبر أنه لا ينفعهم يوم القيامة شيئا ، وأنهم **في الدرك الأسفل من النار**؛ فأحكام الرب جارية على ما يظهر للعباد ، ما لم يقم دليل على أن ما أظهروه خلاف ما أبطنوه[226]،

هذا فهم ابن القيم نتيجة اجتهاده شخصيا لكنه لا يستطيع ، وليس له أو لأصحابه ومتبعيه الحق بفرضه على غيرهم من المسلمين ، في حياته أو بعد مماته، ومن اجتهد مخلصا لله أثابه الله خيرا حتى لو أخطأ ، وضاعف له الثواب إن أصاب. لقد أخطأ ابن القيم خطأ فادحا عندما تجاهل قول الله تعالى : ((**لا أكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...**)) وآيات أخرى كثيرة تحمل نفس معناها بوضوح تام؛ أما ما استشهد به في شأن ما ذكر عن الأعراب في سورة الحجرات : ((**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم** [227].)) فليس فيه تأييد لما زعمه ؛ لقد ادعى الأعراب أنهم آمنوا ، فنفى القرآن ادعاءهم وصحح لهم وأرشدهم أن يقولوا أسلمنا ، لأنهم في حقيقة ذلك الموقف استسلموا للقوة الإسلامية القتالية ، والاستسلام غير الإيمان الاختياري الصادق ، وليس في قول ابن القيم هنا ما يؤيد استنتاجه ؛ ثم إن ابن القيم أخطأ أيضا في تعميم وإطلاق حكمه على الأعراب بصفة شاملة ، ولم يساير ويتبع النص القرآني المتعلق بهم إلى آخره ، وإلا لتجنب الخطأ : فنص آية الحجرات "... **قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم...**" انطوى على معنى ضمني باحتمال أنهم سائرون في الطريق إلى الإيمان ، وإن لم يصلوا إليه بعد؛ ولذا جاءت

[226] محمد بن القيم ، ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، ص 687.

[227] سورة الحجرات / 14.

عبارات التشجيع تابعة في نفس الآية : "... وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم" ، خاصة مع استعمال كلمة "ولما" التي تعني ضمنيا أنهم سائرون إلى هدف لم يصلوه بعد وأنهم ربما اقتربوا منه. كذلك فإن انسياق ابن القيم في الحديث عن "السيئ" من سلوك الأعراب ، استدعى إلى خطابه نصوص آيات أخرى اجتذبها من سورة التوبة، والأحزاب ، والفتح لا صلة لها بالموضوع الذي تحدث عنه، ولذلك غلبت السلبية والتعميم على حكمه بينما نص سورة التوبة تكلم عن مجموعات متنوعة من الأعراب ، وميز إحداها بالمدح والتقدير والثناء : **((ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم [228].))**

ثامنـا : مـبدأ احترام دور العقل والاسترشاد به :

العقل هو المميز الأهم للإنسان عن جميع أنواع الكائنات الحية دون استثناء، وهو مستـنـد وأساس التكليف والمسئولية الشرعية والقانونية والاجتماعية؛ والطفل الذي لم يكتمل بناؤه العقلي قبل البلوغ، والإنسان الذي يفقد قواه العقلية تسقط عنه كل أنواع التكاليف والمسئولية ، بل ويحجر عليه ويمنع من التصرف بأمواله وممتلكاته بالنسبة للشخص البالغ الفاقد لقواه العقلية. ثم إن بعض من يعاقرون الخمر وتقع منهم الجرائم يلجأون إلى الادعاء، أو يلجأ محاموهم إلى الادعاء بأنهم كانوا في حالة السكر والثمالة عندما مارسوا الفعل الإجرامي ، وذلك سعيا للحصول على إلغاء التجريم أو تخفيف العقوبة.

والإنسان الذي لا يستخدم عقله ويعتمد على الإشاعات، والأقاويل الخاطئة أوالمضلله يكون قد عطل عقله، فيقع في مشاكل لا نهاية لها، لأنه وضع نفسه في مستوى الأطفال أو في مستوى المجانين والسكارى باختياره. والله جل ثناؤه يأمرنا أن نطالب من يحاول أن يقنعنا بخبر أو معلومة مهمة أن يقدم لنا البرهان والدليل : **((يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن**

[228] سورة التوبة / 99 .

تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [229].)) ، **((قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين [230].))** ، وينهانا عن أن نبني أحكامنا على مجرد الظن، لأن بعض الظن إثم ، غير صحيح ومضلل: **((يا أيها الذين آمنوا اجتنبو كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم [231]...))** ***بعض الظن، وليس كل الظن.***

والعقل هو أداة الإنسان في السيطرة على العالم المادي في كوكب الأرض إلى حد كبير. ولذا فإننا نجد أن الله تعالى ينوه بالعقل واستخدام العقل في كثير من آيات كتابه ، في مقاطع لغوية متشابهة في لفظها أومعناها ، أو بنفس الفكرة التي تحملها جملة ، أو في سياق لغوي من مثل : يعقلون يتفكرون ، تتفكرون ، لأولي النهى، ولأولي الألباب ، وأمثال ذلك..

- **((إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون [232].))**

-**((إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون [233].))**

- **((كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته [234].))** ، والتدبر هو تشغيل وتحريك العقل لفهم المعنى المتضمن فيما نقرأ أونشاهد أو نواجه.

- **((إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [235].))**

إذن ، الله جل ثناؤه يحثنا ويدعونا أن نفكر ونتدبر ونتعمق في دراسة كل هذه الأشياء التي ذكرها لنكتشف أمثلة من مدى قدرته وعظمته ، كلما تعمقنا

[229] سورة الحجرات / 6 .
[230] سورة البقرة / 111.
[231] سورة الحجرات / 12.
[232] سـورة يوسـف / 2.
[233] سـورة الزخرف / 3.
[234] سورة ص / 29
[235] سـورة البقرة / 164.

أوحاولنا التعمق في فهمها ؛ وهذا الفهم لا بد أن يقودنا إلى توظيف هذه المعرفة في تعاملنا مع مظاهر ومكونات الطبيعة من حولنا، وفي سعينا لعمارة الأرض التي أنشأنا الله منها واستعمرنا فيها ، لكي نعمرها ، ثم لمواجهة المواقف والمشكلات الحياتية والمجتمعية التي يختلف الناس بشأنها في حالات كثيرة : ((... **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** [236]**..))**

ومن المؤسف والمحزن أن كثيرين من **"فقهائنا"** قد شغلوا أنفسهم بالجدال حول مصير الأجيال المتلاحقة من الناس بعد موتهم مباشرة ، وهم في قبورهم ، وما إذا كان الأموات يعانون العذاب، أو ينعمون بالهناء والحبور وهم في القبور، قبل أن يحين يوم الحساب ، ومن قبل أن تقام الموازين القسط ليوم القيامة ، حتى لا يقع ظلم على أحد، ((**يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** [237].)) ، كما أخبرنا تعالى في كتابه الكريم. وبينما ينشغلون بهذه القضايا وأمثالها ينادون باستبعاد دور العقل والاعتماد على التقليد والنقل عن أسلافهم الذين نسبوا لهم قداسة وتنزيها عن الخطأ ، بينما الرسول صلى الله عليه وسلم قال لنا : "كل الناس خطاءون، وخير الخطائين التوابون."

- **((وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** [238].))

- **((ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون.))** سورة البقرة/179

- **((إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب))** [سورة آل عمران /190]

---

[236] سورة هـود / 61 .

[237] ســورة النحل / 111.

[238] ســورة البقرة / 170 .

- ((قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا بالله شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون.)) [الأنعام/151]

- ((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.)) سورة/21

- ((إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون .))[239] - ((إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [240].))

"وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكـل [بضم الهمزة والكاف] إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون [241]." ، ونص هذه الآية الذي يذكر بآيات صنع الله المبهر، وتنوع الشجر والنبات الذي ينمو في أرض واحدة ، ويروى بماء واحد ، وإنزالها ، أي الآية ومثيلاتها ، لقوم يعقلون ، يفيد بأن العقل كان موجودا قبل نزول الوحي بهذا النص وكان مهيئا للتلقي والفهم لمن أراد أن يفهم ، وأن النص نزل للإنسان وحيا على هذا الأساس، وجود العقل الفاعل ، غير المهمش والمعطل ، ليفهم الإنسان بعقله ما يحمله القرآن، ويعمل بموجبه. وانظر أمثلة أخرى في : الشعراء /195 ، الزمر /28 ، يوسف / 12 ، الزخرف/3 ، فصلت/ 3 ، وغيرها.

---

239 سـورة / الجاثيـة / 5 .
240 سـورة الجاثية / 13 .
241 سـورة الرعد / 4.

((أم خلقوا من غير شيئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ؟ [242]**))** ومن الواضح أن نَّص هذه الآية إنما هو حوار يخاطب العقل. وأمثال هذه الحوارات تشغل مساحة واسعة من النص القرآني.

غير أن أفرادا وجماعات من السلفيين نصبوا أنفسهم لمحاربة استخدام العقل والاستفادة مما يرشد إليه ، وهم كثر. ومثال من ذلك نجده فيما كتبه السيد عبدالسلام البسيوني في مؤلفه ***العقلانية هداية أم غواية ،*** فمن بداية مقدمته لكتابه ، بعد السطر الأول ، سطر الافتتاح بالحمدلة وتوابعها ، يبدأ الأستاذ البسيوني بسيل من الشتائم وعبارات التحقير لمن يخالفهم بقوله:

" من الحيل التي يمارسها الغشاشون من الباعة - للمزايدة في بضاعتهم التافهة ورفع قيمتها - النجش الذي تمارسه عصابة يتواطؤون على إغلاء السعر أمام شار راغب ليغروه بدفع أعلى سعر... وهي حيلة خسيسة حرمتها السنة المشرفة ، وضرب عليها الفقهاء ، ولا يمارسها - فيما نعلم - إلا لاعبو الثلاث ورقات ومن في مستواهم.

... وآخرة هذه التلفيقات : الدعوة إلى الإسلام العقلاني ؛ وهي أحبولة مزوقة جميلة لا يملك ساذج إلا أن يقبل بها ... لأن الإسلام نص في كتابه العظيم - في عشرات من الآيات - على وجوب التفكر والتدبرواستخدام العقل ... لكن المسترخصين في سوق الأفكار كثيرا ما لا ينتبهون إلى أن العقلنة لا تعني ما يتبادر إلى ذهن السامع لأول وهلة ، ***بل تعني أن يحل العقل محل النص*** وأن يقوم هوى الإنسان مقام هدي الرحمن ..."[243] انتهى الاقتباس من السيد البسيوني.

والأستاذ البسيوني تعرض في كتابه لكثير من الموضوعات وأثار كثيرا من القضايا وأطلق كثيرا من الشعارات والمقولات ، سوف أتناول منها نقطة واحدة وأترك ما عداها لأنني ربما أكون قد تناولتها في بعض كتبي السابقة ولا أرى حاجة لطرقها مجددا. والموضوع الذي سأتناوله هنا يتركز في قول السيد البسيوني: **"أن يحل العقل محل النص."**

---

[242] سورة الطور / 35 - 36.

[243] عبدالسلام البسيوني، ***العقلانية هداية أم غواية*** (المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1992) ص 9 - 10 .

العقل هو المميز الأهم الذي ميز ويميز الإنسان عن كل ما عداه من مخلوقات الله في عالمنا ، وهو الذي أهل الإنسان لأن يكون خليفة في الأرض ، كما أراد الله تعالى شأنه ؛ والعقل هو الأداة التي يملكها الإنسان ويوظفها لاختيار طريقه وقراره ومساره ؛ **أما النص** فهو كلام قديم موروث ومكتوب بلغة محددة معروفة ومتفق على معانيها. والنص الديني الإسلامي مصدره من القرآن أو من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أو من المسلمين الأفراد السابقين. ومن غير إفراط في التحليل أقول: إن قصد السيد البسيوني ورفضه يتمحور حول "ما يصل إليه باحث مسلم من خلال استخدامه عقله وقدرته التفكيرية ليجعل ما يصل إليه منطلق عمله ودعوته غيره لذلك.
ومعنى هذا إحلال نتاج عقله مصوغا في نص لغوي ليحل محل نص ديني سابق ، معروف ومتبنى من قبل : قرآني أو حديثي أو سلفي.

كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ومن يفعله ؟ ولماذا ؟

إن الأكثر احتمالا أن يحدث هذا :

(1) بالنسبة لأقوال وكتابات السلف،

(2) بالنسبة للحديث النبوي

(3) بالنسبة للنص القرآني ، من خلال ادعاء النسخ ، أو من خلال التفسير المشوب بالتزوير. لقد تناولت كل هذه الموضوعات فيما سبق من صفحات هذا الكتاب ، خاصة تحت عنوان : **العبث بمصادر الفكر الإسلامي** [244]، وكذلك في بعض كتبي التي نشرت من قبل، ومن غيرالممكن أو المستساغ أن أعيد ذلك هنا. وبما أن الحديث النبوي عامة كان الأكثر استهدافا فسوف أستدعي حديثا واحدا أضعه تحت الضوء لإنهاء هذه المناقشة، وقد ورد الحديث في أربع صيغ:

---

[244] أنظر ص 30 - 63 فيما سبق من هذا الكتاب.

" حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة عن ... عن أنس أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى تقوم الساعة ؟ وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة."

أما الصيغة الثانية فعن حجاج بن الشاعر ... عن أنس بن مالك ، والاختلاف بين النصين يتعلق بالغلام ، ففي هذا الصيغة الثانية نعت الغلام بأنه من أزد شنوءة وليس من الأنصار.

أما الصيغة الثالثة فقد رويت عن هارون بن عبدالله ... عن أنس قال : مر غلام للمغيرة ابن شعبة ، وكان من أقراني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن يؤخر هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة .

أما الصيغة الرابعة، فمروية عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حيث نسب إليها القول بأن الذين سألوا الرسول كانوا من الأعراب ، وأن الغلام نفسه أيضا كان من الأعراب."

إذا صار لدينا حديث ورد من أربع طرق ، ثلاث منها نسب مبدأ نقلها إلى أنس بن مالك رضي الله عنه ، بينما وصل النص الرابع منسوبا إلى عائشة ، وذلك حسب ادعاء المزورين. وموضوع الحديث واحد: موعد قيام الساعة، والاختلاف ينحصر في نسبة ووصف الغلام فقط : من الأنصار ، أو من أزد شنوءة أو للمغيرة بن شعبة ، أو من الأعراب. لذا فإني أعتبره حديثا واحدا . هل كان المزور شخصا واحدا أو أربعة أشخاص؟ ذلك ما لا أستطيع تأكيده؛ أما الذي أستطيع تأكيده الآن فهو أن الحديث مزور بكل صيغه الأربع، وهاكم أدلة التزوير :

1) : الغلام (سواء كان من الأنصار أو من غيرهم) كان من أتراب أنس، أي من نفس سنه. وقد توفي أنس سنة 93 هجرية ، ولا بد أن يكون الغلام قد توفي قريبا من وقت وفاة أنس ، ومضت بعد ذلك ألف وأربعمئة

سنة والساعة لم تقم. إذا هذا النبأ لم يكن صحيحا ولم يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2) : هل يعقل ، وهل يمكن الادعاء بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد تاريخ قيام الساعة وهو لا يعرف عنه شيئا، وادعى أنه يعرف، ليتبين فيما بعد أن ما حكاه لم يكن صحيحا ؟ مع أنه صلى الله عليه وسلم تلقى من الله تعالى أمرا واضحا بأن ينفي عن نفسه العلم بوقتها:((**يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند ربي ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** [245] .)) ونقرأ في آية أخرى : ((**قل إنما علمها عند الله.**[246]..)) .

لقد استعنت بالعقل فبين العقل أن النص مزور فنحينا المزور عن الصحيح وضممناه للأحاديث المزورة التي من جنسه. لقد أحللت قرار العقل محل النص المزور، والأستاذ عبدالسلام البسيوني وأمثاله يغضبون لذلك، ويعتبرون أن ما فعلته جريمة في حق السنة النبوية : إحلال العقل محل النص ، ولكن محل أي نص؟ محل المزور. وكان مما تحدى به السيد البسيوني من يوظفون عقولهم ، قوله: **"عقل من ؟ "** ومثل هذا السؤال طرحه آخرون ، ومنهم الدكتورمصطفى السباعي رحمه الله رحمة واسعة ، في كتابه : ***السنة ومكانتها.*** إن هذا السؤال يستدعي فكرة "كثرة العقول" وتعدد مستوياتها واختلافاتها.

دعنا نلقي الضوء على حقيقة أن العقل له ثلاثة مستويات : المستوى الفردي والمستوى التعددي والمستوى الجمعي. ويمكن توظيف العقل في كل من هذه المستويات ، على أن يكون المستوى الجمعي هو الحكم النهائي، وهذا ما ينبغي أن يكون.

---

[245] سـورة الأعراف / 187

[246] ســورة الأحزاب / 63.

ولا مراء في أن "العقل الجمعي" فكرة غير معروفة ولا مرحبا بها في المجتمعات التي خضعت للاستبداد والطغيان الفردي وألفت ذلك قرونا وأحقابا طويلة ؛ وفي أجوائها وتاريخها ثبتت وتأصلت فكرة الخضوع المطلق للطغاة الأفراد. وكنت قد نوهت بالشخصية الجمعية للأمة ، مقابل الشخصية الفردية لكل من أفرادها[247] ؛ ومن خلال الشخصية الجمعية يظهر العقل الجمعي والرأي الجمعي والموقف الجمعي. ومع ذلك فإنني لم أصادف - في كل ما قرأت - أي حديث أو اعتراف بوجود العقل الجمعي ؛ لكن عدم ذكره لا ينفي وجوده ، بل يشير إلى إهماله أو الجهل به وبأهميته . والحقيقة أن الشعوب المتقدمة في عصرنا لم تستطع التقدم إلا بعد أن اعترفت بأهمية العقل الجمعي وأهمية توظيفه. ومن خلال هذه المعرفة فتحت له كل الأبواب، واستخدمته على أوسع نطاق ، فكان الرافعة الأهم في سعيها لتحقيق تقدمها. ومن خلال الاستخدام، والتجربة والخطأ وتصويب الخطأ ، زاد وتضاعف تمسكها ب "العقل الجمعي" واعتمادها عليه حتى صار عندها من المقدسات ، بل أهم من كل مقدساتها السابقة.

وعندما نعترف بأهمية العقل الجمعي وتوظيفه عمليا فإننا نقيم اعترافنا على أصل إسلامي وسابقة إسلامية لا على فكرة مستعارة أو مستوردة من الخارج أو مقلدة. والأصل الإسلامي هو "بيعة أبي بكر" الصديق رضي الله عنه في السنة الحادية عشرة للهجرة. وكما ذكرت من قبل ، فإن بيعة أبي بكر لم تنطلق من فراغ ، وإنما انطلقت من مجمل المبادئ التي حملها لنا القرآن ، ومن الإرشاد النبوي المتابع للوحي القرآني [248]. وحتى لا يظل العقل الجمعي مجرد شعار ينبغي أن تنظم عملية تفعيله من خلال الدستور والقوانين والأحزاب والحركات السياسية، وفي كل ذلك يستفاد من تجارب الأمم التي سبقتنا في هذا الميدان وكل ما تنتجه مراكز الأبحاث الوطنية، وكل ما أنتجه العلم من تقنيات وأجهزة حديثة لايتوقف تطورها ومفاجآتها.

---

247 عـبدالله أبو عـزة ، ***إنهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض*** (عمان : الأردن ، 2012) ، ص 32 - 35 .

248 أنظر ص فيما سبق من هذااللكتاب.

تـاسـعـا : مبدأ وحدة الرسالة :.

ألبيان والتوجيه القرآني يؤكد أن رسالة الله التي حملها جميع الأنبياء للبشرية رسالة واحدة. ومن البديهي أن وحدتها تتجلى في إطارها العام ومبادئها الكلية، والمفردات الأساسية في مكوناتها العقيدية وليس في كل تفاصيلها ، لأن كثيرا من الحالات التفصيلية ترتبط بظروف الزمان والمكان. وتتأكد هذه الوحدة ، وحدة الرسالة، بقول الله تعالى :

((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه [249]...)) وهناك آيات أخرى كثيرة تحمل نفس التوجيه ، كاملا أو مجزءا.

وفي هذا الإطار يمكن أن يلتقي ويتكامل مع هذا المبدإ مبدأ أخر، بل أكثر من مبدإ واحد : مبدأ الأصل الواحد الذي يجمع الجنس البشري كله دون استثناء ، ومعه مبدأ سلمية الدعوة والتبليغ وعلاقة أتباع الأديان السماوية بعضهم بالبعض الآخر وموقف الإسلام والمسلمين من هذه العلاقة في الماضي والحاضر والمسقبل وما مدى حرية المتدينين الممارسين في الدعوة لدينهم، أو محاولة نشره ، والضوابط التي يمكن تحديدها وإعلانها وتفعيلها حتى لا يفتح النشاط الديني والتنافس من أجل كسب عقول وقلوب وولاءات مؤمنين جدد، صراعات قد تجر المشاركين فيها للحرب المكشوفة. وقد وردت أمثلة من هذه الضوابط في أكثر من آية في القرآن:

((وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة [250]...))

((قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد

---

[249] سـورة الشـورى / 13.

[250] سـورة البقرة / 83.

اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شــقاق فســيكفيكهم الله وهــو الســميع العليم [251].)) ومعنى الآية أن الله يوجه المسلمين إلى هذا السلوك ليمارسوه قولا وعملا ، بغض النظر عما إذا كان الآخرون سيتجاوبون معهم؛ ويطمئن الله المؤمنين ويشجعهم على اختيار الموقف والعلاقة السلمية الأخوية ، ويعدهم بأنه يضمن لهم الحماية في حالة إذا ما اختار مخالفوهم طريق التباعد والخصومة: **فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ."**

، **((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي إنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلاهكم واحد** [هو نفسه] **ونحن له مسلمون [252].))** والتوجيه في هذه الآية استمرار لمضامين الآيات السابقة.

ومع ذلك تبقى الاختلافات بين الأحوال الخاصة لكل جماعة أو أمة، ولكل عصر ولكل بيئة جغرافية واجتماعية ؛ ولذا يختلف التشريع في الفروع وما يتعلق ببعض الخصوصيات البيئية في حياة الأمم.

وهذه الوحدة في المبادئ والأساسيات تؤكد معاني القرابة والأخوة بين الأمم والشعوب ، كما تؤكد وتشجع على التعايش السلمي والتعاون في إطار المبادئ الإنسانية المشتركة التي تقبل وتعلن أطراف متعددة تبنيها.

رسالة الله سبحانه وتعالى إلى البشرية واحدة في مبادئها ومنطلقاتها الأساسية، وهي مستمرة عبر الأجيال والقرون ؛ ولقد خاطب الله سبحانه الناس ـ النوع الإنساني كله ـ من خلال رسل اختارهم لحمل الرسالة ومتابعة تبليغها ، وليقودوا الجماعات البشرية بتوجيههم عن قرب. وقد كان اختيار الله الرسل واصطفاؤهم من بين أفراد الجماعات التي تلقت الدعوة ليخاطبوا الناس بلغاتهم التي يعرفونها ويفهمونها ، كل جماعة بلغتها: **((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم [253]...))** ، ومن بين هؤلاء الرســل كان

---

[251] ســورة / البقرة / 137 .

[252] ســورة العنكبوت / 46.

[253] ســورة إبراهيم / 4.

محمد صلى الله عليه وسلم، آخر من تلقى الرسالة. ومع الحديث عن رسالة محمد يخبرنا القرآن أن الله : بعث رسولا الى كل أمة [254]، وذلك في قوله: **((وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** [255].))" وقد عاش كل نبي بين قومه ومعهم يعلمهم ويرشدهم ويوجههم بحديثه وفعله وتصرفاته وسلوكه وأحكامه مقدما أمثلة تطبيقية وعملية لمضمون الرسالة التي كلف بحملها وتبليغها ونشرها ، وكل ذلك من خلال مبادئ رئيسية عامة حاكمة.

[254] أي جماعة بشرية متميزة بذاتها ، وليست أمة حسب مفهومنا المعاصر لمدلول الكلمة.

[255] ســورة فاطر / 24.

الفصل الـعـاشــر

مبدأ السلام وسلمية الدعوة والاختلاف[256]

الفضاء الإعلامي في هذه الأيام (2015م.) زاخر بالحديث عن الإسلام المتطرف الإرهابي، الجهادي ، بينما يتواصل نزيف الدماء في أماكن وفي ظروف يصعب وصفها ، كما تضعف الآمال في تغير الأحوال ووقف النزيف واستعادة بعض الطمأنينة ، بل الحد الأدنى المحتمل لحياة عدد كبير من الشعوب والمجتمعات الإسلامية.
وتتشعب الاتهامات في كل الاتجاهات لتحديد الأسباب والمسببين والضحايا والظالمين والمظلومين ، غير أن الواقع اليومي الذي يملأ الأسماع والأبصار يعكس حقيقة ظاهرة لا يملك أحد نفيها وهي أن النسبة الكبرى من الدماء المهراقة هي دماء الشعوب الإسلامية. كل هذا بينما الجذر اللغوي الذي يشتق منه اسم الإسلام (س ل م) هو نفسه الذي تشتق منه كلمة السلام كذلك، ويعلن كثيرون من المسلمين أن دينهم دين السلام ، لم ينتشر إلا بالدعوة السلمية. ومع ذلك فإن الاسلام يظل متهما عند كثيرين ؛ فهل التهمة صحيحة أم أن الإسلام برئ منها؟ المشكلة شديدة التعقيد ، ولكي تتضح حقائقها يلزم، أن تخضع كل مكوناتها لتحليل دقيق وأمين وموضوعي.

وحتى نبدأ بداية صحيحة يلزمنا أن نعود إلى الأصل الأول للإسلام ، وهو القرآن ؛ في القرآن نجد أن لفظة: "السلام" إسم من أسماء الله الحسنى : **((هو الله الذي لا إلاه إلا هو الملك القدوس الســـــــــلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون [257].))** فالله هو السلام ؛ أما المشتقات الفعلية من الجذر (س ل م) مباشرة فهي : "أسلم"، "أسلمت" ، أسلمتم، يسلم ، تسلمون ... الخ. وفي عدد من النصوص القرآنية نجد الصيغة تحمل معنى الاستسلام: **" بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه** [258]..." ، **" إذ قال له ربه أسلم قال أســـلمت لله رب**

---

[256] لـقد ميزت هذا الموضوع بفصل مستقل نظرا لأهميته في العصر الذي نعيشه الآن.

[257] ســـورة الحشــر / 23.

[258] ســـورة البقرة / 112

العالمين [259]." ، " فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن [260]..." ، " وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين [261]."

وقد أدرك المعنى العام لهذه الآيات أكاديمي وأستاذ أميركي عندما درس الإسلام طويلا ، وبعمق تطلب منه جلدا وجهدا وجهادا ، وألف كتابا يشير إلى ذلك ، جعل له عنوانا طريفا : (يجاهد من أجل أن يستسلم : ***Struggling to Surrender***)، وهو بروفسور **جفري لانغ** ، وقد ذكر في كتابه باختصار قصة جهاده الطويل تأملا وفكرا وبحثا، عبر مروره بالإلحاد ثم بالشيوعية إلى أن اعتنق الإسلام أخيرا ؛ ولم يكن قراره الأخير استسلاما لأية قوة أرضية ، بل لله سبحانه، إله السلام ، عبر الجهاد العقلي الذي قاده إلى الإيمان الحقيقي والعميق.

وفي آية أخرى نجد الإسلام، الاستسلام ، يختص بمعنى دقيق ومحدد ومميز عن المعنى العام الذي أظهرته الآيات السابقة : **" قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفوررحيم** [262]) ، والإسلام في هذه الآية بالذات يعني الاستسلام للقوة القتالية.

وقد خاطب الله جل شأنه الإنسان ، الجنس البشري كله ، مبينا المبدأ الذي تنطلق منه وترتكز عليه العلاقات فيما بينهم ، وهو مبدأ المســـاواة العام الذي يجمعهم بكل أطيافهم ، وذلك في قوله : ((**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** [263].)) ويلاحظ أن أول ما أشار إليه خطاب الآية هو حالة الذكورة والأنوثة التي تجعل فردين من التناس مختلفين، لكن الخطاب الإلاهي نفى أن يكون هذا الخلاف في خلقة شخصين مبررا أو سببا لتفضيل أحدهما على الآخر ، كما نفى أن يكون الانتماء إلى شعب أو قبيلة سببا للتفاضل والتعالي بين البشــر ؛ ثم انتقل الخطاب القرآني إلى توضيح وبيان السبب الشرعي الوحيد الذي ينبني عليه التفضيل والمفاضلة ، وهو التقوى ، الإنسان الأكثر تقوى هو الفضل عند الله ، سواء كان أنثى أو ذكر ، وسواء انتمى أو تفرع من هذا الشعب أو تلك القبيلة أو غيرها.

---

[259] ســورة البقرة / 131.

[260] ســورة آل عمران / 20.

[261] ســورة النمل / 44 .

[262] ســورة الحجرات / 14.

[263] ســورة الحجرا ت / 13 .

والتقـوى تعني التزام الانسان الفرد بطاعة الله ورسوله ، وبهذا الالتزام يقي نفسه من غضب الله ، وتتحقق له التقوى ، أي الوقاية الوقاية .

وكلمة السلام وعبارت السلام شائعة ومنتشرة في الحياة اليومية للفرد المسلم والمجموعات المسلمة من الممارسين: تحية التقابل واللقاء ، وتحية الافتراق والوداع، والتحية في الصلاة، في الجلوس بعد كل ركعتين ، وفي الجلوس الأخير، وعند انتهاء الركعات والخروج من صلوات الفرض والسنة، وتحية المؤمنين في الآخرة يوم لقاء الله **سلام** ((**تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما** [264].)) ، وفي المراسلات والرسائل المكتوبة والمسموعة، في كل واحد من هذه المواقف، وغيرها كثير، نجد الواحد من المسلمين والمسلمات يردد كلمة "االسلام" تحية ، وحتى في الاتصالات الهاتفية يبدأ أكثر المسلمين الممارسين بتحية : **السلام عليكم**. وفي الحديث النبوي نقرأ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته : "ألا أدلكم على شئ إن فعلتموه تحاببتم ؟ قالوا بلى ، قال : أفشوا السلام بينكم." [حديث نبوي شريف]

الســـلام والحـــرب:

والحديث عن السلام لا بد أن يستدعي الحديث عن الحرب، لأن الحرب، والصراع وليدة التنافس البشري غير المنضبط بأية حدود ومرحلة أخيرة من تطوراته المتصاعدة ضمن تسابق الأفراد والجماعات لتحقيق رغباتهم وإشباع شهواتهم التي قد لا تشبع ؛ وقد مارستها الشعوب والجماعات البشرية والأفراد في وقت مبكر منذ ظهر الإنسان الأول في كوكب الأرض ؛ وفي التوراة والقرأن نجد قصة ابني آدم عند قتل أحدهما لأخيه ؛ ومعظم فصول التاريخ الإنساني المكتوبة والمفقودة تدور حول الحرب نتيجة التنافس والصراعات من أجل الاستحواذ لإشباع الشهوات الفردية والجماعية. وعندما وصل الإنسان ، أو توهم ، أنه وصل إلى ذروة "الحضارة" والمدنية خاض أشرس وأفظع حربين في التاريخ البشري كان ميدانهما العالم على اتساعه ، ولذا عرفتا باسم الحرب العالمية الأولى والثانية؛ وإذا استمر الظلم والاضطهاد والعدوان والقهر ، وتجاهل مبادئ الأخوة الإنسانية والسلام القائم على العدل ، والاكتفاء بالحديث عن حقوق الإنسان نفاقا ، مع تجاهل كل المبادئ حين يتعلق الأمر بحقوق الضعفاء وأطماع الأقوياء ، فلن يكون هناك أمان ؛ ولو فجرت الحرب الثالثة - لا قدر الله - فستكون أكثر تدميرا ودماء وأكثر ضحايا من سابقتيها. ولن تظل ممارسة الظلم

---

[264] سـورة الأحزاب / 44.

والخداع والنفاق عمليات سهلة ، تحت السيطرة المطلقة المباشرة، أو من خلال الأدوات البشرية من الطغاة من الدرجة الثانية أو نزولا لما هو أدنى وأرخص منها في الدرجات والتكاليف. وموقف الإسلام من الحرب يمكن أن يلخص في كلمات قليلة :
" لا مبرر للحرب سوى:

أولا رد العدوان ،

ثانيا: محاربة الظلم والاضطهاد ، وإقرار العدل."

ولكن عندما يقع الظلم ويستشري ويستفحل ، وتكتشف أدوار الكبار والظالمين وحرصهم على استمراره ـ عندئذ لا ينتظر من جميع الضحايا والمظلومين والمهمشين أن يختاروا الاستكانة ، أو أن يتصرفوا بعقلانية وسلام مع فقدان الأمل في انصلاح الحال، بل المتوقع بداهة أن تنتشر حالات الجنون والتصرفات الطائشة بغير حدود ، وربما يغيب عن بعضها ، أو عن أكثرها العقل والمنطق. وهذا الذي أقوله مجرد تفسير، وليس تبريرا ولا يمكن أن يكونه.

ســلمية الدعوة:

ولهذا وجهنا الله سبحانه وتعالى بقوله: **- ((أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين[265].))**
((**وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة[266]))**

- ((**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها[267]...)) - ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي [268]))**

وموقف الإسلام من الحرب تبينه وتؤكده كثرة من النصوص القرآنية التي أعلنت قبل ألف وخمسمئة سنة تقريبا داعية للسلام القائم على العدل ، وفيما يلي بعضها :

((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين.))

((فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .))

---

[265] سـورة النحل / 125.
[266] سـورة البقرة ى/ 83.
[267] سورة الكهف / 29 .
[268] سورة البقرة / 286 وهي آخر آياتها.

((ومالكم لا تقاتلون في سبيل والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا.)) [سورة النساء / 75]

((ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ والله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين [269].))

((وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فأن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين [270]...))

وقد وردت في القرآن آيات كثيرة غير ماذكرنا ، تحض على القتال، وضرب العدو بشراسة وقوة ، لكنها جميعا، ودون استثناء ، تتدرج في إطار السببين المشروعين للحرب اللذين ذكرناهما : **رد العدوان ، ومحاربة الظلم وإقرار العدل.** هذا هو الموقف المؤكد والواضح في ضوء النصوص القرآنية.

"القتال في سبيل الله" :

هذه العبارة المختصرة التي تحدد طبيعة القتال المشروع وصفته وأهدافه كثيرا ما يساء تفسيرها أويشوه مفهومها ومعناها عمدا، خاصة من غيرالمسلمين الكارهين للأسلام والمحرضين على كره المسلمين ، بل ومن بعض المسلمين أيضا ؛ وتنطلق التعليقات المشحونة بالغضب ، والكره ، والتحريض أو السخرية من مثل : "وهل الله لا يرضى ولا يسر إلا عندما يتقاتل الناس وتسيل دماؤهم أنهارا ويفني بعضهم بعضا ؟" وهل يتلذذ الله بسيل الدماء وسقوط الضحايا وانتشار الدمار؟ "هل من وظيفة الدين إشعال الحروب ؟"

القتال أو الجهاد في سبيل الله لا يعني تقديم أي منفعة لله لأن الله غير محتاج ، وأن أمره **" إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون."** تلك هي عقيدة المسلمين ، وهذا هو مبلغ إيمانهم. الله جل ثناؤه شرع العدل وبينه للناس وفرضه على عباده من البشر جميعا ، كما حرم الظلم وأنذر الظالمين بالعقاب والعذاب الشديد ؛ فمن آمن بذلك ورضيه والتزم به كان عند الله مرضيا ، له الثواب والجزاء الصالح ؛ ذلكم هو شرع الله. فإذا اعتدى أحد على شرع الله ، ومارس العدوان والظلم ، فإن **الله فرض على عباده المؤمنين أن**

---

[269] سـورة التوبة / 13.

[270] سـورة التوبة / 61 - 62.

يحاربوا الظلم والظالمين بأنفسهم لإقرار شريعة العدل في مجتمعاتهم، وحماية الناس أفرادا وجماعات وشعوبا وأمما من سطوة الظالمين ، وذلك ضمن منظومة ومبدأ الدفع والتدافع ، وبذلك يدافعون عن حريتهم وكرامتهم وحقوقهم وأولادهم وأجيالهم القادمة. وهذا الجهاد من خير الأعمال الصالحة ، وهو شكل وأنموذج من أشكال التدافع التي أشرنا إليها[271] كما ذكرها الله : **((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض))** ؛ فمن يقوم بهذا الواجب ويساهم فيه ليرضي الله ويرضى الله عنه فذلك هو سبيل الله ، ، وهو الذي يمنع الظلم ويرسخ العدل ، ويحمي الأرض ومن فيها من الفساد ، وفيه يندرج الجهاد القتالي. أما المعترضون على هذا الفهم فإنهم يريدون أن يظل باب الظلم وممارسته مفتوحا ،وأن يترك الظالمون والمفسدون أحرارا يعيثون في الأرض فسادا إلى يوم القيامة ، على أساس أن الله هو الذي يحاسب الناس **!**

اللــه ، وهـو الســلام ، لا يريد للناس أن يغرقوا في الحروب ، ولكنه يريد للناس الصالحين من عباده أن يمنعوا حدوث الظلم في حياتهم وفي مجتمعاتهم ، وأن يتصدوا للظالمين بأنفسهم، وبذلك يمنعون فساد الأرض ، أي فساد حياة الناس في الأرض ؛ وفي ضوء هذا البيان يتضح بجلاء **"** أن الحرب أو القتال أو الجهاد في سبيل الله يعني ويهدف إلى توفير شروط العدل والأمان والحرية والسلام التي أعطاها الله للإنسان وحببها إليه. **وأي** هدف للقتال أو الحرب غير هذا لا يعد في سبيل الله ، ولا يرضى الله عنه، وهو ليس من الجهاد في شئ". وفي هذا السياق جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فأن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الأيمان [272]**."**

ولقد ظهر في تاريخ المجتمعات البشرية إدراك الحاجة إلى العدل والنظام، فقام السلطان (السلطة من البشر) بوضع وإعلان القوانين الضابطة للعدالة كما تصوروها ، وأقدم ما نعرفه من هذه القوانين "قانون حمورابي ، ملك بابل ، في العراق، سنة 2882 قبل الميلاد ؛ وقد تضمن مائتين واثنتين وثمانين مادة ؛ ومن المرجح أن هناك قوانين أخرى ربما ظهرت قبله ، وإن لم تصل إلينا معلومات تاريخية عنها.

وهنا يجب أن ننبه إلى أن المجتمع الإسلامي في العقود الأولى من نشأته لم تكن فيه مؤسسات أو سلطات مدنية أو أمنية وشرطية يعهد إليها بحماية الأمن الداخلي، بل لم

---

[271] أنظر ص 8 - 10 من هذا الكتاب بالنسبة لموضوع التدافع والدوافع.

[272] حديث نبوي رواه مسلم ، كما ورد في الأربعين النووية ، وفي رياض الصالحين.

يكن هناك جيش محترف وجاهز للخدمة. لقد كان كل فرد من المواطنين الرجال منتدبا لحمل السلاح عند نشوب أي حرب؛ أو في حالات وقوع الظلم والعدوان الواسع. وهذا ما يوضح أهمية دورالمواطن الفرد المستقل عندما يساهم في حماية أمن المجتمع. ودور المواطن الفرد المستقل لم ينته في عصرنا الراهن ، لكن ميدانه انتقل إلى العمل الاجتماعي والثقافي والسياسي والتطوعي، هذا بجانب تأديته الخدمة العسكرية الوطنية.

ســــــــلام الأســـــــــــرة والمجتمع:

والسلام في الإسلام قاعدة مبدئية عامة تشمل كل نواحي الحياة، والله هو **السلام،** فالسلام أحد أسماء الله الحسنى كما أشرنا من قبل ، ولعل الأسرة هي الحلقة الأولى التي تتأسس فيها سلمية الحياة الاجتماعية. فالأسرة هي النواة الأولى والأهم في بنية المجتمع؛ وعندما تنشأ الأسرة وتقوم وتسيرعلى أسس سليمة وعلاقات سلمية ـ فإن النتيجة العامة تكون عاملا مهما في ترسيخ وتوطيد السلام الاجتماعي ، باعتبار أن المجتمع مكون من عدد كبير من الأسر، يجمعها الحي والبلدة والمدينة، ومجموعها العام هو الشعب والأمة والوطن ، لأن الوطن ليس الأرض فقط ، بل الناس والأرض والثقافة معا، فضلا عن الروابط الاجتماعية.

والأسرة في المجتمع الإسلامي لها دور الخلية الحيوية (البيلوجية) التي تبدأ وحدة صغيرة ثم تأخذ في التنامي والتشعب المترابط ، وتستمر ضمن عملية نمو المجتمع المكون من عدد كبير متواصل النماء مع احتفاظه بروابط وحدته، وذلك هو ما أشار إليه النص القرآني: **((وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا[273]))** ، فزواج فردين ، شاب وشابة في مقتبل العمر ينتمي كل منهما إلى أسرة غيرأسرة الآخر أو الأخرى، تنشأ عنه شبكة من العلاقات القرابية الجديدة التي تتسع بسرعة فيظهر أبناء عمات وخالات وأخوال وتتسع مكونات الحلقة بعد كل جيل لبضعة أجيال وتنشأ بعد ذلك مصاهرات جديدة بين الأسرتين وفروعهما.

[273] ســورة الفرقان / 54..

ومن أهم العوامل التي تحفظ سلام الأسرة في المجتمع الإسلامي مبدأ احترام المرأة إنسانة مساوية للرجل في إنسانيتها ، ولها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات ، وهذا مبدأ إسلامي قرآني أصيل ومؤكد نصا وممارسة. وهنا نذكر بحديث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله أحد صحابته : **"من أحق الناس بصحبتي ؟ قال : أمك ؛ قال : ثم من ؟ قال أمك ؛ قال ثم من ؟ قال : أمك ؛ قال ثم من ؟ قال: أبوك."** والمرأة هي مركز الأسرة وقاعدتها الثابتة، لأن الرجل كثيرا ما ينشغل في عمله ، أو يبتعد عن البيت طوال النهار، أو يسافر بعيدا لضرورات. ومع ذلك فأن هذه الصورة المثالية لم تكن دائما هي الغالبة. ثم إن المرأة في الإسلام ليست موضع اتهام مبدئي أو عقيدي، وهي مبرأة من تهمة الخطيئة الأولى، أي إغواء آدم (عليه السلام) ؛ وقد بين القرآن أن فعل الإغواء جاء من الشيطان ووقع على آدم وحواء كليهما : ((**فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه** [274]...)) والمرأة في القرآن بجانب الرجل تتحدث عنها النصوص في سياق واحد متصل يظهر المساواة بينهما :

- ((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم[275].))

((ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين.
وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ؛ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين [276].))

هنا في هذه الآيات الثلاث من سورة التحريم لا بد أن يلاحظ القراء عناية النص بالتوازن بين الجنسين في عرض الأمثلة من أخبار الماضين: مثالا لامرأتين فاسدتين رغم أن زوجيهما كانا نبيين صالحين ، ثم أتبع ذلك بمثال آخر ذكر فيه امرأة صالحة زوجها فاسد، ثم أضاف الحديث عن امرأة صالحة أخرى وإن لم يكن لها زوج؛ ويبدو لي أن المثال الثاني أضيف واستكمل نقصه عن قصد لمنع بعض المتسرعين من

---

274 سـورة البقرة / 36.

275 سـورة التوبة /71.

276 سـورة التحريم / 10 - 12.

المتلقين من التعميم بالحكم السيء على النساء عامة ، مثل أولئك الذين زوروا الحديث القائل بأن أكثر من في النار من النساء.

ولحماية كرامة المرأة وشرفها من الاتهامات الباطلة يحدد القرآن عقوبة رادعة لكل من يتهم امرأة بالزنا كذبا أو ظنا وبغير دليل : ((**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ؛ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم [277].**)) وفي سياق طويل من سورة الأحزاب يتجلى لنا مبدأ المساواة ظاهرا وينزوي أثر الفروق إلى مرتبة الاستثناء المحدود من الأصل :

((إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين واالصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما [278].

- ويقول القرآن عن النساء في استعراض جوانب المساواة : ((**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم [279].**)) والدرجة التي وردت في النص ليست مبدئية ، لأن المبدأ الواضح المعلن نصا هو : ((**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف .**))؛ أما الاستثناء الجزئي فإنه ينطلق من الحقائق الحياتية (البيولوجية) التي تضعف القدرة البدنية للمرأة عن القيام ببعض الأعمال الشاقة والخطرة في فترات من حياتها ، ومنها : الحمل والولادة والنفاس والإرضاع والحيض ، فضلا عن المشاركة في الحرب القتالية ؛ وهذا الاستثناء لا ينقض المساواة المبدئية ، بل إن غرضه تجنيب المرأة - وهي ركن الأسرة الأهم - الخطر في حالات ضعفها البدني ، وعدم تكليفها بما لا تطيق ، انسجاما مع ما يقرره القرآن في "مبدأ حاكم" آخر واضح ينطبق على الجنسين : ((**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** [280]...))

((**هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** [281]...)) والحرج ما يستطيع الإنسان فعله بصعوبة وهو يشعر بالضيق.

---

[277] سورة النور - 4-5.
[278] سورة الأحزاب / 35.
[279] سورة التوبة / 71.
[280] سورة البقرة / 286.
[281] سورة / الحج /78 .

- ومثل آخر من المساواة - في حال اتهام رجل لزوجته بالخيانة - يحدد القرآن أدوات النفي والإثبات التي يستخدمها الطرفان ، وهي نفسها لكليهما : ((**والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ؛ ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين [282].**))

والمرآة الصالحة المتعلمة المثقفة المؤمنة القوية الشخصية يمكن أن تكون أفضل من ألف رجل من التائهين الفاسدين الضائعين ، بل ومن الأقوياء الفاسدين الذين يوظفون ما لديهم من قوة وذكاء ومعرفة في سرقة ونهب حقوق الضعفاء والفقراء بشكل خاص ، والحقوق الوطنية لمجتمعهم عامة. وهذ ا كله يعني أن الأفضلية لا تقوم على أساس جنس الذكورة أو الأنوثة. وبالمثل فإن هذه الصفات الصالحة إن توفرت في رجل فإنه يكون أفضل من ألف رجل ، كما يمكن أن يكون أفضل من ألف امرأة.

وصونا للعلاقات الأسرية والحب الفطري بين الإخوة والأخوات، والخالات والعمات، وغير ذلك نجد القرآن يحرم الزواج بين الأفراد الأقارب من أسرة واحدة في حالات محددة من القرابة:((**حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وبناتكم وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ،فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفورا رحيما[283] .**))

فعندما يتأمل القارئ معاني هذا التحريم ودوافعه وأهدافه في كل هذه الآيات يجد أن الهدف هو حماية رباط وصلات القربى الأصلية الطبيعية ، وسلام الأسرة وترابطها البيني ؛ فالحب بين الأم وابنها أقوى وأعمق وأصدق درجات الحب. وهو حب لا صلة له بالشهوة واللذة الجسدية ؛ وهو حب ينتج عنه التزام قوي بين الطرفين. والحب بين الأب وابنته حب فطري قوي بعيد عن الشهوة في أصله وطبيعته ، فإذا سمح له أن يتحول إلى حب شهواني جنسي يفترس فيه الأب ابنته "ليأكلها" فإن ذلك يشكل كارثة تصيبهما وتصيب الأسرة ، والأم خاصة ويتمدد أثرها فيصيب المجتمع. وزواج الرجل

---

[282] سـورة النور / 6-9 .

[283] سـورة النساء / 23.

من أختين يقضي على الحب الأخوي بينهما ويحل محله الغيرة والتنافس والصراع والكره والحقد المختزن. ولسنا بحاجة إلى الاستمرار في تحليل كل نوع من أنواع الزواج المحرم التي وردت في الآية ، وللقارئ/القارئة أن يمضي في التحليل النظري إن رغب أورغبت.

ومما تجدر ملاحظته والتنويه به تعظيم القرآن لعقد وميثاق الزواج واعتباره **ميثاقا عظيما** ، كما في الآية التالية . والخطاب هنا موجه للأزوج بشأن المال المهدى والمقدم للزوجات ، والميثاق والعهد الذي يعطونه لهن في إطار ومسار عقد الزواج.

((... وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا، وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا. [284]**))**

ولماذا يكرهوهن ؟ ويستبدلونهن ؟ تلك هي الطبيعة البشرية غير المنضبطة بمبادئ تنظم أثر الدوافع الشهوانية ؛ ولنستعرض مثلا توضيحيا :

أنت ترى طائرا صغيرا جميلا لون الله سبحانه ريشه بألوان بهية مدهشة من الأبيض والأحمر والأسود والأصفر، وتأسر اهتمامك قفزاته وزقزقته أوتغريداته، وتتشوق لأن تمتلك واحدا أو اثنين من بين مجموعته ، فإذا استضفته أو أسرته تغيرت طبيعة حياته وافتقد جزءا من جاذبيته وجماله ، والأهم من ذلك أنه صار عندك كائنا حيا يأكل ويشرب ويتنفس ، وله رائحة ربما تكون غير مريحة، ويفرز بعض الفضلات ...الخ

وبالمثل عندما يتزوج شاب فتاة تعلق بها طويلا ، وكانت تبدو له أمثولة الجمال والرقة والجاذبية من بعيد ، ولا مثيل لها في الأرض ، ولا يظهر له منها غير ذلك، إلى أن تصير معه في بيت الزوجية، وتغمره بالسعادة ، ثم يمضى شهر بعد شهر بعد شهر، ويواصل الحياة مع زوجته ، وهو يشعر أنه مع من تمنى وسهر الليالي، مع أحلامه التي تحققت. ثم بعدئذ يبدأ يواجه خبرات جديدة : لم تعد هذه المرأة أمنية بعيدة تشغله ليلا ونهارا ، مع مكابدة الشوق والآمال بعيدة المنال ، ها هي بجانبه ومعه ليل نهار ، كائن حي لا يظهر له من بعيد ، كما في الماضي بكل مكونات الجاذبية الخيالية ، بل هي معه بكل طبيعتها البشرية ، تأكل وتشرب وتنام وتتنفس ويظهر في عينيها -

---

[284] سورة النساء / 19 - 21.

عندما تستيقظ من النوم - بعض القذى ، وتعطس فيسيل مخاطها ولعابها ...الخ، لقد زال البريق والتألق الذي كان يراه عن بعد. هنا تنتهي مرحلة الأحلام والخيال المسرفة، وتظهر الحياة البشرية بطبيعتها الواقعية والمادية، وتبدأ مرحلة الشراكة الدائمة والمسئولية المقدسة وبناء الأسرة حسب السنن الطبيعية في خلق الله ؛ وعندما تدخل المرأة مرحلة الحمل والولادة والنفاس والإرضاع تتعرض لتغييرات متعددة في الشكل والقامة ورشاقة الحركة، ويزداد التغير ويتراكم مع تكرار الحمل وعناء تربية الأولاد.

وحتى مجرد استمرار الشئ المحبوب حاضرا ومتاحا لفترة طويلة يجعله أقل جاذبية مما كان عليه وهو بعيد وغير متاح دائما. يضاف إلى ذلك إمكانية نشوء اختلاف بين الزوجين على أمور تخصهما معا يحاول كل منهما أن يغلب وجهة نظره واختياره ، ومن ذلك مثلا أمور تتعلق بأحد أولادهما. ومثل هذا الخلاف يمكن أن يؤثر على حبهما لبعضهما ويفسح الطريق لشخص آخر ، قد يبدو في مظهره أفضل من القرين القريب (الزوجة/الزوجة) الذي صار مصدرا للتوتر الدائم. هنا يظهر الحب الإنساني العاقل الملتزم بروح المسئولية عند الأكثرين ، بينما ينفلت من تغلبهم الشهوة لإيجاد علاقة مع امرأة أخرى (أورجل آخر)، زواجا أو علاقة غير شرعية. ولمثل هذه الحالات كان سماح الإسلام بالزواج من امرآة أخرى حلا أفضل من الخيانة الزوجية أوالطلاق. ومن أجل استبعاد هذا الخطر حدد الإسلام الأطار المباح في علاقات النساء والرجال الذين لا تربطهم علاقة زواج أو حالة من القرابة تبيح الصلات الأوثق، مثل علاقات البنوة والأخوة وغيرها مما هو معروف ومحدد نصا. والمرأة التي لا تسطيع الصبر على آلام الحالة الجديدة يمكنها الإصرار على الطلاق. وفي حالة وجود أولاد كبار بالغين للمرأة فإن أولادها ربما يكونون عونا لها ووقاية ، وربما يستحي منهم والدهم أو يخاف احتمال تغير علاقته بهم... الخ.

وقد حرم الإسلام أي نوع وأي درجة من العلاقة الجنسية خارج إطار الزواج حتى لا تضيع صلات القربى ، ولا يتحول الاتصال والتفريغ الجنسي، بالنسبة للمرأة والرجل ، إلى ما يماثل الدخول إلى المستراح (المرحاض) للتبول في مكان عام مفتوح لكل عابر سبيل ، ثم الخروج خفيفا بعد تفريغ المخزون البولي المتعب ، ولا يتبع ذلك أو يترتب عليه أي ارتباط لا بالشخص ولا بالمكان. وقد شاعت هذه الممارسة في المجتمعات الغربية الحديثة ، وكان من أبرز مظاهرها ونتائجها الشائعة جدا ظاهرة "الأبوة المفردة Single Parent ، (وهي في أغلب الحالات المرأة أو) عندما لا يكون للطفل أبوان ، بل يكون له واحد منهما فقط. وقد أبيح هذا النوع من الخيارات تحت

عنوان ممارسة الحرية، وقيل إن منعها هو الاستعباد بعينه أما من يخالفون هذا التوجه ويستنكرون هذه الممارسة فيعتبرونها هبوطا إلى مستوى الحيوانات ، ويرون فيها تضييعا وإسقاطا لكل ما تمثله الأسرة وما تنطوي عليه من عواطف حب وصلات ووشائج ونتائج ورعاية لبراءة الطفولة، فضلا عن فقدان الحياة الاجتماعية السوية.

والمرأة في العقيدة والتشريع الأسلامي هي نفسها صاحبة القرار في قبول الزواج من شخص معين أو رفضه، ويلزم أن يشهد على صحة العقد وصدقيته شاهدان يسمعان من الزوجة موافقتها مباشرة؛ كما أن الزوجة تستطيع أن تنهي وتلغي عقد الزواج في أي وقت تشعر فيه وتكون متأكدة أنها لا تستطيع الاستمرار في الحياة الزوجية، حتى عندما تنحصر الأسباب في عدم قدرتها على تقبل شكل الزوج وقلة وسامته عن الحد الأدنى الذي يمكن أن تحتمله، رغم أن خيارا من هذا النوع يمكن أن يكون مستهجنا ومستنكرا من الناحية الاجتماعية ، وهذا النوع من الانفصال يسمى "الخلع " [بضم الخاء وتسكين اللام] في شريعة المسلمين ، ومثاله الأول حدث أثناء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعندما حاول النبي أن يقنع المرأة بالعدول عن طلب الطلاق قائلا لها : "إنه زوجك وأبو أولادك " ، فسألت المرأة النبي : "أتأمرني ؟ فأجاب : لا ، إنما أنا شافع ، بمعنى "وسيط" ؛ فأجابت المرأة لا حاجة لي به ؛ وتم طلاقها.

ضبابية الرؤية تضيع معالم الطريق :

وفي زحمة الصراعات والخلافات اللامحدودة عبر مسيرة تطور المجتمعات الإسلامية وتياراتها الفكرية ، وتكتلاتها القبلية والعشائرية والمذهبية والطرقية ، مع تعدد جذورها ومنابعها، كما وصفناها في صفحات سـابقة ، سادت حالة ضبابية في أوساط "العلماء" رانت على عقولهم ، فضيعوا في عتمتها كثيرا من الأصول، أعني المبادئ القرآنية الحاكمة ، إذ ند سبب وجودها عن قدرة الإدراك والإبصار عندهم ، فزعموا أنها منسوخة مع أنها موجودة بنصها الواضح في المصاحف وفي أدمغة الحفاظ تقرأ وتسمع ليل نهار، وينظر إليها بعض الغافلين كأنها مجرد زخرف لفظي موسيقي هامشي ! وقد حاولت جاهدا اكتشاف الأسباب الخفية التي أغرقت هؤلاء "العلماء" في مقولات النسخ، فتبين لي أنها أسباب متوهمة مبنية على فهم قاصر خرج من خلال منظور ضيق. لقد دار جزء كبير من الحديث عن

النسخ بشأن موضوع **"الـجـهـاد"** وما يدخل في معناه ، ولذا سنلقي نظرة على مدلول هذه اللفظة:

الجهاد = القتال ؟ معادلة خاطئـة.

لقد توهموا أن الجهاد في الإسلام هو القتال فقط ، وهذا خطأ بكل تأكيد. ولسنا بحاجة إلى الرجوع لجذر كلمة "الجهاد" (ج هـ د)، فهذا معروف حتى لكثير من الباحثين غير العرب وغير المسلمين. وقد ظهرت كلمة الجهاد ومشتقاتها مرات كثيرة في كتب تفسير القرآن الكريم، بل وضمن النص القرآني، وفي مجموعات كتب الحديث النبوي، من غير أن تقترن أو تحصر في معنى **"القتال"**؛ وفيما يلي أمثلة قليلة من ذلك:

((وإن **جاهداك** على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما[285]...)) أي إذا جادلك والداك بقوة وإصرار ليحملاك على أن تشرك بالله ؛ هذا العمل السلبي الذي قام به الوالدان وصف بلفظ الجهاد : **"**وإن جاهداك**"** ، ولكنه جهاد في سبيل الشيطان.

((ويقول الذين آمنوا أهاؤلاء الذين أقسموا بالله **جهد** أيمانهم[286]...))

جـهـد أيمانـهم = بذلوا أقصى الجهد وهم يحلفون الأيمان كذبا لكي يخدعوا المستمع ويقنعوه بصدقهم، وكان هذا لهم **نوع من الجهاد** ، ولكن في سبيل الشيطان كذلك. ويتكرر استخدام لفظ **جهد** بهذا المعنى، أي بمعنى **بذل أقصى الجهد** ، في مزيد من الآيات القرآنية :

((ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا. فلا تطع الكافرين **وجاهدهم به جهادا** كبيرا[287])) ، أي وجاهدهم بالقرآن [انظر تفسير الجلالين] ، والجهاد بالقرآن يعني الحوار **والمناقشة القوية** ، وليس القتال بالسلاح وإراقة الدماء. أما في الحديث النبوي فنجد : **"**أفضل **الجهاد** كلمة حق عند ذي سلطان جائر**"**

---

[285] سـورة العنكبوت / 8 ، وسورة لقمان / 15.

[286] سـورة المائدة /53 ، والأنعام/ 9 والنحل / 38 .

[287] سـورة الفرقان/ 51-52 ، وانظر تفسير الجلالين.

وذلك يعني أن **"كلمة حق"** في مواجهة الطغاة : **هي الجهاد** في هذه الحالة ، لكنها لا تعني الجهاد القتالي بالسلاح.

ولا مراء في أن الجهاد يعني القتال أحيانا، أحيانا فقط، وليس في كل المواجهات والاختلافات ، وهذه هي القاعدة الصحيحة.

وعندما واجهت المستهترين من مدعي النسخ آلآيات القرآنية الداعية للعلاقات السلمية توهموا أنها مناقضة لفكرة الجهاد كما فهموها خطأ، ولذلك شحذوا سيوف النسخ ورفعوها عاليا ليستبعدوا أية علاقة سلمية لا تنبني على خضوع الطرف الآخر واستسلامه واعتناقه الإسلام قسرا وبالإكراه.

مفهوم النسخ :

والنسخ ، فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، يعني الإلغاء والاستبعاد ، استبعاد النص كأن لم يكن؛ وهناك نوع آخر يزعم أصحابه : استبعاد النص المكتوب مع الاحتفاظ بحكمه أو فاعليته. وهذه قضية معقدة وشائكه ، غير أن هذا لا يصرفنا عن تناولها ، لأن بحثها وسبر أغوارها ومتاهاتها ضرورة حتمية لكل من أراد دراسة تطور الفكر الإسلامي ، ومن أراد أن يساهم في الجهاد والجهود من أجل إخراج الإنسان من العتمة إلى الضياء ؛ وبغير ذلك تكون أي دراسة مشوبة بالقصور ، تؤدي إلى أحكام وتقريرات خاطئة ومضللة.

يخبرنا الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي أن المؤلفين الذين كتبوا في الناسخ والمنسوخ - موضوعا منفردا - كثيرون لدرجة كبيرة ، أو حسب تعبيره الحرفي بدقة تامة : إن هذا الموضوع " أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون " ، ثم ذكر بعضهم بالإسم : " أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو داود السجستاني ، وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنباري ، ومكي، وابن العربي ، وآخرون [288]. أما السيوطي نفسه فقد تناول موضوع النسخ في فصل امتد أربع عشرة صفحة (535 - 548) ضمن كتابه الشامل ***الإتقان في علوم القرآن*** .

ولماذا النسخ ؟

---

[288] السيوطي ، ***الإتقان في علوم القرآن*** ، ص535

إن من بين الأهداف المباشرة للنسخ إلغاء أو تغيير حكم أو توجيه لسلوك المسلمين وتصرفاتهم وخياراتهم الفردية أو الجمعية ؛ ضمن الحاجة للتدرج في التشريع خلال عملية التحول السلوكي في حياة الفرد والمجتمع لكي لا يكون التغيير السريع مربكا وصعبا ؛ ومن أمثلة ذلك ما حدث في التشريع بالنص القرآني المتدرج لمنع شرب الخمر :

((يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون [289].)) والذي يفهم من هذه الأية أن شرب الخمر كان مباحا في الفترة المبكرة من حياة المجتمع الإسلامي الأول ، وكان بعض المسلمين يشربون الخمر ويصلون وتبدو عليهم الثمالة. و بحكم هذه الآية بدأ التدرج في التعامل مع مشكلة السكر بتنبيه المسلمين إلى أن الثمالة تفسد صلاتهم ، ولذا أمروا بعدم أداء الصلاة وهم في حالة السكر. ثم جاءت الخطوة التالية في التشريع بالنسبة للخمر : ((**يسألونك عن الخمر والميسر : قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما [290].**)) هنا لم يغفل النص القرآني أن في الخمر نفعا لبعض الناس ، ولكنه ينفع بعض الناس ، من يعصرون ويبيعون ويتاجرون، وليس نفعا للمجتمع كله ، ثم ينبه إلى أن الإثم والضرر المترتب على احتساء الخمر أكبر من النفع ؛ ثم جاءت الخطوة الثالثة في مسار التدرج التشريعي لمعالجة هذه المشكلة الإجتماعية : ((**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون.** [291])) وهكذا نسخ مضمون حكم الآيتين السابقتين، ولكن مع بقاء نصهما ثابتا في آيات من القرآن شاهدا على عملية التدرج والتعديل والتبديل الموازي للتطور الحادث في حياة المجتمع الإسلامي.

وفي موضوع تغيير القبلة نقرأ في كتاب الله :((**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ؛ وما كان الله ليضيع إيمانكم، إن الله بالناس لرءوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره [292].))**

وقد تعرض النص القرآني لموضوع النسخ مباشرة في قول الله تعالى:

---

[289] سـورة النساء ، 43.

[290] سـورة البقرة ، 219

[291] سـورة المائدة ، 90.

[292] سـورة البقرة ، 143 - 144.

((وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا هدى وبشرى للمؤمنين [293].))

((ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير [294].))

والمعنى الواضح لهذه الآيات هو: أن نسخ بعض آي القرآن ، إنما هو من اختصاص الله ، الذي يبدل وينسخ وينسي ؛ وظاهر أن عبارة **"إنما أنت مفتر"** كانت ضمن الشتائم التي وجهها كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم. ومما يؤسف له أن الأكثرين ممن كتبوا عن النسخ لم يلزموا أنفسهم بالتوقف عند حدهم ، بينما النبي وقف عند حده، وأعلن ، بأمر من الله عندما طلب منه الرافضون لدعوته : **"ائت بقرآن غير هذا أو بدله"** إذ رد عليهم بأمر الله له : **((قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [295].))** ومن أمثلة تجاوزات المؤلفين في الناسخ والمنسوخ ما كتبه القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي: " لم يبق أحد من أرباب التأليف ممن جمع في هذا الفن إلا وقد حطب ليلا وجر على العلم ذيلا واستوجب ويحا أو قل ويلا. ونحن بتوفيق الله تعالى نتتبع بالبيان جميع الآيات ونظهر في أثناء ذلك ما أتى به هؤلاء القوم من الغفلات .." هنا ، في هذه العبارات القليلة يخطئ ابن العربي كل من سبقوه في تناول موضوع "الناسخ والمنسوخ في القرآن" ولا يخفي ازدراءه لهم ، ثم يعلن أنه سيتتبع أخطاءهم ليكشفها ويعريها. وعندما وصل في متابعته للموضوع إلى الآية الخامسة من سورة براءة/التوبة، المسماة: "آية السيف" : **((فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم.))** عندئذ قال ابن العربي : إنها **"ناسخة لمائة وأربع وعشرين آية ، ثم صار آخرها ناسخا لأولها..."** ، وبهذا فاق كل من سبقوه بادعاء النسخ والجرأة على النسخ ، بعد ما استنكر أخطاءهم ووعد بتصويبها !

تعليق الإمام ابن الجوزي:

[293] سـورة النحل ، 101-102.
[294] سـورة البقرة 106.
[295] سورة يونس ، 15.

وقد علق الإمام عبدالرحمن بن الجوزي على قول ابن العربي - من غير أن يذكر اسمه - فقال : "وقد ذكر بعض من **لا فهم له من ناقلي التفسير** أن هذه الأية ، وهي آية السيف ، نسخت من القرآن مائة وأربعا وعشرين آية ثم صار آخرها ناسخا لأولها ، وهو قوله ، وهذا سوء فهم..." وبهذا نجد أن ابن الجوزي لم يكتف بوصفه بـ "سوء الفهم" بل أسقط أهليته للتفسير باعتباره مجرد ناقل عن المفسرين الحقيقيين.

أما المظفرابن خزيمة فقد : "أعلن أن الله تعالى أنزل آية السيف ، وهي قوله عز وجل في سورة التوبة : ((فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ...)) ، فنسخ بهذه الآية ماءة وثلاثة عشر موضعا في القرآن.[296].." إن ادعاء نسخ مائة وأربع وعشرين آية أو مائة وثلاثة عشر موضعا يعتبر مجلبة لإضلال خطير ؛ وهذا ما سنحاول إخضاعه للتحليل ، وبيان ما ينطوي عليه من ضلال.

أمثلة من الأيات التي زعموها نسخت:

" وقولوا للناس حسنا. (البقرة 83)

و "لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.(البقرة 139)

"ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (البقرة / 190)

" لا إكراه في الدين" (البقرة/256)

"ما على الرسول إلا البلاغ" (المائدة / 99)

"فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ" (الأنعام / 104)

"ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم." (الأنعام/108)

"أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس/199)

"فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه" (يونس/108)

"إنما أنت نذير" (هود/12)

[296] المظفر بن خزيمة ، ***الناسخ والمنسوخ في القرآن*** نشر ملحقا بكتاب ***الناسخ والمنسوخ*** لأبي جعفر النحاس، ص 271 وما بعدها.

"فإنما عليك البلاغ" (الرعد/40)

"وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل/125)

"ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم" (طه/131)

" قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين" (الحج/49)

"إدفع بالتي هي أحسن" (المؤمنون/96)

"وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا" (الأحزاب/48)

وربما يلاحظ بعض القراء أن أكثر هذه الآيات ليست بنصها الكامل، ويظن أن الاختصار كان من فعل المؤلف الحالي(عبدالله ابو عزة) ولذا فإنني أؤكد أنني نقلت النصوص كما دونها مدعو النسخ في كتبهم ولست أنا الذي اختصرتها إذ لم أستحسن أن أدخل أي تغيير على ما كتبه المؤلف الذي عزوت إليه ؛ ويستطيع من شاء من القراء أن يعود لنص الآية كاملا في المصحف.

ونعود لتأكيد ما أكده الإمام جلال الدين السيوطي[297] أن جميع المنسوخ في القرآن عشرون أية فقط ، " لا يصح دعوى النسخ في غيرها ، أي أنه ينفي الصدقية عن كل ما ادعي من نسخ زيادة عن العشرين آية التي حددها. ونحن لا نتبنى قول السيوطي لأنه واحد من أوسع العلماء المسلمين علما في كل عصور التاريخ الإسلامي [298]، بل نتبنى قول السيوطي لأنه يتفق مع ما قرره القرآن ؛ فالذين توسعوا في النسخ متحمسين انطلقوا مما أسموه آية السيف ، وآية القتال فادعوا نسخ جميع الآيات التي توجه إلى الرفق واللين والتسامح والمغفرة ...الخ. غير أن هناك آيتين من القرآن الكريم ورد فيهما نص واضح يحدد القاعدة والإطار الذي بعث الله به الرسل جميعا ، بما فيهم نبي الإسلام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وهو إطار سلمي واضح ، والآيتان هما: **"وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [299]."** ، وقد وردت آية أخرى بنفس النص تقريبا في

---

[297] السيوطي ، ***الإتقان في علوم القرآن*** ، ص 541 .

[298] أنظر مقدمة كتاب ***الإتقان في علوم القرآن*** ، ص 5-7.

[299] ســـورة الأنعام ، 48.

سورة الكهف : ((**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا** [300] **)).**

إن نص هاتين الآيتين يعرف المؤمنين بمبدأ عام ، وقاعدة عامة ، تضمنتها كل رسالات الله تعالى دون استثناء ، إلى مختلف الشعوب والجماعات، في مختلف العصور، وهي أن الدعوة إلى الإيمان بالله وبالطريق المستقيم ، كما أراده وحدده ، تبلغ في إطار التبشير بالثواب وخير الجزاء لمن آمن بقلبه حرا غير مكره أو منافق، وبالرحمة والمغفرة لمن عصى واختار طريق الباطل ، ثم ندم وتاب واستغفر الله صادقا ، ولا تبلغ عن طريق الإكراه والقوة أو الحرب ، وهذا ما يعنيه الاستثناء **"إلا مبشرين ومنذرين"** ، فأسلوب الدعوة محصور تماما ضمن هاتين الطريقتين ، (التبشير والإنذار) ، وما عداهما مستبعد تماما. ولابد أن أضيف هنا أن نص الآيتين ورد **بصيغة الخبر**، والخبر في النص القرآني لا ينسخ، لأن نسخه سيفسر بأن الخبر الذي نسخ لم يكن صحيحا. وادعاء النسخ في هذه الحالة يتعارض مع إيمان المسلمين وعقيدتهم.

لماذا عجز المتحمسون لفرض العقيدة بالإكراه عن فهم سلمية الدعوة ؟

لقد عجزوا عن إدراك الحالة الخاصة التي أحاطت بنزول آيتي السيف والقتال - حسب تسميتهم - وحددت هدفهما ، بالرغم من أن الخطاب الإلهي قد بينها بوضوح تام بدأه بالآيات الأخيرة من سورة الأنفال من آية رقم 55 إلى آخر السورة ، واستمرارا في الآيات الأولى من سورة براءة. ويلاحظ أن سورة براءة لم تبدأ بالبسملة نظرا لعدم التأكد - عند جمع القرآن - من أنها سورة منفصلة عن سابقتها ، قائمة بذاتها ، وليست تكملة لسورة الأنفال ؛ وكان هذا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه أثناء فترة جمع القرآن[301]. ويهمنا هنا أن الآيات الأولى من براءة واصلت موضوع الآيات الأخيرة من الأنفال، الذي بدأ بقول الله تعالى : **"إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون"**[302] **.** وعندما نصل إلى الآية الخامسة من سورة براءة : ((**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم**

---

[300] سـورة الكهف ، 56.

[301] السيوطي ، ***الإتقان في علوم القرآن*** ، 153 .

[302] سـورة الأنفال / 55 - 57.

كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم)) ، نجد أن الحديث ما زال عن نفس المجموعة البشرية التي كانت موضوع الآية 55 من سورة الأنفال ووصف أفرادها بأنهم **شر الدواب الذين كفروا** ، وأنهم يعاهدون **وينقضون عهدهم في كل مرة،** وهم **لا يتقون**. ولا يتوهمن أحد أن قولي هذا: استمرار الحديث عن نفس الموضوع في السورتين : الأنفال وبراءة ، مجرد اجتهاد أو افتراض ، كلا ، بل هو واضح بالنص القرآني، من الآية الأولى في سورة التوبة/براءة : **"براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين"** وهذا تحديد واضح بأنهم هم الذين ذكروا في الآية رقم 55 من سورة الأنفال : **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون "** ، والرابط بينهما في الحالتين هو وصفهم بـ **"الذين عاهدت منهم "** و : **"الذين عاهدتم من المشركين".** ومن هذه الحقيقة ينبغي أن يفهم القارئ أن التوجيه المتضمن في الآيتين 55 - 56 من سورة الأنفال وما تبعهما حتى نهاية الآية الخامسة من سورة براءة إنما هو خاص بالتعامل مع هذه الجماعة بالذات ، وكل جماعة أخرى تشبهها في سلوكها وتعاملاتها، وليس عام التطبيق على كل من يمتنع عن اعتناق الإسلام وتغيير دينه السابق. وهكذا تتضح لنا أدلة التخصيص في آيات سورتي الأنفال وبراءة ؛ ثم يأتي استثناء آخر في الآية الرابعة من سورة براءة ليؤكد نفس الحقيقة : **((إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين.))** وليزيد مقصد النص وضوحا وبيانا؛ ثم تأتي الآيتان السادسة والسابعة من التوبة في نفس الاتجاه التوضيحي. وعندما نجمع هذه النتيجة التي توصلنا إليها مع مدلول الآية 256 من سورة البقرة ، ثم الآية 48 من سورة الأنعام والأية 56 من سورة الكهف يتأكد لنا مرات مكررة مبدأ سلمية الدعوة ، ومبدأ استبعاد الإكراه في نشر الرسالة والعقيدة ، وأن هذا المبدأ السلمي كان القاعدة المتبعة في كل رسالات جميع الأنبياء، في كل العصور ، وأن من خالفوا هذا التوجه ومارسوا الإكراه خالفوا النهج الذي دعا إليه أنبياؤهم وعصوا الله ورسله سواء عن قصد أو عن جهل. **وبجانب هذا** نجد في القرآن أيات كثيرة جدا **تؤكد سلمية الدعوة إلى الإسلام،** وتكشف خطأ أو انحراف أولئك الذين أصروا وواصلوا الادعاآت الباطلة والجاهلة لتشريع الإكراه في نشر الدين على الرغم من قول الله تعالى: **((لا إكراه في**

الدين قد تبين الرشد من الغي...)) وقوله بصيغة الاستنكار ((**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! [303]))**

وعلينا أن نتذكر وأن نعي أن **الإكراه لا ينتج مؤمنين حقيقيين يتقبل الله إيمانهم،** إذ الأعمال بالنيات، والمكرهون بالقهر يكون مخزونهم الألم والحقد والكراهية، وليس الإيمان الحقيقي ولا النية الصادقة ، وعندما تأتيهم الفرصة للإنتقام من الجهة التي سببت لهم القهر أو الإفلات من سيطرتها، فإنهم لا يترددون في اقتناصها، وتلك هي الطبيعة البشرية، ومن العبث والبلاهة تسمية ذلك بالخيانة.

[303] ســورة يونس / 99.

الفصل الحادي عشـر

الـنـقـد الـبـنـاء : انـتقـاد الـذات وانـتـقـاد الآخـر

هذا المبدأ القرآني يشمل: نقد الفرد لذاته، ونقد ما يقع فيه الآخرون من الأخطاء والانحرافات أو من التقصير في التعامل مع مجتمعهم ، بما في ذلك ما يؤاخذون به الحكام. ويعبر عنه النص القرآني **بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ، كما تدخل في مضمونه من المفردات القرآنية التوبة والندم وهي نفسها نقد الذات ، أي نقد الفرد لذاته. وكل ذلك اختصره الحديث النبوي بكلمة النصيحة. وفي الحديث النبوي نقرأ: " الدين النصيحة ... لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم." ؛ ومن خلال هذ التعبير النبوي يبدو النصح الصادق وكأنه مساو للدين كله. وقد ورد ت أمثلة عن كل مكونات هذا المبدأ، في القرآن الكريم بصيغ وسياقات متنوعة ؛ ومع ذلك فإن أي خطة لتفعيله بكل تفاصيله لا بد أن تكون مسبوقة ومصحوبة بأدوات وضوابط محكمة ، لكي لا تغدو الممارسة منفذا للفوضى. إن واجب النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعطي من يقوم به سلطة لإهانة أي فرد أو معاملته بأدنى درجة من قلة الاحترام. وهنا في هذه المواقف ينبغي لمن يمارس هذاالنوع من الواجب الديني والاجتماعي أن يستحضر قول الله تعالى **((وقولوا للناس حسنا [304].))** و **((وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم [305]...))** وأوضح ما نقرأ عن نقد الفرد المسلم لنفسه : **((لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة[306]...))** والقسم بيوم القيامة يعني تعظيم ذلك اليوم. وتأكيدا لذلك نستدعي قسما آخر بنفس الأسلوب: **((لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد...))** و "هذا قسم من الله تعالى

---

304 ســورة البقرة / 83.

305 ســورة الإسراء / 53.

306 ســورة القيامة ، 1-2.

بمكة أم القرى[307]..." والقسم بشئ ما يعني تعظيمه. وكلمة "لا" زائدة في الحالتين ، كما يقول المفسرون، والمعنى المراد هو : أقسم، وهذا نوع من أساليب الحديث والتعبير التي كانت سائدة في لغة قريش ، لغة أهل مكة عند نزول الوحي بالقرآن ، وبلغتهم نزل القرآن الكريم. واستعمال "لا " النافية أريد به وبالقسم المكرر في الآيتين أيضا أن يحمل تعظيما ليوم القيامة ، وثناء على النفس اللوامة التي تذكر صاحبها بذنوبه وتلوم الذات لارتكاب الآثام ، وتعظيما لمكة أم القرى بالنسبة لآية "لا أقسم بهذا البلد" ، كما بين ابن كثير في تفسيره ، هذا بجانب الآيات الكثيرة التي تعلي من قيمة وأثر التوبة والندم وإصلاح ما أفسدته المعصية والذنوب ، فضلا عن الآيات التي يتكرر فيها ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبجانب ذلك نجد في سور الكتاب الكريم عددا كبيرا من الأوامر والنواهي والتوجيهات، وتعبيرات الحمد والثناء والتحبيذ والتأييد للسلوك المرغوب ، تقابلها تعبيرات الاستنكار والذم مقرونة بالسلوك المكروه، أو غير المرغوب؛ وهذه وتلك ترد كلها مجسدة لمبدأ النقد والنقد الذاتي وتنبيه المؤمين لأهميته. وهكذا نجد أن كل فرد مسلم يشعر بالانتماء العضوي للمجتمع الإسلامي ، ينبه بان عليه أن يكون شخصا إيجابيا مبادرا بالنشاط قولا وعملا ، متخذا مواقف واضحة ، حارسا لمصالح المجتمع مساهما في تقوية وتمكين وتثبيت الكيان الجمعي للامة. والتعبير التلقائي التطوعي عن هذا المبدا يأخذ صورة المبادرة الذاتية الإيجابية وتقديم المثال والقدوة ، وتشجيع وحث الآخرين على اختيار وتبني السلوك ذاته. وإذا أردنا نصوصا قرآنية واضحة أخرى تجسد ذلك كله نجدها مجملة بشكل عام في قول الله تعالى :
((**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان** [308]...))

((**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** [309].))

((**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله** [310]...))

- ((**يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**)) [التوبة/71] ، ((**الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر**)) [التوبة/112] ، ((**إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ...**)) [النحل/90]

((**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**)) [العنكبوت/45] ، ((**فمن عفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان**)) [البقرة/178]

- ((**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**)) [الأعراف/199]

---

[307] أنظر تفسير هذا النوع من القسم في ***تفسير الطبري وتفسير ابن كثير*** ضمن تفسير الآيات في سياق تفسير سورها.
[308] سورة المائدة / 2.
[309] سورة آل عمران / 104 .
[310] سورة آل عمران / 110.

- ((**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف**)) [البقرة/31] ، ((**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**)) [البقرة/288] - ((**وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**)) [النور/31]

- ((**يا أيها الذين آمنوا توبوا ألى الله توبة نصوحا**] [التحريم/8] ، [**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**[311] .

وفي سياق الذم لبعض الجماعات المنحرفة نقرأ قول الله تعالى: ((**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون**[312].))

((**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون** [313] **))**

- ((**ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر** [314]))

في هذه الحزمة الكبيرة من النصوص التي وردت متفرقة في كثير من سور القرآن الكريم نجد التأكيد على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، ويظهر فيها النقد الذاتي الفردي ، والجمعي للذات وللآخر. وقد يرى بعض الناس أن "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" شئ آخر غير النقد؛ لكن هذا فهم ضيق ويدل على قصر نظر أو ضيق أفق ، فأنت عندما تبادر بأن تأمر أو تحث شخصا أو تحاول إقناعه ليقوم بعمل خير فإنك مبادرتك تنطلق من شعورك ومعرفتك أن الشخص المعني مقصر فيما يجب عليه رغم قدرته على ذلك عمليا، ولذا فهو يحتاج تنبيها إلى حالة التقصير التي تلبسته وارتاح لها بارتخاء ، وتنبيهك له بلطف يتجنب الإهانة والتعالي قمين بأن ينشطه .
ومما يلاحظ في هذه المجموعة من الآيات أنها تضمنت التوجيه بالابتعاد عن المحرم والمكروه ،

(المسمى بـ المنكر) ، وتبني وتوجيه المؤمنين إلى ممارسة المرغوب من العمل الصالح ، وهو : **المعروف،** الذي تعارف المجتمع، على أن فيه خيرا ومنفعة للجميع، وفي الأنظمة الحديثة يجسد ذلك في الدستور وهو القانون الأساسي ومعه القوانين المتفرعة منه ، الذي اختاره المجتمع الإسلامي واعتمده أساسا للتعامل بين الناس. وذلك يعني أن عملية النقد ثنائية الهدف ، تنهى عن السيئ المنحرف ، وتأمر وتشجع الاختيار الصالح المفيد - في حصيلته العامة - للمجتمع جملة ، ولأفراده.

ولكن هذا كله ربما يبدو لبعض القراء كأنه مجرد توجيات عامة ، وربما رغب بعضهم أو تمنى أن نقدم له أمثلة من المواقف العملية التي يظهر فيها النقد والاعتراض واضحا وموجها لمن يحمل السلطة والقدرة على الرفض أو الموافقة؛ وهذا مانتوي القيام به في هذا الفصل من دراستنا.

أمثلة من ممارسة النقد في المجتمع الإسلامي منذ العهد النبوي:

311 ســورة البقرة /222.
312 سورة المائدة / 79.
313 سورة التوبة / 67.
314 ســورة النور /21.

المثال الأول:

في السنة الثانية للهجرة ، وفي بداية المواجهة بين القوة المكية التي جاءت لتهاجم المدينة، يثرب ، فيما عرف بغزوة بدر الكبرى، رسم النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يقود القوة المسلمة التي تصدت لقوة قريش ، خطة الدفاع ، فحدد للقوة الإسلامية المدافعة نقطة تتمركز فيها قبل بداية المعركة ؛ فقام أحد الأنصار ليعترض على خطة التموضع التي اختارها الرسول ، وبدأ الحباب بن المنذر بتوجيه سؤال ، قال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأي والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ـ ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي. فنهض رسول الله ومن معه من الناس ، ونفذ اقتراح الحباب بن المنذر[315].

المثال الثاني:

في السنة الثالثة للهجرة وصلت الى رسول الله والمسلمين في المدينة أخبار بأن قريش قد خرجت بكل قوتها متجهة إلى المدينة لمهاجمتها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "إني والله قد رأيت [في المنام] خيرا، رأيت بقرا تذبح ..." فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مكان، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها." فقال رجال من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ، ممن كان فاته بدر : يا رسـول اللـه، أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا ؛ ولم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل رسول الله (ص) بيته فلبس لأمته ... وقد ندم الناس وقالوا : استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ... فإن شئت فاقعد ، فقال : ... ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل." فخرج رسول الله في ألف من أصحابه [316]." ودلالة هذا الحدث، وما جرى فيه ، أن كثرة من الصحابة خالفت اجتهاد النبي بشأن الخطة الدفاعية عن المدينة حتى نزل عند رأيهم ثم ظنوا أنهم استكرهوه ، فحاولوا إصلاح خطئهم.

المثال الثالث :

في غزوة الأحزاب ، في السنة الرابعة من الهجرة ، لما اشتد على المسلمين أثر الحصارالذي فرضه الحلفاء المحاصرون للمدينة ، الأحزاب ، قام النبي صلى الله عليه وسلم بمحاولة لإضعاف القوى المتحالفة عن طريق إغراء قائدي إحدى هذه القوى ، وهي قبيلة غطفان بإعطائهم ثلث ثمار المدينة على أن ينسحبا بمن معهما من المحاربين ، وانتهى التفاوض إلى اتفاق أولي جرت كتابته

---

[315] إبن هشام ، ***السيرة النبوية*** ، ص323.

[316] ***المصدر نفسه*** ، ص 411 - 412.

خطيا. فلما أراد رسول الله أن يبرم الاتفاق بعث إلى زعيمي الأنصار، سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة يستشيرهما ، فقالا له : "يا رسول الله ، أمر تحبه فتصنعه لنا أم شئ أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ؟ قال بل شئ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منه تمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيعهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله (ص) : " فأنت وذاك." فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ومحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا [317]."

المثال الرابع :

في السنة السادسة للهجرة، ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المسسلمون ومن انضم إليهم من الأعراب المجاورين للمدينة لزيارة بيت الله الحرام، وأعلن أنه ذاهب للزيارة وليس للحرب . وقد أصرت قريش على عدم السماح بإتمام الزيارة ، وجرت مفاوضات بين النبي وموفد قريش ، سهيل بن عمرو، وبدا لعدد من كبار الصحابة أن موقف الرسول كان لينا أكثر من اللازم ، بينما كان عنصر القوة في جانب المسلمين بشكل واضح ؛ ومع ذلك فقد أصرت قريش على منعهم من الزيارة في ذلك العام ؛ وتم الاتفاق من خلال التفاوض على أن يرجعوا إلى المدينة ذلك العام دون إتمام الزيارة ، ثم يعودوا في عام تال لأتمامها. وهنا بدأ الاعتراض على ما تم الاتفاق عليه، إذ جاء عمر بن الخطاب معترضا، قال: "يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال بلى ؛ قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى؛ قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : إنني عبد الله ورسوله ، لن أخالف عن أمره ، ولن يضيعني." فأدرك عمر أن هناك توجيها من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [318]. هذه أربعة أمثلة واضحة الدلالة وضوحا تاما تظهر اعتراض نفر من كبار الصحابة، ومن عامتهم على بعض خيارات وقرارات رسول الله بشكل علني وقوي ، وأن رسول الله لم ينكر أو يستنكر حقهم في الاعتراض ، وقد قبل الاعتراض في ثلاث حالات دون تذمر ونفذ ما أشار به المعترضون ، بينما أمضى ما اختاره في حالة واحدة ، على أساس أن هناك توجيها له من الله تعالى. والعبرة في هذه الأمثلة وأشباهها أن الرأي المعارض ظهر أمام أعلى سلطة بشرية إسلامية في التاريخ الإسلامي كله ، أعني سلطة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يواجه الصوت المعارض والناقد أي درجة من الاستنكار، بل ووجه بترحيب وقبول وثناء في حالتين، وفي الأخريين لم يترتب على صاحب الصوت المعارض أي لوم أو مؤاخذة مهما كانت ضئيلة.

---

[317] *المصدر نفسه* ، 499 - 500.

[318] *المصدر نفسه* ، ص 552.

أمثلة أخرى متفرقة:

- **ونجد** في النص القرآني، أن الله سبحانه امتدح صحابة رسوله في مواقفهم الطيبة، ومع ذلك نجد أنه انتقدهم في مواقفهم الخاطئة، وقد بينا ذلك بشئ من التفصيل في صفحات سابقة من هذا الكتاب (ص 20 - 23).

- ونقرأ في كتاب الله أن الله تعالى شأنه انتقد بعض تصرفات رسوله صلى الله عليه وسلم في مواقف محددة ، نقدا لا يخلومن معنى اللوم ، وبعبارات واضحة وصريحة ومعلنة على أوسع نطاق ، بالرغم من محبته لرسوله خاتم النبيين ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، مثل ما انتقد الصحابة ، كما يتبين لنا فيما يلي :

1 - **"عبس وتولى أن جاءه الأعمى؛ وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى؛ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى[319]."**

2- **"ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم[320]."**

هنا ، في هذين المثالين الأخيرين نرى ونفهم أن الله تعالى اختار أن ينتقد نبيه صلى الله عليه وسلم بشكل واضح ومعلن ، ليس أمام جيل الصحابة ومن عاصرهم من غير المسلمين فحسب ، بل ولجميع الأجيال التالية من المسلمين وغير المسلمين؛ ولم يرد الله أن يجعل هذا النقد سرا بينه وبين نبيه ، وذلك ربما يعني أن سرية النقد ليست الأسلوب المندوب أو المفضل في كل الحالات، كما يعني أن النقد المعلن غير مكروه ، بل إنه أكثر من مباح ، إنه مندوب ، إلا مع وجود أسباب موجبة وواضحة ترجح السرية.
وعلى الرغم من هذا السقف العالي من التأصيل لممارسة النقد ، فإنه ليس بالحد الأعلى، أو النهائي ، بل إن السقف الأعلى أبعد منه لدرجة قد تصيب كثيرين من القراء بالدهشة ، على الرغم من أنهم مروا بأدلته و براهينه من قبل ، كما مر بها كثيرون من أشباه "العلماء" الذين تربوا على مقولة "طاعة ولي الأمر" مهما كان منحرفا ما لم يعلن كفره ، وذلك درءا للفتنة حسب زعمهم ، فسقطوا في فتن لا نهاية لها وأسقطوا الأجيال التي اتبعتهم في جحيم متواصل من العبودية للطغاة الفاسدين الذين مارسوا الطغيان وواصلوا نهب وتبديد إمكانات الأمة وجعلوها طعمة لأتباعهم ولأقاربهم ، واستمروا في امتصاص دمائها إلى أن حولوها إلى جثة هامدة. دعونا نستدل على مستوى هذا السقف الأعلى الذي أشرنا إليه ، من خلال آيات القرآن الكريم ، وبكلام الله العلي الأعلى. قال الله

---

319 سورة عبس / 1 - 10.

320 سورة الأنفال / 67 ، وانظر تفسيرها في ***تفسير الطبري*** ، وفي ***تفسير ابن كثير***.

سبحانه وتعالى وهو يصف بعض مشاهد يوم القيامة : **((يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** [321].)) من يجادل من ؟ في هذا المثال وفي هذا الموقف المهيب الرهيب ؟ والجدال يعني الاعتراض ، وقد يعني التغليط بين البشر؛ والله سبحانه وتعالى يعلمنا بقوله : " لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم. "

ويعرض لنا الله جل ثناؤه مشهدا وموقفا للملائكة قبيل خلق آدم عليه السلام ((**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ؛ قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون ومت كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم بسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** [322]**.**)) وهنا يلزمنا أن نشير إلى ما كتبه الفقيه الغرناطي الأندلسـي إبراهيم الشـاطبي " أن الله أحرق أولئك الملائكة عقابا لهم على اعتراضهم [323]" ، لكن الشاطبي لم يبين مصدرا لما قاله سوى عبارة لا ترقى إلى ما يمكن تسميته دليلا أو مصدرا، وهي : **"وروي في الأخبار أن الملائكة لما قالوا أتجعل فيها ..." أحرقهم .** غير أننا نجد في تفسير ابن كثير لآيات سورة البقرة المتعلقة بهذا الموضوع رواية تذهب إلى أن الملائكة الذين صدر عنهم هذا السؤال كانوا عشرة آلاف ، "فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم." وقد استنكر ابن كثير الروايتين اللتين ذكرتا حرق الملائكة ونسبهما إلى المصادر الإسرائيلية ؛ فهل نقل الشاطبي، المتوفى سنة 790 هـ. عن ابن كثير ، المتوفى سنة 774 هـ ، ما وصفه ابن كثير نفسه بأنه إسرائيلي المصدر ، ليؤيد المبدأ الذي اختاره وتحمس لنشره ، تحريم النقد لما يقوله الكبار ؟ ومما يؤسف له أن حماسة المعادين لممارسة النقد والاعتراض ، أذهلتهم عن ملاحظة أن النص القرآني ذاته ينفي ضمنا حدوث "الحرق" المزعوم ، لأن الخبر القرآني ، عن موقف أولئك الملائكة المتعجبين، ولا أقول المعترضين ، من نبأ خلق آدم ، لم ينته بعد قولهم (**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك))** ، كما أنه لم ينته بقول الله تعالى لهم : **(إني أعلم مالا تعلمون)** ، بل إن الحوار استمر ومر في مراحل واستغرق امتدادا زمنيا طويلا نسبيا لا نعلم مقداره، يظهره قوله تعالى : **((وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** [324]**.))** لم ينته الموقف والحوار الذي نشأ عنه إلا هنا عند قوله تعالى : **إلا إبليس أبى واستكبر وكان من**

---

321 ســورة النحل / 111

322 سـورة البقرة / 30 - 34.

323 إبراهيم بن موسى الشاطبي ، ***الموافقات في أصول الشريعـة*** (بيروت : دار الكتاب العربي ، 2008) ، ص 835.

324 سـورة البقرة / 30 - 34.

الكافرين. وهذان النصان ينفيان حدوث الحرق ، ويرشداننا إلى أنه مهما كان المعترض صغيرا فإن صغره أو ضعف رأيه لا يبرر منعه من الكلام أو الحجر على حريته.

النكوص عن ممارسة النقد :

ومما يؤسف له أن المجتمع الإسلامي تخلى عن ممارسة النقد، في كل ما يخص الكبار منذ أيام عبد الله بن عمر ، خاصة تجاه الأقوياء من ذوي السلطان السياسي والمالي والقمعي ، رغبا ورهبا ، كما تخلى عن مواجهة ذوي السلطان الديني جهلا . لقد سكت "العلماء" وأشباه العلماء طويلا عن أداء واجبهم ، ولم يحفلوا بما اقتضاه موقعهم باعتبارهم قادة الفكر والثقافة ، وباعتبارهم القدوة في الأمة، وأهملوا التوجيه القرآني بضرورة مقاومة الظلم والفساد ومحاربته، واكتفى أكثرهم بالدور الذي يعبر عن أضعف الإيمان ، بل إن كثيرين منهم نزلوا عن هذه الدرجة عندما قبلوا أن يكونوا في خدمة الطغاة ، وتناسوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفضل الجهاد كلمة حق عند ذي سلطان جائر" وقوله : "سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام لإمام جائر فأمره ونهاه فقتله." ثم إنهم بنوا منصات عالية لرجال "السلف" ، جيلا بعد جيل، من أول الأجيال الإسلامية ، جيل الأميين ، وخلعوا عليهم القداسة التي تجعل كل أقوال تلك الأجيال وأعمالهم فوق النقد ؛ بينما النقد ، كما استعرضناه في الصفحات السابقة، بمختلف مسمياته ، ضرورة لازمة ، سواء بصيغة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو بصيغة النصح والإرشاد ، والمعنى واحد ، أو متقارب جدا على الأقل ، حتى عندما يكون بصيغة الاستفسار وطلب الإيضاح ، أو بصيغة مقاومة الظلم والظالمين ؛ وقد مارسه الجيل الإسلامي الأول في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اعتراض:

والذين يستنكرون تقصير العلماء في واجبهم ، باعتبارهم قادة الفكر ، ويلومونهم لذلك ، كثيرا ما يواجهون بمن يحتج بموقف " سلطان العلماء " الشهير الذي انتقد تصرفات بعض الحكام في عهده ، وهو: **عبدالعزيز** بن عبدالسلام ، ويلقب ب **"العز بن عبد السلام"** ، كما يلقب ب **"سلطان العلماء"** ، وفيما يلي ننقل شيئا من سيرة حياته ودوره الذي تميز به عن غيره من العلماء.

كتب أبو الفدا ابن كثير ضمن أخبار سنة 660 هـ وذكر من ماتوا فيها ، ومن بينهم ابن عبد السلام:

"ابن عبدالسلام :

عبدالعزيز بن عبدالسلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذب ، الشيخ عزالدين بن عبدالسلام أبومحمد السلمي الدمشقي الشافعي ، شيخ المذهب ومفيد أهله ، وله مصنفات حسان ، منها التفسير ، واختصار النهاية ، القواعد الكبرى والصغرى ، وكتاب الصلاة والفتاوى الموصلة ، وغير ذلك.

ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع كثيرا واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره ، وبرع في المذهب ، وجمع علوما كثيرة ، وأفاد الطلبة ودرس بعدة مدارس بدمشق وولي

خطابتها، ثم سافر إلى مصر ودرس بها وخطب وحكم وانتهت إليه رئاسة الشافعية وقصد بالفتاوى من الآفاق ، وكان لطيفا ظريفا يستشهد بالأشعار.

وكان سبب خروجه من الشام **إنكاره على الصالح إسماعيل [من ملوك الأيوبيين] تسليمه صفد والثقيف إلى الفرنج** [325]، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي فأخرجهما من بلده ، فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب الكرك فأكرمه ، وسار ابن عبدالسلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية. فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين بن بنت الاعز ، وتوفي في عاشر جمادى الأولى [سنة 660] وقد نيف على الثمانين ودفن من الغد بسفح المقطم ، وحضر جنازته السلطان الظاهر وخلق كثير رحمه الله تعالى [326]."

من المؤكد أن ما قام به العز بن عبدالسلام وصاحبه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب كان عملا صالحا ومتميزا ، خاصة وأنه كان مثالا وحيدا يتيما - في حدود ما ذكره المؤرخون - ولذلك استحق لقب سلطان العلماء، لانفراده بالمبادرة. غير أن هذا المثال الوحيد لا يبرئ الأكثرية الساحقة التي لزمت الصمت ، أو الفئة التي اختارت النفاق، واستمرت على ذلك قرونا.

وعندما يتأمل الباحث تقصير العلماء في القيام بدورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (النقد البناء) ومقاومة الظلم والظالمين ينكشف سقوط ادعائهم بكونهم قادة الفكر ، أو "أولو الأمر" كما زعم بعضهم ، وذلك لخطورة أثر هذا التقصير ، مع عدم وجود من يعوض عنه إذ يتمادي الظلام وتتسع دوائر وميادين وآثار الظلم وجرائم الطغاة الذين لا يعبأون بما يعلنه القرآن من إنذارات :

" ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون [327]))

((ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض جميعا لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون[328].))

ونعود هنا ونذكر بقول رسول الله (ص) " الدين النصيحة..." والمعنى العام والظاهر لهذه الجملة المختصرة: أن النصح الصادق المخلص يسوى بالدين جملة .

الأمر القرآني بمقاومة الظلم والظالمين :

---

325 وذلك أثناء الحروب الصليبية ، وتشرذم وتفتت الملوك والأمراء الأيوبيين بعد موت صلاح الدين الأيوبي، ومحاربة بعضهم بعضا ، والاستعانة بالصليبيين والإستقواء بهم ضد إخوانهم ، أثناء الصراع بين الإخوة وأبناء العمومة من أولاد صلاح الدين وإخوته.

326 ابن كثير ، *البداية والنهاية* ، جزء 13 ، ص 200 .

327 سـورة الزمر ، 47.

328 ســورة يونس / 104.

((أذن للذين يقا تلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صلوات وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز [329].))

((فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد[330].))

((ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا [331].))

((وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ، ثم أخذتها وإلي المصير[332].))

"إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب." [حديث نبوي]

وفيما يلي نستعرض أمثلة من مقولات "االعلماء" الذين حرموا النقد ومنعوه عندما يستوجبه سلوك الطغاة المتسلطين:

أمثلة من فرضالحجر على النقد :

أولا: موقف **عبدالله بن عمر** من إقدام معاوية على فرض تولية ابنه الخلافة من بعده بالتهديد [333] .

ثانيا : موقف وتصريح للإمام **مالك بن أنس** الأصبحي:

" قال مطرف بن عبدالله : سمعت مالكا يقول : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور من بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال بطاعة الله، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شئ خالفها ؛ من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير طريق المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا [334].

إن احترام واتباع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ولا يمكن أ، يكون موضع اختلاف بين المؤمنين ؛ لكن الإشكال يبدأ في حالتين :

---

329 سورة الحج / 39 - 40.
330 سـورة الحج / 45
331 سـورة النساء / 75.
332 سـورة الحج / 48.
333 أنظر ص فيما سبق.
334 الإمام مالك بن أنس ، ***صحيح الموطأ*** ، ص 6.

(1) عندما تواجهنا الأحاديث المكذوبة التي تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، كما بيناها بوضوح في الفصول السابقة ؛

(2) عندما نصل إلى : "ولاة الأمور من بعده" ، حسب تصريح الإمام مالك رحمه الله، وضمن باب وأمد مفتوح وغير محدد. فمنذ منتصف خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بدأت صراعات معروفة ، شاركت فيها أعداد كبيرة من الصحابة ، وتكررت وتواصلت بعد ذلك في خلافة علي بن أبي طالب وبني أمية وابن الزبير وبني العباس. وكل ذلك يدخل في معنى "وولاة الأمور من بعده". وإجمال كل ذلك في حزمة واحدة يشكل عملية خلط لعناصر غير متجانسة ولا متساوية، فسنة رسول الله تنضوي ضمن المصدر الأساسي الثاني من التشريع. أما "ولاة الأمور من بعده" فلا تنحصرفي فترة زمنية واحدة مثل ***الخلافة الراشدة*** ؛ لقد حددت بدايتها وتركت نهايتها مفتوحة ، إذ بدأت عمليا ببيـعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولم تحدد نهايتها. وقد توفي الإمام مالك سنة 179 هجرية .

وهنا يلزمنا التذكير بما أوردناه من تصريحات عبدالله بن عمر ، ومقولات محمد ابن القيم وإبراهيم الشاطبي ، ومن اتبعهم وردد مقولاتهم,

فأذا خطونا إلى فترتنا المعاصرة تواجهنا مقولات قريبة من تقديس الماضين ، كما ورد في موعظة المرشد الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله سنة 1982 م : "... أنا عاوز منهاج ليه... عاوز تخطيط ليه ... ما هو أمامي الكتاب اللي الرسول صلى الله عليه وسلم قال... ما إن تمسكت بكتاب الله وسنتي فلن أضل أبدا. ثم شاء الله أن يتفضل علينا بجهابذة من العلماء وضحوا لنا كثيرا في كتب التفسير والكلام عن الأحاديث والأحكام التي تستمد، ولم يتركوا شيئا إلا أوضحوه لنا ... فإذا أصبحنا جميعا عاملين بما في كتاب الله وسنة رسوله لن نعود بعد ذلك في حاجة لشئ بالمرة.[335]" والتلمساني هو المرشد العام للإخوان المسلمين رقم 4. وبعد أربع سنوات (1986) عاد الآستاذ التلمساني إلى الموضوع نفسه وهو يقدم كتابا ألفه الشيخ يوسف كمال ، فقال السيد التلمساني : "حفلت السنوات الأخيرة بفريق من الكتاب المسلمين، لهم علمهم وذكاؤهم ، **ركزوا جهودهم على مخالفة الأئمة الأعلام السابقين ، وأعطوا أنفسهم حق الاجتهاد تفسيرا وتأويلا وتمحيصا ، وقالوا إن السابقين رجال وهم رجال ... ورغبة منا في**

---

[335] عمر التلمساني ، ***جريدة الا تحاد*** ، أبو ظبي، بتاريخ 24 ديسمبر 1982 ، ص 5 ، حيث أوردت جزءا من وقائع الندوة التي نظمتها الجريدة نفسها خصيصا بمناسبة زيارة الأستاذ التلمساني لإلقا محاضرة.

إحقاق الحق نرى أنهم ليسوا أصحاب المكانة فيه، لأنهم لن يصلوا إلى مرتبة السابقين علما وفهما وذكاء وإحاطة ولغة ... أعان الله أخانا يوسف كمال على هذا الرد المبسط مبينا الخطأ فيما ذهبوا إليه[336]." وهذه عبارات لم يحرص المرشد التلمساني على الدقة عندما تركها تتناثر من فمه. وهنا يحسن بنا أن نذكر القراء بما كتبه عبدالسلام البسيوني في مؤلفه ***العقلانية هداية أم غواية*** وأشرنا إليه في فصل سابق ، ص 147 - 151 .

وما أتبناه وأعلنه وأتمسك به أن القرآن هو المرجع الأعلى، مع الحرص على السنة الصحيحة واستبعاد ودفن كل المزورات؛ ثم إنني أومن بالدور المهم للعقل الذي ميز الله به الجنس البشري، وأستنكر وأعارض إية محاولة لإضعاف دوره لأن الله أعلمنا من خلال وحيه أنه أنزله، أي القرآن ، بشكل محدد ومؤكد ليتلقاه أولو الألباب وأولو النهى العقلاء القادرون على التفكر والتدبر ثم ، وليس أولئك الذين يتفننون في الاحتفاء بالنصوص غير القرآنية ، الموروثة من الماضي، مع ضعف أدوات تمييز الأصيل من الدخيل، كما بينا في الأمثلة التي استعرضناها. وفي إشارة سريعة أومأت إلى أن الأحاديث الصحيحة المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تشكل سوى نسبة صغيرة من مجموع الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم زورا وخداعا [337]، كما دعوت الى عدم الاكتفاء بالسند الذي تمكن المزورون من توظيفه لتمرير أهدافهم التخريبية. ليست هناك مشكلة مع الحديث الصحيح ، ولكن المشكلة مع النصوص المزورة التي ألبست ثياب الحديث من خلال تزوير سلاسل السند.

ولقد حاولت ورجوت تركيز انتباه المفكرين على "المبادئ القرآنية الحاكمة" دائما . وبجانب ذلك فقد حرصت على تأكيد أهمية دور **النقد** ، باعتباره من أهم المبادئ القرآنية الحاكمة ، مع بيان وتأكيد أن **"النقد"** و **"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"** يشيران لنفس المبدأ من الناحية العملية. ولست أشك في أن حالة التخلي عن النقد الموجه لمن يسمون الكبار ، التي استمرت قرونا طويلة وما زالت ، أدت إلى استقرار كل الأخطاء والانحرافات والغفلات، ورسختها وأعطتها الشرعية زورا أوغفلة أوجبنا وفرارا من مواجهة الانحراف والظلم ، حتى صارت تلك الانحرافات جزءا من الرصيد والتراث الفكري المرجعي، بل غلبت عليه، فصارت في أول واجهته ، بينما هي أهم أسباب العجز والكسل والخمول والفشل والضياع المحيط بنا من كل جانب.

---

[336] عمر التلمساني ، تقديمه لكتاب ***العصريون معتزلة اليوم*** ، ص 5-6.، وقارن مع : عبدالسلام البسيوني، ***العقلانية هداية أم غواية*** (المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، 1992) ، ص 9 - 13 وما بعدها.

[337] أنظر ص فيما سبق من هذا الكتاب

ونختتم هذه الأمثلة بشئ مما خرجه ونشره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله من مجموعة أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي ، ومناقب الشام وأهله لشيخ الإسلام ابن تيمية:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها: دمشق ، من خير مدائن الشام." [وعلق الشيخ الألباني فقال :] حديث صحيح أخرجه أبو داود ... والحاكم ... وأحمد... وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وأقره المنذري ... وهو كما قالوا.

-- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسوالله صلى الله عليه وسلم: "أربع مدائن من الدنيا في الجنة: مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق. وأربع مدائن من مدائن النار : رومية ، وقسطنطينية ، وصنعاء ، وأنطاكية..." وقدعلق الشيخ الألباني: " قلت حديث موضوع ، في إسناده الوليد بن محمد الموقري، قال ابن حبان وغيره : (روى عن الزهري أشياء موضوعة لم يروها الزهري قط.) قلت [الألباني قال]: وهذا من روايته عن الزهري ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، فأصاب ... ونص كلام ابن الحوزي : (لا أصل له ، والوليد كذاب...).

-- عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ستكون دمشق في آخرالزمان أكثر المدن أهلا، وهي تكون لأهله معقلا ، وأكثر أبدالا ، وأكثر مساجد ، ، وأكثر مالا ، وأكثر رجالا ، وأقل كفارا . ألا وإن مصر أكثر المدن فراعنة ، وأكثر كفورا ، وأكثر ظلما ، وأكثر رياء وفجورا وسحرا وشرا ،

فإذا عمرت أكنافها بعث الله عليهم الخليفة الزائد البنيان ، والأعور الشيطان والأخرم الغضبان ، فويل لأهلها من أتباعه وأشياعه." ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور**[338].)) قلت: [الألباني قال] حديث منكر تفرد بروايته محمد بن إبراهيم ... فهو مجهول الحال ، وسائر رواة الحديث ثقاة غيره... غير أن حديثه هذا فيه جملة صحيحة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي خروج المهدي ؛ والأحاديث في ذلك كثيرة جدا ، وأشهرها حديث منسوب إلى عبدالله بن مسعود مرفوعا :" لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي ، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما." ثم انعطف الالباني ليقول

[338] سـورة سبأ / 17

لقرائه : "وقد أخطأ ابن خلدون خطأ واضحا حيث ضعف أحاديث المهدي كلها ، ولا غرابة في ذلك فإن الحديث ليس من صناعته. والحق أن الأحاديث الواردة في المهدي فيها الصحيح والحسن وفيها الضعيف والموضوع ، وتمييز ذلك ليس سهلا إلا على المتضلع في علم السنة ومصطلح الحديث [339]. "

ويلاحظ مما نقلناه هنا عن الألباني أن العامل الحاسم في حكمه على الحديث ، بالصحة أو بالضعف والتزوير ، إنما يتجسد في رجال سلسلة السند ؛ وهذا هو المنهج الغالب عند المشتغلين برواية الحديث.

وزعم الألباني "أن الأحاديث الواردة في المهدي فيها الصحيح والحسن ... "، هذا الزعم ينقضه ويفضح خطأه النص القرآني في عدد من الآيات التي سنوردها بعد قليل. وتخطئة الألباني لابن خلدون هي الخطأ بعينه ، ليس لأن ابن خلدون من كبار علماء الدين المسلمين فحسب ، بل ولأن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ليس من أقرانه ، مع احترامنا للألباني وابن خلدون كليهما؛ ومصدر الخطأ عند الألباني هو المنهج الذي يعتمد بالدرجة الأولى على تصنيف رجال السند ، وعلى الرواة الأولين الذين يعتبرون من الصحابة، وعلى تعريف أهل الحديث للصحابي، إذ أن المجتمع الإسلامي في العهد النبوي ضم الصحابة ، كما ضم كثيرين من المنافقين الذين لم تكن أسماؤهم معروفة حتى للنبي نفسه، كما يخبرنا القرآن ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ؛ وهذا يعني أن كل واحد من هؤلاء المنافقين المجهولين الكثر ظل يعتبر صحابيا عند متبعي المنهج المعتمد على السند بشكل رئيسي ، وعلى أن الصحابة كلهم عدول. و السند هو الذي كان يحفظه المحدثون والمشتغلون بالحديث غيبا عن ظهر قلب، قبل البدء بتسجيل الحديث في القرن الثاني ، واستمرت وسيلة الحفظ بعد ذلك طويلا ، كما أشرنا من قبل ، مع ما في الطبيعة البشرية من النسيان والتعرض للخلط اللا إرادي. والمنزه عن النسيان هو الله جل وعلا وحده ، **((وما كان ربك نسيا [340].))** هذا فضلا عن ثقافة ابن خلدون الإسلامية والعامة ، وخبراته الحياتية، أوسع بكثير مما كان لدى الشيخ ناصر الدين الألباني بدرجة لا تسمح بالمقارنة ؛ رحمهما الله جميعا ، ورحمنا.

إن تزوير أحاديث ظهور المهدي وأحاديث فضائل الشام، أو فضائل غيرها من البلدان ، تكشفه الفكرة الرئيسية في محتوى هذه الأحاديث ، وهي افتراض أن رسول الله

---

[339] محمد ناصر الدين الألباني ، ***تخريج أحاديث فضائل الشام للربعي*** ، ص34 - 48.

[340] سـورة مريم / 64.

صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغيب ، بل لقد اعتبر كثيرون من المحدثين وبعض المفسرين أن تلك الأحاديث التي يعرض فيها الرسول وكأنه يعلم الغيب بما يمكن أن يحدث مستقبلا حتى آخر الزمان او قيام الساعة، تعتبر هي نفسها من دلائل نبوته ، على أساس أنه يعلم الغيب[341] ، وذلك رغم تأكيد القرآن وتأكيد الرسول نفسه بأنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب . وقد نفى النص القرآني هذه الفكرة ببيان واضح لا يترك مجالا لأي تأويل، كما نفاها النبي نفسه صلى الله عليه وسلم ، وفيما يلي بعض من ذلك :

((قل **لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي ؛ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون [342]))**

((ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون [343].))

((قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله [344]...))

ومع هذه الآيات الواضحات البينات لا نجدنا بحاجة إلى استدعاء أحاديث من الصحيحين تنفي عن النبي علم الغيب ، كما تنفي عنه ادعاء ذلك، وهي موجودة ، وهذا أحدها :

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار [345]." ، والمعنى الواضح لهذا الحديث أن الرسول لم يكن يعلم الغيب - حتى وهو في موقف القضاء بين خصمين يقفان ويتحدثان أمامه ، وهو يستحضر أن أحدهما يمكن أن يكذب ليضلله ويجعله يصدر حكما ظالما من غير أن يدري ويعطي القيمة المتنازع عليها لغير صاحبها وكأنه قطع له قطعة من النار؛ ولذا لجأ صلى الله عليه وسلم إلى استثارة بقايا الإيمان في نفس المؤمن الذي هزمت إيمانه الضعيف شهوة التملك والاستحواذ من الطريق المحرم.

---

[341] ابن كثير له كتاب بعنوان ***دلائل النبوة*** ، أدخله ضمن موسوعته التاريخية ***البداية والنهاية*** ، مجلد 3 ، جزء 6، ص58 - 218 وقد وردت ضمن نصوص الكتاب أحاديث مكذوبة ، ونبه ابن كثير إلى كونها موضوعة ، ومنها حديث رد الشمس.

[342] سـورة الأنعام / 50.

[343] سـورة الأعراف / 188

[344] سورة النمل / 65.

[345] البخاري ، ***الجامع الصحيح*** ، باب الحيل.

وهذا إعلان نبوي قوي ينفي فيه النبي عن نفسه علم الغيب ، بجانب ما ورد في الآيات القرآنية التي اقتبسناها.

ومما روي عن عائشة أم المؤمنين : " ... ومن زعم أن محمدا يعلم ما في غد فقد أعظم الفرية على الله[346] ."

وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن الأحاديث التي تحمل ادعاء ظهور المهدي قبل يوم القيامة إنما هي أحاديث شيعية جرى تسريبها إلى المصادر السنية من خلال تزييف سلسلة سند مما تحويه كتب الرجال التي لم يعد محتواها علما مجهولا لا يعرفه غير المحدثين المتخصصين في حفظه غيبا، كما كانت الحال في القرون الأولى ، بل إنه صار في إمكان أي شخص عنده القدرات المناسبة - حتى لو كان من غير المسلين - أن يستخرج من كتب الرجال ، ويصوغ سلسلة سند ثم يربطها باسم أشهر المحدثين من الصحابة.

أمثلة من تزوير الأحاديث النبوية أداة في الصراع على السلطة:

وعندما نقرأ تاريخ احتدام الصراع سنة 36هـ ، على أثر تمرد والي الشام معاوية بن أبي سفيان على الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، نكتشف أمثلة مريعة من أقدام مزوري الحديث النبوي على الكذب والاختلاق لمناصرة مشروع معاوية لاغتصاب الخلافة، وسنكتفي باستعراض بعض الأمثلة مما حفظته لنا المصادر:

لقد كان مما أورده الحافظ ابن عساكر، وأبو الفدا ابن كثير وغيرهما : "عن ابن عباس قال : أتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، اقرئ معاوية السلام واستوص به خيرا فإنه أمين الله على كتابه ووحيه، ونعم الأمين." وكان مما ذكره ابن عساكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم استشار جبريل في استكتابه معاوية، فقال استكتبه فإنه أمين."

وعن هشام بن عروة عن عائشة قالت : لما كان يوم أم حبيبة من النبي، دق الباب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنظروا من هذا، قالوا : معاوية " ، [ثم دخل] معاوية فسأله النبي ... " ما هذا القلم على أذنك يا معاوية ؟ قال: قلم أعددته لله ورسوله. فقال له جزاك الله عن نبيك خيرا، والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله ، ومأأفعل صغيرة

[346] ***صحيح البخاري*** ، كتاب التفسير.

ولا كبيرة إلا بوحي من الله. كيف بك لو قمصك الله قميصا؟ - يعني الخلافة - فقامت أم حبيبة بين يديه وقالت : يا رسول الله ، وإن الله مقمصه قميصا ؟ قال نعم ، ولكن فيه هنات وهنات. فقالت : يا رسول الله، فادع الله له ، فقال: اللهم اهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى [347].

وأضاف ابن كثير إلى ذلك : وقد أوردنا من طريق أبي هريرة وأنس ووائلة بن الأسقع مرفوعا : " الأمناء ثلاثة : جبريل ، وأنا ، ومعاوية.[348]". وكان مما علق به ابن كثير على ذلك قوله: "وأورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة ؛ والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها."

ومن رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "الأمناء سبعة : القلم، واللوح، وإسرافيل ، وميكائيل، وجبريل، وأنا ومعاوية." وهنا علق ابن كثير ثانية : "وهذا أنكر من الأحاديث التي قبله، وأضعف إسنادا"[349].

وهنا سنضيف ثلاث روايات شيعية فريدة ومذهلة في طرافتها:

لقد نسب إلى الإمام جعفر الصادق أنه روى عن آبائه: "كان العباس بن عبدالمطلب ويزيد بن قنعب جالسين بإزاء المسجد الحرام ، إذ أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم - أم أمير المؤمنين علي عليه السلام - وكانت حاملة بأمير المؤمنين لتسعة أشهر... فوقفت بإزاء البيت الحرام وقد أخذها الطلق ، فرفعت بطرفها نحو السماء وقالت : أي رب إنني مؤمنة بك ، وبما جاء به من عندك الرسول، وبكل نبي من أنبيائك ، وبكل كتاب أنزلت ... فأسألك بحق هذا البيت ... وبهذا المولود الذي في أحشائي ، الذي يكلمني ويؤنسني بحديثه ، وأنا موقنة بأنه إحدى آياتك ودلائلك ، لما يسرت علي ولادتي.

قال العباس بن عبدالمطلب ويزيد بن قنعب : لما دعت فاطمة بنت أسد بهذا الدعاء رأينا البيت قد انفرج من ظهره فدخلت فيه فاطمة وغابت عن أبصارنا ، ثم عادت الفتحة والتزقت بإذن الله تعالى ، فرمنا أن نفتح الباب ليصل إليها بعض نسائنا ، فلم ينفتح الباب ، فعلمنا أن ذلك أمر الله تعالى ؛ وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيام - وأهل مكة يتحدثون بذلك في أفواه السكك ... فلما كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من الموضع الذي

---

[347] ابن عساكر ، ***تاريخ دمشق*** ، جزء 12 ، ص 47 ، ويتكرر في ص 49 نقلا عن الطبراني . وأم حبيبة هي إحدى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخت معاوية ابن أبي سفيان، وكانت قد أسلمت في وقت مبكر، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها السابق الذي توفي أثناء هجرته ، وتزوجها النبي بعد ذلك .

[348] ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، مجلد 8 , ص 105.

[349] إبن كثير ، ***نفس المصدر*** والصفحة.

كانت قد دخلت فيه ، فخرجت فاطمة وعلى يديها علي ثم قالت : معاشر الناس، إن الله قد اختارني من خلقه ... وفضلني على كل من مضى قبلي من نساء العالمين لأني ولدت في بيته العتيق... فلما أردت أن أخرح وولدي على يدي هتف بي هاتف وقال : يا فاطمة، سميه عليا ، فأنا العلي الأعلى ... وإني اشتققت اسمه من إسمي وأدبته بأدبي وفوضت إليه أمري" ووقفته على غامض علمي وولد في بيتي ... وهو الإمام بعد حبيبي ونبيي ... محمد ... فطوبى لمن أحبه ونصره ، والويل لمن عصاه وخذله وجحد حقه. قال : فلما رآه أبو طالب سره ، وقال علي : السلام عليك يا أبه ورحمة الله وبركاته ... ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل اهتز له أمير المؤمنين وضحك في وجهه وقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته ، ثم تنحنح بإذن الله تعالى وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون - إلى آخر الآيات. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أفلحوا بك. وقرأ تمام الآيات إلى قوله: أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت والله أميرهم تميرهم من علومك فيمتارون ، وأنت والله دليلهم وبك يهتدون. ... فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه في فيه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قال فسمى ذلك يوم التروية ..[350]."

وهنا لا بد من إضافة ملاحظة توضيحية : إن كل المصادر السنية والشيعية تخبرنا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولد سنة ثلاثين بعد عام الفيل ، وأن النبي محمدا (ص) ولد عام الفيل ، وأنه كلف بالرسالة عندما بلغ الأربعين من العمر؛ ومعنى ذلك أن عليا ولد قبل البعثة النبوية بعشر سنين. وهذه الحقائق تبين وتكشف الكذب والتزوير عندما يقال إن عليا تفوه بتحية : السلام عليك يا رسول الله ... وقرأ الآيات الأولى من سورة "المؤمنون" بعد ولادته بيومين، في وقت لم يكن محمد نبيا ولم تكن سورة الفتح قد أنزلت ،هذا بجانب الزعم بأنه تكلم وقرأ وتنحنح للقراءة في تلك السن !

وعندما يتفوه شيخ الطائفة ، الطوسي بهذا الكلام سنة 457 هجرية ويمليه على أتباعه في درسه الأسبوعي يوم الجمعة فمعنى ذلك أنه استباح لنفسه الكذب ليس على سبيل التقية ، حيث لم يكن هناك أي خطر يتهدده ، بل استباح الكذب دعاية هدفها تثبيت وتعميق الإيمان بأن حالة خلق علي حدثت بصورة مختلفة عن بقية البشر، بما في ذلك محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعندما تزرع مثل هذه الحكايات المزورة في

[350] الطوسي : ***كتاب الأمالي*** ، ص 981- 982 ، مجلس يوم الجمعة رقم 42 ، 24 ذي القعدة سنة 457 هـ.

عقول الناس البسطاء، أميين وأشباه أميين يغدو من السهل أن يساقوا عميانا في أي اتجاه يختاره "ملاليهم".

مزيد من الروايات الشيعية :

- عنعنة ... ونسب إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "أتيت فاطمة صلوات الله عليها فقلت لها أين بعلك؟ فقالت: عرج به إلى السماء. فقلت : في ماذا ؟ فقالت: إن نفرا من الملائكة تشاجروا في شئ، فسألوا حكما من الآدميين ، فأوحى الله تعالى إليهم أن تخيروا ، فاختاروا علي بن أبي طالب عليه السلام." [351] .

- قال جعفر الصادق،[بل نسب إليه القول] : " علم رسول الله صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام ألف باب يفتح كل باب ألف باب ... وإن عندنا الجامعة... صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله صلى الله عليه وإملائه ، ...وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شئ يحتاج الناس إليه... وإن عندنا الجفر ... وعاء من أدم، فيه علم النبيين والوصيين ، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل ... وإن عندنا لمصحف فاطمة ... مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد. إن عندنا علم ما كان وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة."

وتعريفا بمصحف فاطمة نسب إلى جعفر الصادق القول : إن الله تعالى لما قبض نبيه دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل الله إليها ملكا يسلي غمها ويحدثها ، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال : إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي لي ؛ فأعلمته بذلك ، فجعل أمير المؤمنين عليه السلام يكتب كل ما سمع حتى أثبت من كل ذلك مصحفا... أما إنه ليس فيه شئ من الحلال والحرام ، ولكن فيه علم ما يكون[352]."

وفي الشهور الأخيرة ابتعت نسختين من طبعتين جديدتين مختلفتين لكتاب ***الموطأ*** للإمام مالك بن أنس المتوفى سنة 179 هـ ؛ والكتاب من أول المجموعات الحديثية ظهورا إن لم يكن أولها؛ وأهم ما يلفت النظر في إحدى الطبعتين أنها صدرت في مجلدين ، أحدهما بعنوان ***صحيح الموطأ*** ، ويقع في 881 صفحة من القطع الكبير ، بينما المجلد الثاني يقع في 204 صفحات فقط ، ويحمل عنوان ***ضعيف الموطأ*** ؛ وقد بلغ

---

[351] الشيخ المفيد ، الإختصاص ، ص 213.

[352] الكليني ، *أصول الكافي* ، ص 136-137.

عدد الأحاديث التي صنفت في الضعيف 333 حديثا. وقد صدرت هذه الطبعة من الكتاب عن دار ابن حزم في بيروت سنة 1433 هـ / 2012م ، وأعدها فضيلة الشيخ الدكتور المحدث أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي ، وهو من تلاميذ وأتباع الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى، ولعله يكون خليفته في موقعه عند أتباعه أيضا. ويقدم لنا الدكتور الهلالي باعتباره المشرف العام لمركز السلف الصالح للبحوث التحليلية والدراسات الاستراتيجية ومجلة الصحيفة الصادقة. ونقرأ ضمن مقدمة الدكتور سليم الهلالي لصحيح الموطأ ما يلي :

" أن كتب السنة المطهرة حوت الأحاديث الصحيحة والأحاديث الضعيفة ، بل الموضوعات : فمثلا سنن الترمذي ليست كل الأحاديث صحيحة عند الإمام الترمذي ، بل ذكر جملة كبيرة من الأحاديث الضعيفة أو المنكرة ، وكان على علم بها ، بل أعلها بنفسه رحمه الله. وكذلك نقل عن شيخه إمام الصنعة وأمير المؤمنين في الحديث ، الإمام البخاري ، تضعيفه لبعض تلك الأحاديث. ومن أسباب ذكر الترمذي لهذه الأحاديث الواهية في "جامعه" أن بعض الفقهاء عمل بها ؛ فشرطه رحمه الله واسع جدا[353]. " وكذلك سنن أبي داود ، فقد سكت الإمام أبو داود عن أحاديث كثيرة مما يدل على ضعف جلها عنده. وكذلك الإمام النسائي أعل أحاديث كثيرة في سننه، وهو واضح لمن تدبره ، جلي لمن تأمله. وأما ابن ماجه فالأحاديث الضعيفة لا تخفى في سننه بل الموضوعة.[354].."

والنقطة الأهم في هذه العبارات التي نقلناها عن الدكتور المحدث سليم الهلالي أن مشاهير المحدثين أدخلوا في مجموعات أحاديثهم بعض الضعيف - وحتى الموضوع - عن وعي وقصد.

353 مقدمة ***صحيح الموطأ*** ، ص 14.

354 ***المصدر نفسه***

الفصل الثاني عشر

تغير أنظمة الحياة وأثره في تطور التشريع:

لو حاولنا أن نسترجع صورا ومشاهد من حياة المجتمعات الإسلامية يوم كانت يثرب عاصمة للدولة الإسلامية حتى سنة أربعين هجرية، ومشاهد من حياة المجتمع الإسلامي في دمشق بعد أن غدت عاصمة "الخلافة" الأموية ، ثم بعد سنة 145 هـ ، بعد بناء بغداد لتصبح عاصمة الدولة العباسية حتى سنة 656هـ.[355] ، فسوف تتجسد أمامنا صور ومشاهد مختلفة من حياة المجتمعات الإسلامية في كل حقبة من هذه الأحقاب الطوال ، مما أثر تأثيرا واسعا وغير محدود في حياة الأفراد والأسر والقبائل والجماعات المختلفة، في أعدادهم ومساكنهم وعملهم وطرق سعيهم وعلاقاتهم البينية.

فإذا انتقلنا خطوة أخرى مماثلة لاستجلاء مظاهر وأنماط حياتنا المعاصرة في القرن العشرين الميلادي وأوائل القرن الحادي والعشرين ، فإننا سنجد التغيير والاختلاف أكبر وأوسع من كل ما خطر ويخطر على البال في خيال الإنسان وتصوراته.

---

[355] مع حذف سنوات خلافة المتوكل الذي بنى سامراء وجعلها عاصمة لخلافته.

وهذا يسوقنا إلى تناول موضوع تطور أنظمة الحياة وتشريعاتها وقوانينها بحكم ما حدث ويحدث من تغير في واقع المجتمعات وظروف جياتها زمانا ومكانا. وقد تناول هذا الموضوع بعض الفقهاء المشهورين القدامى في إطار زمانهم . ولعل الإمام محمد بن إدريس الشافعي كان أول من أدرك أهمية تغير الزمان والمكان بالنسبة للفكر التشريعي. وقد اشتهر عنه أنه طبق هذا المبدأ بعد أن انتقل من العراق إلى مصر، ونجد في المصادر إشارات عديدة إلى قوله "في القديم" وقوله "في الجديد" إشارة إلى الفترتين اللتين كان فيهما التغير والانتقال في إفتائه [356].

ومع ذلك لا يجوز لنا أن تفوتنا ملاحظة أن القرآن الكريم والسنة النبوية تعرضا لهذا الموضوع بوضوح تام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى في ظروف كان التغير فيها عارضا ومؤقتا وقصير الأمد خلال العقود الأولى من التاريخ الإسلامي. وأظهرما في ذلك تقصير الصلاة في حالة السفر ، وإعفاء الصائم المسافر، وكذلك المريض، من الصيام أثناء سفره،على أن يقضي ويعوض المسافر ما فاته من صيام بعد انتهاء السفر : (**(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون[357].**)) أما فيما يتعلق بالصلاة أثناء السفر فنقرأ في سورة النساء: **((وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكمم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا.[358]**)) وبهذ التوجيه تقصر صلاة الفرض الرباعية وتؤدى ركعتان بدلا من أربع. وكما أشرنا فإن هذا التغيير المؤقت شرع لظروف عارضة كان أمدها قصيرا. وقد أعلن الله سبحانه وتعالى ، الرحمن الرحيم بخلقه ، سبب وهدف هذا التعديل : **((يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون. وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ؛ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون [359].**)) وهذا النص القرآني يحدد ويعلن مبدأ عام التطبيق في شرع الله وفي حياة المجتمعات الإسلامية كلها لا تنحصر فاعليته وأثره ضمن الظروف المتغيرة عرضا ولأمد قصير ومحدود فحسب. ومن أمثلة التغيير المبكر ما ذكرناه

---

356 أنظر ابن القيم ،***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، ص 950 - 951 ، حيث أورد مثلا لهذا التطور في اجتهادات الشافعي.

357 سـورة البقرة / 183 - 184 .

358 سـورة النساء / 101 ، وانظر تفسير الأية في تفسير ابن كثير :***تفسير القرآن العـظيم***.

359 سـورة البقرة / 185.

باختصار تحت عنوان "التطور الذي طرأ في التوجيهات القرآنية بعد الهجرة إلى يثرب (ص 15-16)، وكان مما قلناه هناك :

وهذا **المبدأ القرآني** الموثق نصا وفعلا ، منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينبغي أن يظل حاضرا في عقول وذاكرة "الفقهاء" في كل العصور ، لكنه غاب في عتمة الفوضى وضبابها منذ أن غطت آفاق عالم الإسلام. ويلزمنا أن نستحضر أمثلة قليلة من مشــاهد التغير الهائل في مســارات **"الأزمنــة والأمكنــة والأحــوال والـنـيات والعوائد." [360].**

لقد بزغت شمس الإسلام في جزيرة العرب سنة 610 من التقويم الميلادي قبل ثلاث عشرة سنة من بداية التقويم الهجري الإسلامي سنة 622م/ 1هـ. وشهدت الفترة التي عاشها محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا ، حدوث تغيرات كبيرة في حياة آلاف من الناس أفرادا ، وفي حياة كثير من المجموعات القبلية والبشرية ، وفي تشكل الأحوال السياسية بصورة عامة. وقد خصص ابن القيم[361] في كتابه ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، فصلا بعنوان:

"فصل في تغير **الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد"،** [ص 598 - 606] ، وصفه بأنه " فصل عظيم جدا ، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة [362]..." ومما لا يحتاج إلى بيان أن اهتمام ابن القيم كان موجها إلى العصر الإسلامي وما شهدته هذه الساحة من تغيرات. ولكنه عندما شرع يقدم أمثلة لشرح فكرته سقط في التناقض ، وتحول للدفاع عن استبداد الحكام الفاسدين، وذلك حين قال:

"إن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لإمته إيجاب إنكار المنكر[363] ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه ... فإنه لا يسوغ إنكاره ... كالإنكار على الملوك والأمراء والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في

---

360 ما بين الحاصرتين اقتباس من الإمام محمد بن قيم الجوزية ، ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، ص 598.

361 تـوفي ابن القيم سنة 751 هـ .

362 محمد بن القيم ،***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** (بيروت :: دار الكتاب العربي ، 2004) ، ص 598 - 599.

363 انكار المنكر مبدأ أبرزته آيات كثيرة في كتاب الله وجاء تشريعه في السنة اتباعا لذلك.

قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها... فقال لا ما أقاموا الصلاة ... وقال : من رأى من أميره ما يكره فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعة.[364] "

هنا يلزم للقارئ والمتلقي أن يقف ويتساءل : كيف نحدد : المنكر والأنكر منه ، وكيف نقيس الفرق بين الحالتين ، فنص ابن القيم تضمن حكما عاما بأن الاعتراض على الحكام الفاشلين الفاسدين تنتج عنه حالة أكثر سوءا ، ويترتب على هذا الحكم أن السكوت والرضا بالواقع أفضل من رفضه ومعارضته. هذا فضلا عن التعميم المطلق الذي يفهم منه ضمنا : أن أية حالة مقاومة للحكم الفاسد سينتج عنها شر وفساد ومنكر ، أفسد وأنكر من الحالة السابقة، فالذي أوصى به محمد بن القيم هو الرضا والاستسلام. وهذا هو موقف أكثر السلفيين؛ ووصيته هذه تنضح وتفيض بخطأ كبير.

فهل هذا فهم صحيح لتوجيهات القرآن ؟ وهل يتفق مع ما يعلنه الخطاب الإلاهـي عما ينبغي على المسلمين - أفرادا وجماعات - أن يواجهوا به الظلم والفساد ؟

الموقف السلفي الذي انطلق ونما وامتد منذ إعلان عبد الله بن عمر بن الخطاب في النصف الثاني من القرن الهجري الأول عند ثورة أهل المدينة ضد خلافة يزيد بن معاوية تبنى فكرة التسليم والرضا وعدم الاعتراض ، وأدان كل اعتراض وحذر منه.

وهكذا صار أمام الأجيال الإسلامية التالية اختـيار واحد من طريقتين متعاكستـين شهدتهما المدينة (يثرب)سنة 64هـ : خيار الأكثرية التي ثارت، وخيار الأقلية التي رضيت وخضعت وتعاونت مع الظالمين.[365]

والحقيقة الكبرى التي غابت عن ابن القيم "أن أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر" هو دور "الفقهاء" في إقناع الشعوب بالسكوت على فساد الحكام والخضوع لاستبدادهم وظلمهم. وتحت حماية هذا الفقه المعوج مارس أكثر خلفاء بني أمية وبني العباس ومن جاؤوا بعدهم وتبعوهم ونسجوا على منوالهم، الظلم والاغتصاب والاستبداد والفساد . ولا شك أن ابن القيم عرف كل هذا التاريخ وبكل تفاصيله ، وبكل ما ترتب عليه وتوالد منه من فساد وظلم وتبديد لمصالح ومقومات حياة الأمة ومستقبلها. أما الحديث النبوي بشأن عدم الخروج عن طاعة الأمراء فإنه يتعلق وينحصر**بسلطة أمراء الحرب والقتال خاصة** ، كما ذكرنا ، وليس بالخلفاء أو بولاة الأقاليم في الحياة المدنية

---

[364] ***المصدر نفسـه***، ص 599 - 600 ، وهذ الحديث الذي استخدمه ابن القيم بشكل خاطئ وفي غير محله ، خاص بأمراء الحرب قادة البعثات العسكرية كما ذكر الإمام الشافعي (*الرسالة* ، ص 79 - 81.).

[365] يرجى من القارئ مراجعة ما كتبناه عن فترة خلافة يزيد بن معاوية ، ص --- فيما سبق من هذ الكتاب.

العادية خارج أجواء الحرب والقتال ؛ فخلال السنوات العشـــر التي أمضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة كلف سبعة وأربعين شخصا من صحابته بقيادة قوات عسكرية ، بأحجام وأعداد مختلفة ، لتقوم بمهمات قتالية أو استطلاعية ، وكان قائد كل مجموعة منهم يسمى "أميرا."، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعين شخصا واحدا ليكون خليفة أو أميرا للأمة كلها ، أو للمؤمنين عامة ، حتى وهو على فراش الموت قبل وفاته. وعلى هذا الأساس نسبت خصوصية الأمر بالطاعة إلى أمراء الحرب.
وحتى في الأنظمة العسكرية الحديثة فإن طاعة رؤساء المجموعات والفرق العسكرية - صغيرة أو كبيرة - طاعة مطلقة ولا نقاش فيها.

أما الآية القرآنية : ((**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واؤلي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا.**[366])) فمعناها يبين أنها لا تشير إلى أمراء الحرب ولا تتعلق بظروف الحرب، لأنها تخاطب المؤمنين بصفة جمعية ، كما أنها لا تأمر بالطاعة المطلقة ، بل توجه طرفي الخلاف إلى إحالة النزاع لحكم الله ورسوله ؛ وحالة الحرب وظروف القتال لا تسمح بذلك ، حتى بالنسبة لإحالة الموضوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء حياته، فالرسول كان مكانه المعتاد في المدينة والمهمة الحربية ربما كانت في منطقة بعيدة جدا تحتاج سفرا يستغرق أياما. وأما بعد وفاة الرسول فإن : "فردوه إلى الله" تعني رده إلى كتاب الله، وهو المصدر الأول للتشريع ، أما رده إلى الرسول فيعني سنة رسول الله ، وهي المصدر الثاني للتشريع. والآية القرآنية لم تأمر بطاعة مطلقة، بل أشارت إلى إمكان حدوث الاختلاف بين المسلمين ، ولم تذم هذا الخلاف أو تنفي عنه الشرعية، لأن الاختلاف جزء من طبيعة البشر ، ولم توجه الآية إلى ضرورة الالتزام بطاعة ولي الأمر عند حدوث هذا النوع من النزاع، بل أشارت إلى إحالته إلى الله ورسوله ، وذلك يمكن أن يحدث في حياة الرسول ؛ ونص آية سورة النساء هذه لا يترك مجالا لأن يكون الأمر بالطاعة بالصورة التي وردت في الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلقة بالطاعة المطلقة لمغتصبي منصب السلطة العليا/الخلافة من الانقلابيين ، عسكريين كانوا أو مدنيين.

---

[366] سـورة النساء / 59 .

وقد نبه الأمام الشافعي إلى هذه الحقيقة حين قال: إن الأمراء المقصودين هم أمراء الحرب [367] وكنت قد تعرضت لهذا الموضوع في كتاب سابق بتفصيل أوسع .

ومضى ابن القيم في استعراض الأمثلة التي اختارها لتأييد مقولتـه عن الحاجة إلى تغـير الفـتوى ، ومنها :

- أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أن تقطع الأيدي في الغزو[368].

- **وأن** عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسقط القطع عن السارق في عام المجاعة[369].

- ثم ما افتى به فقهاء سابقون بأن تكون صدقة الفطر من غالب قوت البلد" (ص606)

- ثم الخلاف بين الفقهاء حول عدم رد صاع من التمر (ص607) ،

- و"منع الحائض من الطواف بالبيت" في الحج. وهذا الموضوع الأخير شغل أربع عشرة صفحة من كتاب ابن القيم (ص 607 - 618) ، وهكذا ابتعد عن الموضوع الأصلي ، موضوع **"تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأحوال والنيات والعوائـد"**، الذي وصفه بأنـه فصل عـظيم جدا ، وهو فعلا كذلك ، غـير أن أكبر اهتمام ابن القيم تحول وتركز على حشـد ما اعتبره أدلة تحظر على المسلمين الاعتراض على الولاة والحكام الطغاة الفاسدين ، وعلى أخذ البيعة بالإكراه ، متبعا في ذلك مثال الموقـف الخاطئ الذي أعلنه عبدالله بن عمر في معارضته للأغلبية الساحقة من أهل المدينة يوم ثاروا ضد تولية يزيد بن معاوية الخلافة ، وضد أخذ معاوية البيعة لابنه تحت التهديد بقتل المعارضين لتلك البيعة.

وهذه الأمثلة من التعديلات الجزئية في التشريع التي أوردها واستشهد بها ابن القيم ، وتلك التي أشرت إليها قبل قليل ، من تقصير الصلاة ، وجمعها في حالات السفر ، وما يتعلق بالصيام ، كلها ، إنما حدثت أو ظهرت في غضون عشرين سنة من نشأة وحياة المجتمع الإسلامي، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي العهد الراشدي ، ولا تعد تغيرات كبيرة بالنسبة للتغييرات الشاملة والكبرى التي شهدتها المجتمعات الإسلامية خلال القرون التي سبقت ولادة ابن القيم وتلت وفاته، ثم تواصلت بعد ذلك حتى عصرنا ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري !

---

[367] الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، *الرسـالـة* ، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة : مكتبة دار التراث، ط2 ،1979)،ص79 - 80 .

[368] صفحة 601 .

[369] صفحة 605 .

موقف جابر بن عبدالله الأنصاري :

ويلزمنا أن نشير إلى موقف صحابي آخر أرفع مكانة من عبدالله ابن عمر ، وهو جابر بن عبدالله الأنصاري[370] ، الذي خالف موقف عبدالله بن عمر ـ واعتبر بيعة يزيد ابن معاوية بيعة ضلالة ، وذهب إلى أم سلمة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرها فقال: **"هذه بيعة ضلالة ، وقد خشيت أن أقتل"** ، فنصحته أن يبايع ليتجنب القتل [371].

ثورة أهل المدينة ضد خلافة يزيد بن معاوية:

والأبلغ من قول جابر بن عبدالله الأنصاري وغيره من الصحابة أفرادا ، ذلك العمل الجمعي الذي قام به أهل المدينة، في ثورتهم الشاملة ضد بيعة يزيد لأنها بيعة ضلالة ، وما جرى في أحداث تلك الثورة من اجتياح مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدي جيش يزيد المكون من البدو حيث سمح له بنهبها مدة ثلاثة أيام ، وأثناء ذلك قتل عدد كبير من أهلها من الصحابة وأبنائهم ، مع اغتصاب كثير من النساء ، حتى سجل فقهاء مؤرخون أن ألف عذراء حملن من غير زواج [372].

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل : "لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته ، فلا يخلع أحد منكم بيعته ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر فيكون الفيصل بيني وبينه[373]..." ولم يترك الإمام أحمد أي تعليق ؛ وذلك يعني أنه وافق وتبنى ما اختاره عبدالله بن عمر ، وخالف موقف جابر بن عبدالله الأنصاري، وأغلبية أهل المدينة. وباعتبار ابن القيم حنبلي المذهب فقد تابع خيار ابن حنبل. أما الإمام مالك الذي جعل عمل أهل المدينة حجر الزاوية في فقهه فلم يبد أي تعاطف مع ثورة أهل المدينة التي كانت اشتعلت قبل أن يولد بعشرات السنين.

---

[370] جابر بن عبدالله الأنصاري من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام قبل الهجرة ، وبايع بيعة العقبة الأولى والثانية وشارك في المعارك كلها مع رسول الله (ص). ، أنظر ***زاد المعاد في هدى خير العباد*** لابن القيم ، ص 383 - 384.

[371] أنظر عبدالله أبو عزة ، ***انهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض*** (الطبعة القانية ، 2012) ، ص 120 - 130 .

[372] محمد بن جرير الطبري ، ***تاريخ الطبري***،(ط. بيروت)، مجلد 3 ، ص 354 - 359، وانظر السيوطي، ***تاريخ الخلفاء*** ص 208-210 .

[373] ***صحيح البخاري*** ، رقم 6178 ، ***وصحيح مسلم*** ، رقم1735 ، والحميدي ، ***الجامع بين الصحيحين*** ، ج 3 ، ص 209.

وكان عبدالله بن عمر قد حاول أن يقنع عبدالله بن مطيع[374] بترك معارضته لولاية يزيد ، فكان مما قاله له : سمعت حديثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من نزع يدا من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت موتة جاهلية[375] ". ويوضح موقف عبدالله بن عمر وشخصيته حديث له شخصيا، وليس حديثا نبويا، أو منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه عنه البخاري ، وهو حديث له صلة بجهود معاوية بن أبي سفيان ، لأخذ البيعة لابنه يزيد وليا للعهد لكي يرث عنه الخلافة: قال عبدالله بن عمر يصف لقاءه وحديثه مع اخته حفصة ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"دخلت على حفصة ونوساتها [ذوائبها] تنطف ماء ؛ قلت : قد كان من الأمر ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شئ فقالت : إلحق فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة ، فلم تدعه حتى ذهب إلى حيث ذهب الناس للاستماع إلى معاوية. [فلما تفرق الناس خطب معاوية موجها حديثه لمن بقوا] فقال : "من يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه". ويبدو أن تهديد معاوية ، بعد ما تفرق الناس ، كان موجها لعبدالله بن عمر بالذات، إذ لم يظل بين المتبقين أحد غيره يمكن أن يتطلع للخلافة [376]. قال حبيب بن مسلمة [لعبدالله بن عمر] : فهلا أجبته ؟ قال عبدالله : فحللت حبوتي[377] وهممت أن أقول : "أحق بهذا الأمر من قاتلك وأباك على الإسلام ؛ فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ، ويحمل عني غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله في الجنان. فقال حبيب : "حفظت وعصمت." ومعنى عبارة ابن عمر :

(1) أنه لم يوافق ولم يصدق ادعاء معاوية أحقيته وأحقية ابنه يزيد بالخلافة،

(2) أن عدم موافقته جعلته يتهيأ للرد على معاوية وتكذيب ادعائه ، وقد دخل عمليا في مقدمة حالة الرد ، وذلك حين تحرك وحل حبوته ،

(3) ثم إن حميته ضعفت ثم خمدت فتراجع وغير رأيه مفضلا الصمت ، لكي يفوز بالجزاء الصالح في الآخرة - حسب قوله - بعد أن فاته المنصب الأعلى.

---

374 عبدالله بن مطيع أحد الذين قادوا ثورة أهل المدينة ضد ولاية يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة 64 هـ.

375 والحديث ورد في ***صحيح مسلم*** تحت رقم 1735 .، وتحت رقم 1851 ؛ وانظر ابن كثير ، ***البداية والنهاية*** ، جزء 8 ، ص 185.

376 وهنا تأتي أهمية قول عبدالله بن عمر لأخته حفصه : **" قد كان من الأمر ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شئ."**

377 الحبوة قطعة قماش يلتف بها الإنسان ، لاتقاء البرد أو لمجرد المظهر ، مثل ما يسمى العباءة ، أو العباية.

(4) ولم يقف عند هذا الحد، بل مضى في تراجعه فتحول - في اتجاه معاكس - إلى معارضة ثورة أهل المدينة وتثبيط قياداتهم المعارضة ، والتشديد على أبنائه ومن يعرف من القيادات لحملهم على التخلي عن مقاومة خلافة يزيد بن معاوية.

ويبدو أن معاوية - السياسي الداهية - اكتفى بسكوت عبدالله بن عمر على إعلانه المشحون بالتهديد والتحدي : **"من يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه"**، ولذلك تحول من التهديد إلى استخدام المال ؛ فقد أخبرنا ابن كثير أن معاوية بعث إلى ابن عمر بمائة ألف لما أراد أن يبايع ليزيد ، فما حال عليه الحول وعنده منها شئ ، أي أن ابن عمر انفقها خلال سنة واحدة. وكان ابن عمر يقول : "إني لا أسأل أحدا شيئا وما رزقني الله فلا أرده ". وكان في مدة "الفتنة" لا يأتي أمير إلا صلى خلفه وأدى إليه زكاة ماله [378]"، وذلك تعبيرا عن طاعته وولائه لشاغل منصب الخلافة.

(4) ومحاولة عبدالله بن عمر إقناع ابن مطيع بالتوقف عن معارضة بيعة يزيد ، مضافة إلى تحذير ابن عمر أيضا لبنيه وأهله من المعارضة ، كل ذلك يعني

أنه تحول واختار لنفسه دور المؤيد والمحامي والمدافع بالنسبة لسياسة معاوية ، سواء فعل ذلك عن اختيار واع أو من خلال انسياق ساه، كما كان موقفه مساندا ومؤيدا لطغيان يزيد ابن معاوية من الناحية العملية .

وعندما نجمع هذه المقولات والمواقف ونقارن بينها نجد أن مما يستعصي على الفهم والاقتناع قول عبدالله بن عمر : **" إنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله"** . والرجل المعني بالنسبة للمبايعة هو يزيد بن معاوية. فكيف يتلاءم ذلك مع ما جاء ضمن وصف ابن عمر نفسه لتهديد معاوية: **"من يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه"**. فهل كان بيع الله ورسوله بهذا الأسلوب المفعم بالتهديد والإهانة الذي حملته عبارات معاوية ؟ ليس التهديد الموجه إلى عبدالله وحده ، بل مع إهانته لأبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : **"فلنحن أحق به [أحق بالخلافة] منه أي من عبدالله بن عمر] ومن أبيه" [أي من عمر بن الخطاب]** ، فأين **"بيع الله"** ؟ ثم قول عبدالله بن عمر "إني لا أسأل أحدا شيئا وما رزقني الله فلا أرده" ، فهل مئات الألوف التي تتابعت من معاوية إلى عبدالله بن عمر، وآخرين غيره ورد

---

[378] ابن كثير، ***البداية والنهاية*** (القاهرة : مكتبة الصفا ، 2002م) جزء 9 ؛ ص 5.

ذكرهم في صفحات سابقة ، هل هو رزق الله الذي لا شبهة فيه ، أم أن ابن عمر لم يكن يعي ما يقول وكيف يتصرف في مختلف المواقف ؟

إن عبارات عبدالله وتصرفاته ترسم لنا ملامح شخصيته بكل وضوح ؛ ومع ذلك فأننا نؤكد أنه كان واحدا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الصحابة لم يكونوا كلهم في درجة ومنزلة واحدة متساوين [379]. ثم إن كون عبدالله ابنا للفاروق لا يعني أنه كان مثله أو امتدادا له ، أو في منزلته أو قريبا من ذلك، بل لقد كان التناقض بين الشخصيتين في بعض الجوانب واضحا تماما ؛ وقد ورد على لسان عمر، رضي الله عنه ما يفيد ذلك .

الشاطبي يستنكر "الاعتراض على الكبراء ":

كما أننا نجد الفقيه الأندلسي الغرناطي إبراهيم بن موسى الشاطبي، المتوفى سنة 790 هـ. يستنكر **الاعتراض على** من سماهم **"الكبراء"**، ويستشهد بعدد من النصوص والمواقف التي اعتبرها أدلة شرعية تؤيد ما ذهب إليه ، وهي ليست كذلك في حقيقة الأمر. قال الشاطبي : "والدليل على ذلك أمــور:

أولا: ما جاء في القرآن الكريم ، كقصة موسى مع الخضر التي وردت في سورة الكهف و [انتهت بقول الخضر]: "هذا فراق بيني وبينك"،

الثاني: ما قاله رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله موسى لو صبر حتى يقص علينا من أخبارهما."

وهنا يبدو محمد صلى الله عليه وسلم غير راض عن تصرف موسى عليه السلام . وقصة موسى مع "الخضر" وردت في سورة الكهف، الآيات (65-82).

الثالث: قول الشاطبي : " **وروي في الأخبار** أن الملائكة لما قالوا "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" فرد الله عليهم بقوله : "إني أعلم مالا تعلمون، وأضاف الشاطبي أن الله " أرسل عليهم نارا فأحرقتهم ،

الرابع : "وجاء أشد من هذا ، اعتراض إبليس بقوله : "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين." فهو الذي كتب به له الشقاء إلى يوم الدين." لاعتراضه على الحكيم الخبير. وهو دليل في مسألتنا .

---

[379] قارن مع ما ذكرنا في ص --- عن اختلاف مستويات الأفراد من الصحابة وأنهم كلهم في مستوى واحد.

الخامس : "قصة أصحاب البقرة" حين تعنتوا في السؤال مماطلة فشدد اللــه عليهم [380] ".

كيف أخطأ الشاطبي ؟:

إن أدلة الشاطبي واستشهاداته الخمسة انبنت على تصوره حدوث مواجهات في الحالات التي ذكرها ، كان في كل منها طرفان ، أحدهما أعلى منزلة وأكثر علما وقوة من الطرف الآخر ؛ وعلى هذا الأســاس صاغ مقولـة **"عدم الإعتراض على الكبار"** ؛ فمن هم الكبار في الأمثال التي استعرضها ؟

في الاستشهادين الأول والثاني نجد أن "الكبار" تشير إلى الذي سماه الشاطبي : **"الـخـضـر."** وفي سياق روايته يبدو الخضر أعلى منزلة وعلما من موسى عليه السلام ، وكذلك من محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، فكلاهما يريد ويتوقع أن يتعلم منه ، حسب النص القرآني؛ ومعنى ذلك اعترافهما ضمنيا بأنه أعلى منزلة منهما وأكثر علما. وموسى ومحمد من أولي العزم من الرسل. وليست لدي معلومات أخرى موثوقة عن هذا العبد الصالح ، أو الخضر، أكثر من ذلك ؛ وهذا ما أتقيد به وأقف عنده ، ولست أسمح لنفسي بزيادة أية كلمة أخرى عما قلته.

- أما المثال الثالث الذي قدمه الشاطبي فهو قول الملائكة "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ..." والطرف الأعلى والأقوى والأعلم في هذا المثال هو الله سبحانه وتعالى. أما مسألة الحرق التي ذكرها الشاطبي فلم يسندها بذكر أي مصدر ، سواء كان موثوقا أو غير موثوق ، إذ اكتفى بالقول : "وروي في الأخبار"؛ وهذه عبارة لا تعني شيئا ولا تفيد شيئا وليست لها قيمة ، وقد أساء بها الشاطبي إلى نـفـســه وموثوقيته عندما تحدث عن هذا الموضوع المهم بهذا القدر من الاستخفاف ، ثم عندما تحدث عن الموقف بما فيه من ذكر الله وحضوره المزعوم مشاركا في الحدث [381].

- وننتقل إلى المثال المتعلق بذبح البقرة ، فالطرف الأعلى هو الله العلي الأعلى ، والطرف الأدنى هم الذين تلقوا الأمر الإلهي بأسئلة متكررة تنطوي على مماطلة.

والخطأ الأكبر للشاطبي أنه جعل **الكبار** ، أهل العلم، كما وصفهم، أي "الفقهاء" الذين ينتمي هو نفسه إليهم ، **جعلهم** في منزلة الله عندما شبه الاعتراض عليهم بأنه مثل الاعتراض على الله ، وفي مثاليه الأول والثاني جعل "العبد الصالح" هو الأعلى من موسى ومحمد ، وجعل الفقهاء في مستوى واحد مع "العبد الصالح" أو الخضر ، الأرفع مكانة من موسى ومحمد عليهما السلام ، وبذلك حرم الاعتراض عليهم ، أي الفقهاء. وأمثلة الشاطبي تنطوي على مبالغات كبيرة في إعلاء الذات (الفقهاء) من غير تبصر ولا تدقيق في الألفاظ. إنه لم يحسن اختيار أمثلته كما لم يحسن صياغتها.

---

[380] إبراهيم بن موسى الشاطبي ، ***الموافقات في أصول الشريعة*** ، ص 835 .

[381] أنظر ابن كثير في تـفسيره وتعليقه على خبر حرق الملائكة إذ وصف الخبر بقوله : " وهذا إسرائيلي منكر كالذي قبله..."***تفسير ابن كثير*** ، الجزء الأول ، ص 62 ، تفسير الآية رقم 30 من سورة البقرة.

إنني مقتنع تماما بمبدأ التغيير ، وقد رأيت أن أساير ما قاله ابن القيم قليلا ليتبين قرائي أن فكرة التغيير - عندما تطرح الآن - ليست حديثة ولا مستعارة من بيئة غريبة. يضاف إلى هذا إشارتي السريعة لحدوث تعديل وتغيير جزئي للتشريع في العهد النبوي والعهد الراشدي وذلك من خلال نصوص القرآن الكريم في بعض الحالات والممارسات.

ولقد وجدت موقفي في حالة مواجهة وتصادم - لم أقصدها - مع موقف الصحابي عبدالله بن عمر ، وموقف الإمام مالك بن أنس ، وموقف الإمام ابن القيم نفسه عندما انقلب ضد مبدأ الانكار على الحكام المنحرفين ، وكذلك بالنسبة لموقف الإمام الشاطبي الداعي لعدم الاعتراض على "الكبار" ، ويعني بهم كبار الفقهاء. وهؤلاء هم الذين تناولنا مواقفهم ومقولاتهم قبل قليل (ص 194- 204) على سبيل تقديم بعض الأمثلة وليس على سبيل الحصر والإحاطة؛ وهم يمثلون الاتجاه الذي ظل رائجا وغالبا بين المسلمين حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وما زال رائجا بين السلفيين والمتأثرين بهم الآن في القرن الخامس عشر الهجري. ويضاف إلى ذلك موقف الإمام مالك بن أنس من التغيير، كما بيناه وأوردنا نصه والتعليق عليه في صفحة 169 فيما.

والحقيقة أن كثيرين من مشاهير الفقهاء اعترضوا على الإمام مالك بشأن إعلانه حجية عمل أهل المدينة ، وقالوا : إن عمل أهل المدينة ليس حجة [382]. ونقرأ نصا فيما كتبه ابن القيم بعنوان : "**عدم حجية عمل أهل المدينة** : قلت [ابن القيم قال] : وهذا أصل قد نازعهم فيه الجمهور ، وقالوا : عمل أهل المدينة كعمل غيرهم من أهل الأمصار... وقد انتقل أكثرهم عن المدينة وتفرقوا في الأمصار ، بل أكثرعلمائهم ساروا إلى الكوفة والبصرة والشام ... إلى الكوفة والبصرة نحو ثلاثمئة صحابي ونيف وإلى الشام ومصر نحوهم ..." ، وأطال ابن القيم في مناقشته فغطى يضع صفحات[383] ، تخرج بنا متابعتها عن موضوعنا الرئيس.

وكان الإمام مالك يتلقى الأموال من الخلفاء العباسيين دون حرج؛ وكان مما حفظه ورواه لنا القاضي عياض أن أبا عمران الصدفي قال : سألت الإمام مالك عن جوائز السلطان فكرهها ، فقلت له فإنك تقبل؟ فقال : أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك ؟ [384]" ولم ينس القاضي عياض أن يخبرنا

عن تركة الإمام مالك بعد وفاته : "مات مالك ... عن مائة عمامة... جمع من منزل مالك يوم مات من منصات وبرادع وبسط ومخادد محشوة بريش وغير ذلك ينيف على خمسمائة دينار. - خلف

---

382 إبن القيم ، ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، 565 - 570 .

383 علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، ***الإحكام في أصول الأحكام***، (بيروت : دار الكتب العلمية)، مجلد 1 ،ص 280 - 307 حيث فند ابن حزم كل ادعاءات حجية عمل أهل المدينة طوال سبع وعشرين صفحة .

384 القاضي عياض ، ***ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*** ، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، 1967) الجزء الأول ، ص 180 ، وانظر ص 182 ذكرت جائزة أخرى.

مالك خمسمائة زوج من النعل. وقد اشتهى يوما كساء قومسيا فما بات إلا وعنده منه سبعة بعثت إليه ... باع من فضلها بثمانين ألفا [385]..."

قال عبدالله بن مسلم الخياط : "لما قدم الرشيد لبست ثيابا وغدوت على مالك وقلت يتوكأ علي فأصيب بسببه من أمير المؤمنين مالا فغدى مالك متوكئا علي يرافقه يحيى ، فأجاز مالكا بأربعة آلاف دينار وأجاز ابنه بخمسمئة دينار ، ... - كان مالك يقول : أما الخلفاء فلا شك يعني أنه لا بأس به [أي أخذ الأموال منهم] ، وأما من دونه فإن فيه شيئا". وقال ابن أبي زنبر متحدثا عن مالك : "أجازه هارون بثلاثة آلاف ، فقال له رجل من الزهاد : يا أبا عبدالله ثلاثة آلاف تأخذها من أمير المؤمنين كأنه يستكثرها. وسأله غير واحد عن جائزة السلطان فقال لا تأخذها فقال : أنت تقبلها ، فقال أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك. وقال لآخر: أجئت تبكتني بذنوبي[386] .

وفيما يلي نستعرض مثالا من مشاهد تواصل كبار الفقهاء مع الحكام:

وهذا المشهد جمع بين الخليفة العباسي هارون الرشيد، والإمام مالك بن أنس الأصبحي، الذي ينسب إليه المذهب المالكي، والقاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، صاحب الإمام أبي حنيفة، الذي كان اختاره وعينه هارون الرشيد لمنصب القاضي (أي وزير العدل) في حكومته. ومصدرنا عن المشهد هو كتاب ***ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك***، تأليف القاضي عياض اليحصبي، المتوفى سنة 544هـ وهو من كبار الفقهاء المالكية. وفيما يلي النص الذي وصف المشهد :

" دخل هارون المدينة [يثرب] ومعه أبو يوسف ، فأتى إليه مالك فسلم عليه وأبو يوسف عن يسار الرشيد ، وأبناؤه [كذا] الأمين والمأمون تجاهه، فلما دخل مالك غمز [الرشيد] ابنيه[387] فقال : قوما بين يدي عمكما حتى يخرج ، يعني مالكا. .. فتزحزح هارون له حتى أجلسه معه على المنصة ، فكأن أبا يوسف حسده ، فقال له: ما تقول يا أبا عبدالله في محرم كسر ثنية ظبي ؟ فقال مالك: عليه الفدية ؛ فضحك أبو يوسف وقال : وهل للظبي ثنايا ؟ فرفع مالك رأسه إلى هارون وقال : ما علمت أن أحدا يذكر العلم فيضحك ، فلا وقر العلم ولا مجلس أمير المؤمنين ، وإنما أجبته إن كان الظبي في حالة يكون له سن في موضع الثنايا ففعله محرم فعليه الفدية ، وإلا فقد علمت منه ما له علم ، وليس هذا ينبغي للناس أن يعلموه ولا هو واجب عليهم. ولكن ما تقول في إمام عرفة إذا وافق يوم عرفة يوم الجمعة ، هل عليه أن يجهر بالقراءة ، فإن هذا واجب على المسلمين أن يعلموه. فقال أبو يوسف يجهر بها. فقال مالك أخطأت ، والله ما يذهب هذا على صبيان المدينة وسودانهم دون غيرهم ، الجمعة إذا وافقت عرفة لا يجهر فيها يتوارثها الآباء عن الأبناء من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا. ثم التفت إلى هارون وقال: يا أمير المؤمنين سفيه سأل عن مسائل لسفهاء توليه على أمور المسلمين ، وقام. فلما كان وقت الرواح عاد إليه وهو متكئ

---

385 ***المصدر نفسه*** ، ص 245 - 246.

386 ***المصدر نفسه*** ، ج1 ، ص 217 - 218 ؛ تبكتني : التبكيت هو اللوم والتقريع العنيف.

387 هارون الرشيد غمز ابنيه

على المغيرة والمساحقي فسلم عليه ، فالتفت أبو يوسف إلى هارون فقال : يا أمير المؤمنين أبو عبدالله لا يحدث عن آباء أمير المؤمنين العباس وعبدالله وعلي ، وإنما يحدث عن معاوية ومروان وابنه ، وقد جعل أحاديثهم سننا. قال ومالك ساكت. فقال المغيرة : يأذن لي أمير المؤمنين في الكلام ؟ قال : تكلم. فقال: إن أبا عبدالله يحدث عن آباء أمير المؤمنين العباس وابنه وعن بني أعمامه علي وأولاده وعن أعطاف أمير المؤمنين معاوية ومروان وابنه ، ولا يحدث عن فلان الفلاني ولا يحدث عن القتات ولا فلان صاحب الشعر. وهؤلاء معروفون لا شك فيهم. فنكس أبو يوسف رأسه وسكت [388]. "

ونكتفي بهذا المثال ، والأمثلة كثيرة لمن أراد المزيد.

إصابتان في الرأس خطيرتان :

لقد عانت الأمة من مرضين في الرأس خطيرين ، والرأس الذي نقصده هنا هو رأس الدولة والمجتمع بشقيه : الشق الأول هو الحكام ، أما الشق الثاني فهو "العلماء / الفقهاء" ، وقد تناولنا ذلك فيما سبق، بتفصيل لايحتاج أية إضافة ، وخلاصته :

(1) الانحراف عن المبايعة الحرة تماما، ومثالها **بيعة أبي بكر**، التي أدت إلى خيار قررته الأغلبية ، واستبدال ذلك بفتح الباب لصراعات المغامرين الطامعين في منافع الحكم - خاصة من كبار العسكريين - لاغتصاب السلطة العليا (رئاسة الدولة).

(2) انحراف أكثر "الفقهاء" و "العلماء" طمعا أو جبنا أوخطأ وتقليدا لغيرهم، وذلك بتخليهم عن دورهم في توجيه الأمة وقيادتها في مقاومة الانحرافات المنكرة .

عودة إلى موضوع "تغير الفتوى":

ونعود إلى موضوع **"تغير الفتوى"** الذي طرحه ابن القيم ، **و**الذي تفرضه حالات تغير كبيرة في حياة المجتمعات البشرية من النواحي الاقتصادية والأمنية والسياسية والثقافية؛ وأهمية هذا الموضوع تبرز أمامنا بقوة بعد أن سرنا مع الفكر الإسلامي منذ نشأته وسلطنا الضوء لاكتشاف أصوله ومصادره الأولى ، وما تعرضت له هذه الأصول من الهجمات التخريبية المعادية ، بجانب العبث والانقسامات والصراعات

---

[388] القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ، ***ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك*** (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة) ، الجزء الأول ، ص 222 - 223.

المدمرة التي أراد السلفيون لمخلفاتها المدمرة أن تظل لها السيطرة المستمرة على الفكر التشريعي ، باعتبارها ممارسات مقدسة لا يجوز لأحد مناقشتها.

إن الأمـــة بحاجـة ملحة إلى **استعادة الوعي** الذي فقدته أو سلب منها ودفن في المتاهات التي وصفنا. ولقد استخدمت عبارة **"عود على بدء"** التي تؤشر إلى اتجاه طريقنا في مواصلة البحث ، وذلك لا يعني أن نعاود الانخراط في التفاصيل، إياها ، بل الذي نريده أن نسلط الضوء على المنطلقات الأولى منارات للتصحيح .

لقد بدأت الانطلاقة بالرسالة والرسول وأضاءت معالم طريقها بمحطات رئيسية كان أبرزها تلك المتعلقة بالجانبين الفكري والتشريعي، وأولها وأهمها :

أولا : دستور المدينة ، وأبرز ما فيه الاعتراف بالتعددية في السنة الأولى للهجرة

ثانيا : بيعة أبي بكر الصديق ، في أوائل السنة الحادية عشرة للهجرة.

والحقيقة أن اسم **"الدستور"** لم يستعمل ولا كان يخطر ببال أحد في جزيرة العرب ، في تلك الأيام التي شهدت تأسيس وولادة الكيان الإسلامي السياسي الجديد سنة 622 للميلاد. وربما كان الأستاذ وليم مونتغمري وات ، الذي كان أستاذا بجامعة أدنبرة الاسكتلندية في القرن الماضي، هو الذي استخدم هذه التسمية أول مرة ، ضمن كتابه المشهور (محمد في المدينة .*Muhamad at Madina*). وأود أن أضيف هنا أن اسم الديمقراطية ، مصطلحا أو مفهوما سياسيا لم يكن موجودا ولا معروفا في جزيرة العرب ، كما أنه لم يرد في أي من ***المصادر الإسلامية الأساسية*** التي تناولناها في هذه الدراسة ؛ غير أن أهم المكونات الإيجابية لهذا المفهوم كانت مذخورة ومؤكدة بشكل واضح في التوجيهات **والمبادئ القرآنية الحاكمة** التي أفردت لها موقعا مهما في كتابي هذا، وفي بعض كتبي السابقة كذلك.

فإذا انتقلنا بحديثنا إلى موضوع كيفية وصول المجتمع الإسلامي الأول إلى بيعة أبي بكر، نجد أن ما تم لم ينطلق من معرفة أو خبرة سابقة ، ولا مستعارة من مصدر أجنبي ، لأن هذه المعرفة لم يكن لها وجود ولم تخطر على بال أحد في جزيرة العرب ، لقد انبثق هذا التصرف التلقائي من مجمل التربية العميقة التي انطوت عليها المبادئ والتعاليم القرآنية وما انضاف لها من التربية والتوجيه النبوي ، ومن غير أن تكون مصحوبة باسم الديمقراطية؛ في تلك الفترة المبكرة من العهد الإسلامي. لقد مارس المسلمون الديمقراطية من غير أن يعرفوا اسمها، ومن غير أن يعرفوها نظرية أو فلسفة ومفهوما سياسيا.

والذي نريد أن نستخرجه هنا من تأملنا لسابقتي دستور المدينة وبيعة أبي بكر هوتأكيد حاجة كل مجتمع إسلامي في عصرنا ، مميز بحدود دولة قائمة ومعترف بها ، إلى **دستور** يحدد ما هو شرعي ومقبول ويميز ويمنع الاعتراف والتعامل مع كل ما تنقصه الشرعية القانونية. ويعرف كثيرون من الباحثين أن بعض الحركات الإسلامية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين كانت تردد شعار **"القرآن دستورنا"** ، وكان الناس أحيانا يسمعون شعار **"لا دستور إلا القرآن"** ، ولكن كل ذلك لم يتجاوز أجواء الشعارات العاطفية. فالقرآن بنصه ليس دستورا ، ولا يمكن أن يكونه. وربما كانت أول محاولة جادة لتوليد وصياغة دستور إسلامي في العصر الحديث هي التي شهدتها مصر[389] ، سنة 2012م ؛ غير أن هذه التجربة أفشلت مبكرا بانقلاب عسكري معاد ، كما هو معروف. وكان "حزب التحرير الإسلامي" قد أصدر ما سماه "الدستور الإسلامي" في خمسينات القرن العشرين ، لكن النص كان مشحونا بحالات من ضيق الأفق ، ولا يرقى إلى مستوى ما يمكن أن يعتبر دستورا.

ويفترض أن الدستور هو الذي يحدد ما تراه وما ترضاه الأمة لنفسها ، كما يحدد طريقة وآليات تعبيرها عن إرادتها نظريا وعمليا، بما في ذلك عمليات الرقابة والمراجعة وفرز النتائج التطبيقية وطرق إصلاح الأخطاء والانحرافات وماتعلق بكل ذلك. ويطلق على الدستور أحيانا اسم "القانون الأساسي"، إذ منه تتفرع كل القوانين وتستند إليه وإلى نصوصه.

تعديل وتطوير التشريع:

إن مبدأ تعديل وتطوير التشريع استجابة للحاجات المجتمعية التي تـنـشأ بسبب التغيرات في حياة الناس ربما لا يكون واضحا بدرجة كافية ، ولا مرحبا به في بعض القطاعات السلفية خاصة؛ وربما اعتبره بعضهم محاولة أو شروعا في تغيير شئ من الدين. لكن ما أوردناه من أمثلة التغيير فيما سبق من هذا الكتاب[390] ، تبين أن أول ما حدث من التغيير التشريعي جاء بنص قرآني في العهد النبوي ، بينما كان بعضه الآخر سنة نبوية حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجزءا ثالثا نفذه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه استجابة لتغيرات في حياة المجتمع الإسلامي الناشئ. أما بيعة أبي بكر فقد كانت ممارسة تلقائية مبتكرة ، غير مسبوقة ، وغير مستعارة من الخارج ، نفذها الصحابة بجمعهم ، في مواجهة ظرف طارئ ، وهم يمثلون المصدر الأساسي الثالث للتشريع.

وعندما انتقل مركز الدولة من صحراء جزيرة العرب إلى بيئة جغرافية واقتصادية مختلفة ، سواء في دمشق والرملة ضمن بلاد الشام ، أو في بغداد وســامـراء في العراق ، وظهرت المدن المليونية أوما يقاربها ، وذلك في بلدان كانت موطن حضارات عريقة منذ آلاف السنين ، إذ ذاك ظهرت تشريعات وتنظيمات جديدة لم تكن معروفة من قبل عندما كانت الخلافة في المدينة (يثرب).

---

389 أنظر تعليق خبير دستوري مصري على هذا الموضوع نشر في جريدة *الأهرام* المصرية الصادرة بتاريخ 24 نوفمبر 2012.

390 صفحة 197 - 199.

وهذه التغييرات والتجديدات استدعتها وأوجبتها التغييرات الكبيرة التي شهدتها المجتمعات الإسلامية منذ منتصف القرن الأول الهجري. وتكفينا هذه الإيماءات المختصرة إلى حالات تطور التشريع في المجتمعات الإسلامية التقليدية قبل العصر الحديث. ومعنى ذلك بوضوح تام أن مبدأ تعديل وتطوير التشريع منبثق من الأصول الإسلامية ، وله سوابق مشـروعة ومؤكدة في العهد النبوي والعهد الراشدي . أما في عصرنا فتبيحه ، بل وتفرضه الضرورات، كما فرضت الممارسات التشريعية في الدول الأكثر تقدما . ومع ذلك فإن أية عملية تعديل وتطوير جديدة يجب أن تكون مصحوبة بكل الضمانات المناسبة ، من حيث مقاصدها وأهدافها، ومن حيث آليات وطريقة ممارساتها وتنفيذها وحراستها من التعرض للعبث، ومن حيث الاستفادة من توظيفها ونتائجها.

وفي الدول الـغـربية الأكثر تقدما في عالمنا المعاصر تمارس الشعوب ومؤسساتها التشريعية إدخال تعديلات على دساتيرها وتشريعاتها ، وأبرز مثال على ذلك ما جرى ويجري في الولايات المتحدة الأميركية التي أعلنت استقلالها سنة 1776 ، وأجرت تعديلات على دستورها سبعا وعشرين مرة ، عدا عن التعديلات التي أدخلت على القوانين الفرعية ، الاتحادية والولائية.

لقد جاء التغيير الشامل والهائل الذي شهدته المجتمعات الإسلامية في عصرنا الحديث ، وشمل كل أنظمة الحياة بما فيها ، التشريعات ، **جاء مفروضا من الخارج** في ظل سيطرة أجنبية ، وذلك بعد نجاح عدد من الدول الأوربية في السيطرة التدريجية على ديار الإسلام من الحواف الغربية لأفريقيا حتى جنوب شرق آسيا والحواف الشمالية للمحيط الهندي. ومنذ منتصف القرن العشرين بدأت مرحلة جديدة فرض فيها مبدأ التغيير نفسه من خلال تغير أنماط وأشكال الحياة ، كما فرضته التغييرات القسرية التي جاءت بها الهيمنة الأجنبية ؛ ثم تلت ذلك مرحلة الاستقلال المنقوص والمتدرج وإلحاح الحاجات العملية في الواقع المعاش. وفي هذه الحقبة الممتدة صار لكل دولة إسلامية دستور وقوانين حديثه في شكلها العام ، وإن كان التطبيق والممارسة العملية ضعيفة باهتة.

وهكذا نجد أن ألتغيير التشريعي خرج تماما من إطار مفهوم **" تغير الـفـتـوى "** حيث كانت الفتوى محصورة في أيدي المشايخ أفرادا ؛ لقد صارت له في عصرنا قواعد وضوابط تنتظمها شبكة متكاملة من النصوص والقواعد والإجراءات ، والكوادر البشرية المؤهلة المتخصصة التي يفترض أن تخضع كلها لرقابة الشعب وممثليه. لكن كل هذا التغير المهم الذي حدث حتى الآن ، لم يتجاوز حدود الرغبات والآمال والشكليات ، والدعاية السياسية ، بينما تطمح الشعوب إلى تصييره واقعا حقيقيا وعمليا ومنتجا ، على اتساع الوطن في الدولة الواحدة ، وعلى نطاق الدول الإسلامية كلها. وهذه الآمال لن تتحقق إلا إذا قامت الشعوب - أفرادا وجماعات بمسئـولياتها في الدفاع عن مصالحها المشتركة، اتباعا لقول الله تعالى:((**إن الله لا يغيرما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**)) ، بجانب كل الآيات التي تحث المسلمين على بذل الجهود المستمرة لتصحيح المسيرة من خلال "الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر" ، ولتوجيهات رسـول الـلـه صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور: " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة

في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع ومسؤول عن رعيته ... والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته [391]" ؛ وغير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي توجه المسلمين على هذا النحو ، كليا أو جزئيا ليؤدي كل منهم دوره وواجبه بصدق وإخلاص وأمانة.

ومما ينبغي أن يوضع على قائمة التعديل المستعجلة:

أولا : ما يخص تصحيح الرؤية والمواقف بالنسبة للتعامل مع حالة المرأة :

إن ما شرع في بداية العهد الإسلامي انطلق من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والبيئية التي كانت سائدة في جزيرة العرب ومؤثرة ، وكيفية التعامل مع تلك الحقائق ، ففرض التمييز آنذاك. وقد زالت كل تلك الظروف تماما منذ منتصف القرن العشرين الميلادي . ومن أمثلة التغيير التي فرضها الواقع الجديد حلول (كاتب العدل) محل الشهود الأفراد للتصديق على المعاملات المالية والتجارية.. وكذلك الأمر بالنسبة لشهادة غير المسلم ، حيث صار يحكمها التشريع والقانون المفصل الضامن الذي يلغي التمييز، ويحفظ الحقوق المتساوية للمواطنين جميعا ، وتكون كل خطواته وتفاصيله مسجلة بدقة، ولا تتعرض للضياع مثل ما كان يحدث عند وفاة أحد الشاهدين أو كليهما.

لقد تغير وضع المرأة في الحياة الإقتصادية والإجتماعية للشعوب الإسلامية الحديثة تغيرا كبيرا، فصار من النساء من تسبق الرجال وتتقدم عليهم بمدى واسع في حالات كثيرة. وعلى سبيل المقارنة نضع مشهدا من العصر الجاهلي مقابل ما نألفه من مشاهد في أنماط حياتنا المعاصرة : امرأة مشهورة في الجاهلية تصف أخاها ومقامه ودوره في الأسرة والقبيلة ، قالت الخنساء ، تماضر بنت عمرو السلمية ، ضمن رثائها لأخيها صخــر بن عمرو :

وإن صخرا لوالينا وســيدنا	وإن صخرا إذا نشــتوا لنحار
وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا	وإن صخرا إذا جاعوا لعقار[392]
أغــر أبلج تأتـم الهــداة بــه	كأنــه علـم فـي رأســه نــار[393]

لقد كان الرجل بالنسبة للأسرة والقبيلة هو الكاسب والمطعم والحامي والمدافع ورافع لواء الفخر والاعتزاز ، ولم يكن للمرأة نصيب من ذلك إلا في حالات نادرة أو شاذة ومحدودة.

---

[391] والحديث أخرجه الشيخان البخاري ومسلم ، أنظر محمد بن فتوح الحميدي ، ***الجمع بين الصحيحين*** ، ج 2 ، ص 141 - 142 .

[392] كلمتا نحار وعقار تشيران إلى ذبح الماعز ، وعقر وذبح الجمال عندما يقل وجود الطعام في موسم الشتاء وغيره ، فكان صخر هو الذي يطعمهم .

[393] تماضر بنت عمرو (الخنساء)، ***ديوان الخنساء***، تحقيق الدكتور درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، 2009) ص 69.

أما في عصرنا الراهن ، فنجد المرأة تنافس الرجال في أعلى المراكز وتتغلب عليهم وتسبقهم في كثير من الحالات. وأقرب الأمثلة السيدة مارغرت تاتشرالتي تولت رئاسة الوزارة في دولة عظمى عشر سنوات، وكانت من أقوى من تولوا الوزارة والحكم. ومنذ ثلاثة أيام تولت رئاسة الوزارة البريطانية وحزب المحافظين امرأة أخرى هي السيدة ثيرزا ماي من خلال منافسة كان كل المشاركين فيها - ما عداها - من الرجال. وضمن هذا السياق تذكر المستشارة انجيلا ميركل في ألمانيا؛ والأهم من كل هؤلاء كان دور الملكة إلزابث الأولى التي حكمت بريطانيا قبل خمسمائة سنة (1558 - 1603 م)، ومن خلال حكمها الفردي المطلق تحولت بريطانيا من دولة هامشية فصارت الدولة الأولى في أوروبا [394].

وفي تاريخنا العربي القديم يرد اسم بلقيس ملكة سبأ في إشارة وردت في النص القرآني مقتضبة ضمن اثنتين وعشرين آية من سورة النمل ، لكن النص يضع بلقيس وحكمها وسيرتها - بشكل عام - في إطار إيجابي لا سلبي [395]، على الرغم من وجود كثير من الروايات الخرافية في نصوص التفسير.

لم يعد القتال بالسيف والرمح والسهام والقوة الجسدية ، بل صار بالعقل والذكاء والعلم والتصميم وقوة الإرادة وقوة الشخصية. وكذلك شمل التغيير الهائل الأدوات والأنظمة الإدارية بكل تشعباتها ، وقد تكون امرأة واحدة أفضل وأكثر نفعا من ألف من الرجال الضعاف والجاهلين والفاسدين ، حتى في ظروف الحرب الحديثة.

ثانيـاً :ومن المطلوب أيضا ضبط ممارسة تعدد الزوجات وربطه بالأسباب المبيحة ووقف إساءة الاستخدام ، مع المرونة في ضبط التعامل بالنسبة لرغبة المرأة في الاستمرار في الحياة الزوجية وقبول التعدد ، أو تفضيلها الطلاق والانفصال ، على أن تصاغ ضمن قوانين دقيقة النص تفرض المحاكم اتباعها.

ثالثا- سفر المرأة بغير محرم وزوال الأسباب المبررة التي أدت إلى تضييق مداه، والنساء في عصرنا يسافرن في السيارات والقطارات وفي الطائرات التي تحمل الواحدة منها خمسمائة راكب ، وليس على ظهور الجمال أو على الأقدام ، أو في الهوادج (جمع هودج) كما كانت الحال قديما، ويجتزن في سفرهن الأقطار والصحارى والبحار والمحيطات في ساعات ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب من غير أن يتعرضن لما كان يخيف في الماضي.

رابعا : مسألة الحدود :

الأصل اللغوي لكلمة الحدود ، ومفردها: حـد ، وهو النقطة أو الخط الذي يفصل بين متجاورين لصيقين. وعندما تحولت الكلمة مصطلحا شرعيا: "الحد" صارت تستخدم للتمييز بين حالتين لصفة سلوك الإنسان في مجتمعه، منطقة الحلال والمباح والمطلوب والمرغوب ، تقابلها منطقة المحرم الممنوع الذي يتعرض

---

[394] See Dorothy Mills, ***Renaissance and Reformation times***, pp. 293 - 305.

[395] سـورة النمل / 22 - 44.

من يدخلها لعقوبة حددتها الشريعة ، فصارت كلمة الحد تبين الخط الفاصل بين هذين النوعين المتناقضين من السلوك بالنسبة للمسلمين. ثم تطور معنى كلمتي "الحد" و "الحدود" وصار يطلق على العقوبة الشرعية نفسها، عقوبة الخروج من منطقة الحلال والمباح إلى منطقة المحرم تحديدا.

ولمزيد من الوضوح أقول: إنه ليس من المطلوب أو الجائز تغيير الحلال أو الحرام إلى نقيضه، ولكن المطلوب والجائز هو **تعديل بعض الحدود** (أي العقوبات). ومن أهم هذه العقوبات التي تحتاج المجتمعات الإسلامية إلى تغيير مفهومها هي : قطع الأيدي لمن يسرقون، والرجم بالحجارة ، لمن يرتكبون جريمة الزنا من الأزواج والزوجات . لكن هذا التغييرحدث فعلا ضمن موجة التغيير الشامل التي عرفتها المجتمعات الإسلامية في حقبة الاستعمار الأوروبي المباشر ثم فترة الاستعمار غير المباشر. وبعد استقلال البلاد الإسلامية لم ترجع الدول والحكومات الإسلامية تفعيل عقوبات الرجم وقطع الأيدي ، فهل معنى ذلك أنني أطالب بتحصيل حاصل وأدعو لإزالة شئ قد زال بالفعل منذ عقود طويلة؟ كلا، إنني أدعو إلى تغيير الفكر الذي أغفل أو غفل عن ضرورة التغيير انسجاما مع ما تفرضه حالة "تغير الزمان والمكان والعوائد" ، كما سماها ابن قيم الجوزية ولم يستطع متابعتها كما بينا من قبل . ومما يجدر التذكير به أن جمهورية السودان كانت قد شهدت في فترة السبعينات من القرن العشرين ، أثناء حكم جعفر نميري وتحالفه المؤقت مع الدكتور حسن الترابي، شهدت إعادة تطبيق عقوبة القطع والرجم ، وتناقلت أخبار ذلك وسائل الإعلام على نطاق واسع ، ثم توقفت هذه الممارسة وانتهت خلال سنتين أو أقل، ولم تظهر توجهات في دول إسلامية أخرى لإعادة تطبيق هذه العقوبات بعد رحيل الاستعمار المباشر.

لقد فرضت عقوبة قطع يد السارق والسارقة في ديار الإسلام منذ بداية العهد النبوي في المدينة ، وبنص قرآني واضح : ((**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم** [396] .)) وكان قطع اليد جزاء السرقة معروفا ومطبقا في الجاهلية، قبل الإسلام[397] . وكانت صحراء الجزيرة ميدانا واسعا متباعد الأطراف، وكانت الغارات القبلية ، واعتداءات قطاع الطرق أفرادا أو جماعات ، نمطا عاديا مألوفا ومعروفا مارسته القبائل كما مارسه الأفراد والجماعات الصغيرة. وكانت القوافل التجارية لا تجرؤ على الحركة إلا في حماية بعض القوى القبلية الكبيرة. أما المسافرون الأفراد، أو القلائل فيتعرضون للنهب والأسر والاسترقاق. ولم تكن هناك أجهزة دولة أو شرطة أو قوات أمنية أو سجون ، ولذلك كانت عقوبة القطع أداة زاجرة إلى حد ما، فرضتها الضرورة. فلما استقرت الدولة الإسلامية وصارت لها بعض الأجهزة الأمنية التي تطارد اللصوص وتجلبهم للقضاء والسجون ، أصبح من

---

[396] ســورة المائدة / 38 - 39.

[397] أنظر ***تـفسير ابن كثير*** لهذه الآية من سورة المائدة / 38 ، حيث ذكر ممارسة قطع اليد في الجاهلية.

المطلوب أن يبادر المختصون بالفكر التشريعي "الفقهاء" ويشاركوا في السعي للتغيير والتحسين فيما يتعلق بالعقوبة، لأن قطع اليد لا يعاقب ويضر السارق المدان وحده، بل يصيب كل أفراد عائلته كما يصيب المجتمع، إذ تصبح الأسرة كلها عالة على المجتمع. ثم إننا نجد عددا كبيرا من النصوص القرآنية تعلن رحمة الله ومغفرته وتوبته على التائبين بنية صادقة . والتوبة الصادقة لا تزيل الأثر المادي والاقتصادي لقطع اليد عمليا في حياة التائبين والتائبات. وفي الفقه كان حد القطع أن تبلغ قيمة المسروق ربع دينار. وفي المصادرالإسلامية القديمة اختلافات كبيرة بين "العلماء"، لاطائل من وراء الانغماس فيها. وفي مواجهة هذا الواقع المعقد يطل علينا نص حديث نبوي يحدد التعويضات المقبولة شرعيا عن ضحايا الاعتداءات. ويلاحظ أن التعويضات لم تكن نقدية ، الكيان الإسلامي لم تكن له نقود من إصدار السلطات في داخله، وأكبر قيمة كان يملكها العربي الفرد في الجاهلية وفي صدر الإسلام كانت تتمثل وتقاس بعدد من الجمال، خاصة ذات الوبر الأحمر؛ ومن هنا نجد في الحديث النبوي عبارة "...خير لك من حمر النعم." أي الجمال الحمراء؛ وقد ورد نص الحديث النبوي الذي حدد التعويضات عما كان يسببه العدوان في كتاب الموطأ ، وهو ربما كان أول كتاب ظهر من المجموعات الحديثية، ومؤلفه هو الإمام مالك بن أنس :

"عن عبدالله بن أبي بكربن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه : إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم في العقول [أي الديات] :

" إن في النفس مائة من الإبل ، وفي الأنف - إذا أوعي جدعا - مائة من الإبل ، وفي المأمومة ثلث الدية ، وفي الجائفة مثلها ، وفي العين خمسون ، وفي اليد خمسون ، وفي الرجل خمسون ، وفي كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل ، وفي السن خمس ، وفي الموضحة خمس[398] ."

وفيا يلي توضيح لمعاني بعض الكلمات : (العقول = الديات)، (في النفس = في قتل النفس) ، (أوعي = إذا قطع كله) ، (المأمومة = الشجة القوية التي تصل إلى أم الدماغ) ، (جافته = وصلت إلى جوفه)، (مما هنالك = أيا من أصابع اليدين والرجلين)، (الموضحة = الشجة التي تكشف العظم) [399].

وفي رواية نقلها الإمام مالك عن ابن شهاب : في دية العمد - إذا قبلت - خمس وعشرون بنت مخاض ، وخمس وعشرون بنت لبون ، وخمس وعشرون حقة ، وخمس وعشرون جذعة [400] .

هذه سنة نبوية صحيحة قولا وفعلا، فهل كان على المجتمعات الإسلامية أن تحتفظ بهذه العقوبات والتعويضات الحيوانية ، وهل يعد تغييرهذا النوع من

---

[398] الإمام مالك بن أنس ، ***صحيح الموطأ***، إعداد الدكتور سليم بن عيد الهلالي (بيروت : دار ابن حزم ,2012م) ، 627.

[399] ***المصدر نفسه*** والصفحة ذاتها.

[400] ***المصدر نفسه*** ، ص 6228. ، وهذه أوصاف وتسميات للنوق (جمع ناقة) التي تؤدى ضمن الدية / التعويض عن الإصابات.

التعويضات تغييرا للدين والشريعة وعدوانا عليها ؟ وهل يمكن في عصرنا أن يبحث الناس عن بنت مخاض، وبنت لبون.. لكي يؤدي المعتدون تعويضات ، أو ديات ، أو غرامات عما يرتكبونه من اعتداءات جسدية ؟ نحن نعرف أن الإجابة الصحيحة هي النافية ، لكن الاستحالة لا بد أن تعطي الشرعية لمبدأ التغيير وتبيحه وتشجع على ممارسته.

وسنستعرض الآن مثالا حديثا ، ومختلفا يتعلق به تغيير التشريع نتيجة لتغير البيئة الاقتصادية والطبيعية والاجتماعية في عصرنا بالنسبة للسرقة وعقوبتها: فمقابل من كانوا يسرقون ربع دينار في العهد النبوي والعهد الراشدي ، وهم اللصوص الفقراء البسطاء، بما فيهم قطاع الطرق في الصحراء ، نجد في عصرنا الحديث أن هناك لصوصا يسرقون الملايين والمليارات بينما هم أنفسهم من أصحاب الملايين. ولم تعد السرقة باليد التي كان يستهدفها القطع قديما ، بل صارت السرقة بواحدة أو أكثر من الوسائل والأساليب التي ربما تبلغ المئات عدا:

قبل ما يقرب من ثلاثة أعوام تناولت بعض كبريات الصحف العالمية حادثة سرقة مفزعة ، لكنها لم تفزع أحدا في الدول الإسلامية المعاصرة ، لأنها صارت من الحوادث والأخبار المتكررة المعروفة والمألوفة : شخص ممن يملكون الملايين من مواطني إحدى الدول الغنية ، تدخل في إجراءات شراء حكومة بلاده أسلحة من شركة في دولة أوروبية كبرى ، فعطل إتمام الصفقة حتى تدفع له الجهة المصدرة مبلغ مليار دولار ، يمكن أن تسمى رشوة أو "خوة" أو ابتزازا. واضطرت الشركة المصدرة إلى الدفع حتى لا تفقد الصفقة الضخمة ، وبطبيعة الحال ، أضافت قيمة الرشوة (أو الابتزاز) إلى الثمن ، وتمت الصفقة، ولم تخسر الشركة المصدرة شيئا، وتحملت الخسارة الدولة المستوردة وشعبها وسمعتها وشرفها، بطريقة خداعية وغير مباشرة.

والأمثلة عن السرقات المليارية كثيرة ، وعن المليونية أكثر ... وهلم جرا.

فهل يجرؤ أي عاقل في أيامنا ، أو حتى أي أحمق ، أن يتكلم عن سرقة قيمتها ربع دينار يتلوها قطع يد السارق ؟

عـقوبة رجم الزناة :

أما عقوبة "الرجم" فيستند مـؤيدوها المتحمسون جدا إلى حديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم مناقضته للنص القرآني في قول الله تعالى: **((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مـئـة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين [401].))** ونقـرأ في نص آخر - مع اختلاف في المضمون - : **((واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا. والذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا**

---

[401] سـورة النور / 2.

وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما [402].)) والذي يبعث على الشك في صدقية الحديث الداعي إلى الرجم ليس مجرد مناقضته للنص القرآني الذي حدد العقوبة بمئـة جلدة ، أو الإمساك في البيوت (السجن) ، بل لأن نصا قرآنيا آخر حدد عقوبة الزنا للإماء بأنها نصف عقوبة المحصنات : ((**... فإذا أحصن فإن أتـين بفاحشــة فعـليهن نصف ما على المحصنات من العذاب**[403] ...)) وعقوبة الرجم المؤدي إلى الموت، انطلاقا من الحديث المتعلق بحكاية "ماعز والغامدية" لا تـنصف [بتشديد الصاد]، لأنها غير قابلة للتنصيف من الناحية العملية ، فـليس هناك "نصف موت" ، فهل من الممكن أن يأمر القرآن بعمل يستحيل تنفيذه ؟. وبجانب ذلك نجد حديثا منسوبا إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، جعلها تقول إن هناك آية قرآنية كانت تقرأ ثم نسخ نصها واستبعد من القرآن المكتوب ، مع استبقاء حكمها نافذا لم ينسخ ، وبداية النص هكذا: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا بما كسبا... ؛ " وحكاية " نسخ النص واستبعاده من القرآن والإحتفاظ بحكمه واجب التنفيذ" ، مع ركاكة صياغة "الحديث" الذي قيل "إنه نسخ" تفضح عبث المزورين واستهانتهم بعقول الناس البسطاء الأميين. ولماذا ينسخ النص إذا أريد الاحتفاظ بالحكم نافذا ؟ وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم نجد توجيها واضحا : "ادرأوا الحدود بالشبهات." ومعنى ذلك أنه في حالة وجود شبهة تخل بالاتهام عندها يصبح إسقاطه مندوبا ، أي أن إسقاط الاتهام هو الخـيار المرجح. هذاعن الأصول التشريعية المنبثقة من الكتاب والسنة. لم يكن هناك تلهف على استخدام أقصى العقوبات وتنفيذها بسرعة. ولعل الحديث النبوي التالي الذي أورده البخاري ومسلم يبين هذا المعنى بوضوح : "عن إسحــق عن أنس قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إني أصبت حدا ، فأقمه علي، ولم يسأله [النبي]، وحضرت الصلاة ، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله إني أصبت حدا، فأقم في كتاب الله. قال : "أليس قد صليت معنا ؟ قال نعم. قال فإن الله قد غفر لك ذنبك أو حدك." أورده البخاري في الحدود، كما أورده مسلم في التوبة[404]. ودعونا ننظر : على أي أساس أبلغ النبي الرجل بأن الله قد غفر له ذنبه. الأمر واضح تماما : المذنب شعر بذنبه وندم وتاب وأناب وتأكيدا لصدق مشاعر التوبة والندم سعى لأن يتطهر من ذنبه بتلقي العقوبة ، واتضح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأبلغه بالتوبة والمغفرة. ودلالة هذا الحديث لا توجه المسلمين إلى التلهف على تطبيق العقوبات الأشد والأعنف، بل توجههم إلى تشجيع اتباع مضمون الأيات الكثيرة التي تصف الله تعالى بأنه **تواب رحيم**.

عـقـوبــة الــردة :

---

402 ســورة النساء / 15 - 16.

403 ســورة النساء / 25.

404 الحميدي ، ***الجمع بين الصحيحين*** ، الجزء الثاني ، ص525.

ومن العقوبات التي ما زالت تحتفظ لها بمكان في كتب الفقه ، على الرغم من أنها لم تعد تمارس أو تطبق في المجتمعات الإسلامية ، عقوبة الردة : ويستند مؤيدوها إلى نص حديث نبوي : **"من بدل دينه فاقتلوه."** ، كما يستندون إلى أن الخليفة الراشد الأول، أبو بكر قد طبقها وحارب المرتدين حتى عادوا إلى الولاء والطاعه.

أين الخطأ ؟

العقيدة التي يؤمن بها أي إنسان مكانها العقل والقلب ولا تفرض بالإكراه والتخويف. والله سبحانه أعلن : أن **((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...))** ؛ والردة التي حدثت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كانت توجها وسعيا لإعادة القبلية لتكون الأنا الجمعي كما كانت قبل الإسلام ، أي هدفها كان نقض وهدم ما بناه الإسلام . وبجانب ذلك فإن قسما من المرتدين امتنعوا عن دفع الزكاة من غير أن يعلنوا تخليهم عن العقيدة . هذه كانت صورة المشهد العام عندما تولى أبوبكر الخلافة. وحدثت بعض حالات من الردة الفردية عقيديا ، فقد انشق بعضهم وترك مجتمع المسلمين وذهب إلى مكة وانضم لقريش. ولذا كان ردعهم ومعاقبتهم لحماية لحماية الدولة الإسلامية الناشئة بالنسبة للأفراد الذين انضموا إلى الأعداء المحاربين ، وكذلك للقبائل المرتدة ، وانتقال الفرد المرتد إلى صفوف الأعداء المحاربين أكثر من مجرد تغيير عقيدته. ولذلك فإن تطبيق العقوبات في العهد الراشدي والعهد النبوي ليست دليلا على وجوب إحياء وتطبيق هذه العقوبة في عصرنا.

مثال معاصر من تطور التفكير الفقهي والتشريعي:

وفي سياق متابعتنا لتطور الفكر الإسلامي وصلنا إلى فترتنا المعاصرة الحالية **ومن أبرز رموزها** الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الذي ظهر على مسرح العمل والفكر الإسلامي منذ خمسينات القرن العشرين؛ وهو معروف لدرجة لا تحوجنا إلى مزيد من التعريف به. تشرفت بلقائه أول مرة سنة 1966 وكان معه صديقنا المشترك الدكتور أحمد العسال رحمه الله. ومنذئذ استمرت الصداقة والاحترام المتبادل ، رغم تباعد الديار والمقار التي عاش فيها كل منا عبر السنين. وكان مصدر ومنطلق حبي وتقديري له أنه رجل صادق فيما يقول ويفعل ويعتقد أنه الحق، ويضع رضى الله سبحانه فوق كل هدف آخر، ولا نزكي على الله أحدا. وعبر السنين اختلفت معه في موضوعين: أولهما موقفه من فكر سيد قطب رحمه الله في الصورة التي تطور إليها في كتابه ***معالم في الطريق***، المنشور سنة 1964، وكان هذا موضوعا رئيسيا ، ثم في شأن ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عن رضاعة الكبير.

ففيما تعلق بآراء سيد قطب وتكفيره للمجتمعات الأسلامية وما رافق مجادلاته من ملاحق هامشية كنت بدأت معارضتي لها خلال الاجتماعات المغلقة منذ ربيع سنة 1967 ، ثم تحولت إلى نشر رؤيتي في بعض الصحف الإسلامية حتى وصلت إلى

الانسحاب وإنهاء صلتي بالإخوان المسلمين. وتفاصيل كثيرمن ذلك نشرت في أعداد مجلة الشهاب البيروتية (1972- 1973) تحت عنوان "الحركة الإسلامية في الدوامة"، كما يجد القارئ خلاصتها في كتابي الصادر سنة 1986 في الكويت بعنوان ***الحركة الإسلامية في الدول العربية***، وفي كتابي ***الإخوان المسلمون ، الحركة الأم ، دراسة نقدية***، الصادر في عمان - الأردن ، في شباط / فبراير 2014. ولقد كان موقف شيخنا الدكتور القرضاوي صادما بالنسبة لي، خاصة عندما قال بأنه لم يجد في كتاب سيد قطب ما ذكر عنه من التكفير ، ثم برر سكوته عن أفكار سيد قطب، بأنه لا يريد أن يتعرض لسيد قطب رحمه الله ودمه ما زال ساخنا آنذاك، بعد سبع سنوات من حادثة إعدامه [405]. وقد امتد صمت الدكتور القرضاوي عن التعرض لفكر سيد قطب حتى سنة 2009 ، وفي هذه السنة الأخيرة صدر كتابه: ***فقه الجهاد ، دراسة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة***. وقد تفضل شيخنا أكرمه الله بإهدائي نسخة من الطبعة الثالثة من ***فقه الجهاد***، مع عبارات اهداء جميلة كتبها بخط يده. وقد اتصلت به هاتفيا وشكرته. وكنت قبل ذلك قد أهديته نسخة من كتابي : ***حوار لإخواننا وأخواتنا الشيعة*** (عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى 2009.)

لقد استمر سكوته عن فكر سيد قطب خمسا وأربعين سنة (1964- 2009)، وبعد نهايتها نجده تناول ذلك الفكر في مقدمة الطبعة الأولى من كتاب ***فقه الجهاد*** ، ص 31 ، وفي فترة السكوت هذه تشعبت وظهرت معظم الأفكار المتطرفة التائهة الشاردة تحت وطأة الغضب البالغ حد الطيش. ولذلك تحرك الدكتور القرضاوي مسرعا - كما أخبرنا - أن ما أوجب عليه **"الإسراع بالبحث** في هذا الموضوع [فقه الجهاد] أمران :

1) ما يتعرض له الإسلام وأمته اليوم من غارة شعواء تريد اقتلاعه من جذوره ، فقد أعلنت عليه حرب لا هوادة فيها ...

2) غلو بعض الشباب المتحمسين في قضية الجهاد من الذين اشتركوا في المقاومة الأفغانية الباسلة، للشيوعية الغازية بزعامة الاتحاد السوفييتي ... فلما انهزم الاتحاد السوفييتي وانتصر الأفغان ... بدأت أميركا والأنظمة الحاكمة العربية والإسلامية ... تحاربهم ، وأصبح مجاهدو الأمس مجرمي اليوم، أمسوا يستقبلون من المطارات إلى المعتقلات ؛ فدفعوا هؤلاء الشباب دفعا إلى أن يتخذوا الغلو طريقا، ويحاربوا العنف بالعنف، قائلين : الشر بالشر يحسم والبادي أظلم. ولا ننكر أن منهم من آمن بفكرة العنف مع الغير كما آمن بها الخوارج من قديم. والفكر لا يقاوم إلا بالفكر، لا بالعصا والسيف." ومضى شيخنا القرضاوي في تعليقه : "وقد تكون نية هؤلاء الشباب حسنة ... ولكن الغلو إذا دخل أي شئ أفسده... فنشأ تنظيم القاعدة ، ونشأت السلفية الجهادية ... وأصبح لها (فقه) تروجه... وأمسى لهم تلاميذ ومعجبون

---

[405] أنظر كتابي: ***الإخوان المسلمون .. الحركة الأم .. دراسة نقدية*** (عمان،الأردن، 2014م)، ص 19- 199 و 222-234.

يريدون إعلان الحرب على العالمين [406]، وأيدهم بعض علماء الشرع ، فكان لا بد من الرد عليهم ... ولقد تحدث الكثيرون عن الجهاد فأساؤوا فهمه ... [ومن أمثلة ذلك] "تناول المودودي وقطب لقضية الجهاد :"

هنا فقط ، وبعد خمس وأربعين سنة من ظهور فكر سيد قطب ضمن كتاب ***معالم في الطريق*** ، سنة 1964، خرج شيخنا القرضاوي عن صمته ليتناول مقولات سيد قطب عن الجهاد ، تحت عنوان:

"مناقشة المودودي وسيد قطب في فكرة الجهاد الهجومي:

ناقشت المفكرين الإسلاميين الكبيرين : أبا الأعلى المودودي وسيد قطب في تبنيهما لمبدأ الجهاد الهجومي بناء على فلسفة وجوب إخضاع السلطات الطاغية ، والأنظمة الجاهلية للنظام الإسلامي. وإذا ووجهوا بالآيات الداعية إلى السلم وعدم قتال من لا يقاتل المسلمين قالوا : إنها (نصوص مرحلية) أو منسوخة **!**

وعيب هؤلاء المفكرين ومن تابعهم أمران :

أ- أنهم يتحدثون عن الأمر المختلف فيه وكأنه قضية إجماعية ، مع أن الخلاف في حكم جهاد الطلب موجود منذ عهد الصحابة ، فمنهم من قال: إنه نافلة لا فرض ، كابن عمر ، وكذلك من التابعين ، ومن الأئمـة. ومنهم من قال : كان فرضا على الصحابة ؛ ومن المتأخرين من فسر فرض الكفاية بأنه إعداد القوة العسكرية التي ترهب الأعداء وتحصن الثغور.

ب- والأمر الثاني : اتهامهم لكل من يخالفهم بالسذاجة والغفلة العقلية ، وبالهزيمة النفسية . والأستاذ قطب كان أشد على المخالفين من المودودي ؛ مع أن هؤلاء الذين يتهمون بأنهم مهزومون روحيا وعقليا أمام الاستشراق والتنصير هم علماء الأمة ودعاتها ، مثل محمد عبده ورشيد رضا والمراغي وشلتوت ودراز وخلاف وأبي زهرة وحسن البنا والسباعي والغزالي وعبدالله بن زيد المحمود وغيرهم". [407]

ثم انتقل الدكتور القرضاوي بعدها للحديث عن منهجه هو نفسه ، في استعراضه لموضوع فقه الجهاد[408] .

والحقيقة أن سيد قطب رحمه الله اعتمد - وبشكل أساسي واضح - على نص لابن القيم، محمد بن قيم الجوزية ، نقله عنه بطوله حرفيا [409]. فتحت عنوان : "الجهاد في سبيل الله" كتب سيد قطب :

---

[406] هذا فكر سيد قطب والمودودي ومن اتبعهم حديثا ، وهو ذاته فكر ابن القيم وكثيرين غيره من القدماء، أما الخوارج فركزوا حربهم ضد السلطات التي اعتبروها ظالمة أو فاقدة للشرعية، ولم يركزوا دعوتهم على فتح العالم وإجباره على الإسلام. وذلك فكر خاطئ في كل حالاته.

[407] الإمام يوسف القرضاوي ، ***فقه الجهاد : دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة*** (القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثالثة)، الجزء الثاني ، ص 1357 - 1358.

[408] القرضاوي ، ***فقه الجهاد***، جزء 1 ، ص32.

[409] انظر سيد قطب ، ***معالم في الطريق*** (القاهرة : مكتبة وهبة ، نوفمبر 1964) ، ص75 - 77 حيث نقل سيد قطب النص حرفيا عن كتاب ***زاد المعاد*** لابن القيم، وبدأ حديثه عن الجهاد هكذا : "لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في "زاد المعاد" في الفصل الذي عقده ..." :

"لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام فـي "***زاد المعاد***" في الفصل الذي عقده باسم"فصل في ترتيب هديه مع الكفاروالمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل: أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى، أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه. ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه : يا أيها المدثر قم فأنذر، فنبأه بقوله : إقرأ، وأرسله ب ((يا أيها المدثر)) ، ثم أمره أن ينـذر عشـيرته الأقـربـين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم مـن العـرب [410] ..." وقد أحال الدكتور القرضاوي قـراء ه إلى ص 414 من المجلد الأول من ***فقه الجـهاد*** نفسه. وأمامي الآن صفحة 414 من الجزء الأول بينما أكتب هذه الكلمات ، وفي رأس زاويتها اليمنى، عنوان : **"الداعيان الكبيران المودودي وسيد قطب "**، وتحت هذا العنوان كتب شيخنا القرضاوي ما نجتزئ منه نصا بأنهم ممن : " تأثروا في نظرتهم إلى الجهاد - وإن لم يريدوا - بفلسفة الشيوعية - ونظريتها (الثورة العالمية) التي تريد أن تغير العالم ... لا أعني أن هـؤلاء [يقصد المودودي وقطب] متأثرون بالشيـوعية ، فهم أعداؤها ... ولكنهم تأثروا بنظريتها ..." ، وبعد بضعة أسطر خط الدكتور القرضاوي عنوانا آخر جانبيا : اقتبس تحته نصا طويلا من كتاب ***في ظلال القرآن*** ،يشابه ما دونه سيد قطب في ***معالم في الطريق*** ، وقد امتد ست صفحات ، ليحال بعدها القارئ إلى الجزء التاسع من كتاب ***ظلال القرآن*** ، وبعدها عنوان جانبي آخر : "تعقيب ومناقشة" وامتد التعقيب والمناقشة ثلاث صفحات ونصف . ولم يكن مناسبا أن أنقل هنا شيئا من هذه الصفحات من كتاب شيخنا القرضاوي ، حيث يستطيع من شاء من القراء أن يتتبعها في مصدرها الأصلي.

وهنا عند هذه النقطة وجدت أن من واجبي أن أتوقف لأعلن مخالفتي لإستاذنا القرضاوي ، لأنه ذهب بعيدا في مقولته بما نسبه إلى المودودي وقطب من التأثر بالنظرية الشيوعية ، من غير أن يكونا شيوعيين **!**

لقد ورد نص سيد قطب في ***معالم في الطريق*** منقولا حرفيا كما هو في مصدره الأصلي كتاب ***زاد المعاد*** ، لابن القيم. وعندما ننظر في رسالة الجهاد للمودودي لا نجد هذا النص لا بمعناه العام ولا بحرفيته ، كما أن المودودي لم يشر إلى كتاب ابن القيم. ومع ذلك فإننا نجد في نص المودودي فكرة فرض نظام الحكم الإسلامي على جميع الدول والأمم، فقد كتب يقول: " ... الإسلام لا ينظر إلى مصلحة أمة دون أمة، ولا يقصد النهوض بشعب دون شعب... وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم، وله فكرة خاصة ومنهاج عملي اختاره لسعادة المجتمع البشري والصعود به ألى معارج الفلاح, فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ومنهاج غير هذا المنهاج يقاومها الإسلام ويريد أن يقضي عليها قضاء مبرما... فإن غايته استعلاء فكرته وتعميم منهاجه ... والإسلام يتطلب الأرض ولا يقتنع بجزء أو قطعة منها ، وإنما يتطلب

---

[410] هذا النص نقلته من الطبعة الأولى من كتاب ***معالم في الطرق*** ، وقارنته مع النص الأصلي في *زاد المعاد* ص 422- 425. ونسختي من ***زاد المعاد*** طبعة حديثة في مجلدين صادرة عن دار ابن حزم في بيروت سنة 2005 م.

ويستدعي المعمورة الأرضية كلها، ولا يتطلبها ليستولي عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة معينة ، بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية... وتحقيقا لهذه الغاية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لإحداث انقلاب عام شامل ويبذل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى...[411]"

ومن هذا النص المقتبس مما كتبه المودودي يتأكد لنا أنه يتفق مع رؤية سيد قطب في فكرته العامة ، ولكن نصه لم يتضمن أية إشارة تحملنا على افتراض أن أحدهما نقل عن الآخر، أو أنهما كليهما نقلا عن ابن القيم. والمودودي لم يكتب باللغة العربية وإنما كان يكتب باللغة الأوردية ، فنصه مترجم. والطبعة التي بين يدي لا تحمل اسم المترجم ، وهي من إصدار الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، وتحمل عنوان : ***الجهاد في سبيل الله.*** وتاريخ الإصدار 1970 ، وقد جمعت الطبعة ثلاثة نصوص في مجلد صغير واحد (73صفحة) : أولها لإبي الأعلى المودودي ، والثاني لحسن البنا، والثالث لسيد قطب. لم أقرأ كثيرا للمودودي ، لثد قرأت كتابه ألمصطلحات الأربعة في القرآن ، ثم كتاب ***الجهاد في سبيل الله.***

أما عن مؤلفات سيد قطب فقد قرأت كل ما استطعت الوصول إليه منها ، كتبا ومقالات ، لقد كان سيد عندي في فترة الخمسينات من القرن الماضي - الكاتب الأول المفضل ، فكتبه : ***العدالة الاجتماعية في الإسلام*** ، و ***معركة الإسلام والرأسمالية*** ، و***خصائص التصور الإسلامي ومقوماته*** ، ***و دراسات إسلامية*** [وهو مجموعة مقالات منشورة في مجلات ودوريات صدرت في فترات سابقة] ، بل وكتابه المعنون: ***النقد الأدبي أصوله ومناهجه*** ، كل أولئكم وغيره كان مما حرصت على اقتنائه وقراءته ، بجانب مقالاته التي كانت تنشر في الدوريات الإسلامية في فترة الخمسينات. لكن صدور كتابه : ***معالم في الطريق*** سنة 1964 كان الحد الفاصل بين موقفين. حقيقة يمكن أن تقال أن سيد قطب كان معتدا بنفسه وبفكره وأسلوبه أكثر مما تسمح به قدراته الحقيقية ، لكن اتهامه وتصويره بأنه كان متأثرا بالنظرية الشيوعية يفتقر إلى وجود أي دليل.

لقد انضم سيد قطب إلى الإخوان المسلمين سنة 1953 - كما أخبرنا الدكتور فريد عبدالخالق - حاملا معه كل مقومات ثقافته السابقة [412] ؛ وكان سيد قطب عقاديا ؛ نسبة إلى الأديب والمفكر الليبرالي عباس محمود العقاد ، صاحب ***العبقريات*** ، مدافعا عن أدب العقاد وفكره. والعقاد غربي الهوى ، لبراليا. لذا فإن نسبة سيد قطب إلى التأثر بالنظرية الشيوعية تعد خطأ كبيرا أرجح أنه تسرب من خلال حالة ارتخاء عقلي ولم يخضع للمراجعة فيما بعد.

---

[411] أبو الأعلى المودودي ، ***الجهاد في سبيل الله*** ، الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، 1970 ، ص 14 - 15.

[412] الدكتور فريد عبدالخالق ، ***الإخوان المسلمون في ميزان الحق*** ، القاهرة : دار الصحوة، 1987، ص 109 - 110.

أرجو أن لا تغضب ملاحظاتي هذه أستاذنا الشيخ الدكتور القرضاوي، وأن يضعها في خانة الحوار، أو النقد البناء أو **"الدين النصيحة"** ، وذلك هو ما أومن به وأفعله، وما يحملني على الاستمرار في النقد بعيدا عن المجاملات . وقد أخطئ أحيانا، لكنني أنقد نفسي وألومها قبل الإقدام على نقد الآخرين. وقد خصصت في كتابي هذا ، الذي بين يدي القارئ ، فصلا كاملا بعنوان (النقد البناء: نقد الذات ونقد الآخر[413]). وكتاب ***فقه الجهاد*** كتاب طويل وواسع المدى شغل مجلدين كبيرين بلغ مجموع عدد صفحاتهما 1646 صفحة من القطع الكبير .

وفي محاولتي لتتبع تموجات الفكر الإسلامي عبر القرون تعرضت لموضوع الجهاد في صفحات قليلة ، إذ أن هذا الموضوع مجرد تفرع صغير من الموضوع الرئيس للكتاب.

ونعود إلى حديثنا عن ما فرضه ويفرضه تبدل أحوال المكان والزمان وظروف المجتمع والجغرافيا. ومثالنا الجديد هنا بعيد عن موضوع العقوبات والحدود - تضمنه تقرير نشرته جريدة الغاردين البريطانية اليوم (الأحد الثالث من شهر تموز / يوليو - 2016) بعنوان : "صوم رمضان في المنطقة القطبية ، الصوم في أرض تكون فيها الشمس ساطعة في منتصف الليل" ، ومدة غياب الشمس بين الغروب وشروق اليوم التالي ساعتان فقط ؛ وهكذا يأتي شهر الصوم حاملا معه تحد. وقد نشرت الجريدة صورة المسجد في بلدة إكالوت Iqaluit الواقعة في المنطقة القطبية شمال كندا ، "حيث تصارع المجتمعات الإسلامية الصغيرة، التي تعمل هناك، ظروفا جغرافية فريدة [414]" تصل فيها البرودة إلى درجة 52 تحت الصفر المئوي. ويتحدث التقرير عن بلدات ومجموعات إسلامية أخرى في الشمال الكندي ، وعن خياراتهم في توقيت الصلاة والصيام والإفطار بين اتباع التوقيت الذي اختاره المسلمون في العاصمة الكندية أوتاوا، أو خيار أولئك الذين فضلوا اتباع توقيت مكة والمدينة. ولم أشأ أن أتتبع هذا التقرير بأي تفصيل تجنبا للإطالة في موضوع فرعي. وقبل ما يقرب من سنة نشرت جريدة ***دايلي صباح*** التركية في طبعتها الإنكليزية تقريرا موجزا عن نفس المشكلة إذ واجهتها الجاليات الإسلامية في مساجد مدينة ريكيافيك ، عاصمة جمهورية أيسلندا[415] المطلة على الدائرة القطبية الشمالية. هذه كلها مشكلة تعرضت لها مجموعات مسلمة صغيرة ، تمس مواقيت العبادات الأساسية ، الصلوات والصيام ، فكان لا بد أن تجتهد تلك المجموعات الصغيرة لنفسها وتنفذ ما اقتنعت به وتحدث التغيير ولا تنتظر الفتاوى القادمة من بعيد . ولم يكن الاجتهاد موحدا ، لكنه كان

---

413 أنظر الفصل الخامس من كتابي هذا الذي بين يدي القارئ ، ص 159 - 176.

414 www.theguardian.com/world/2016/jul/03/Ramadan-arctic-fasting-hours-sunlight.

415 ذكر التقرير أن فيها ثلاثة مساجد ، أحدها للمسلمين الأتراك وآخر للعرب.

ضرورة فورية، وتغيرت الممارسة بالانتقال من غير الممكن عمليا إلى الممكن. والاجتهاد لم تكن له سوابق أو أمثلة سابقة من تاريخ المجتمعات الإسلامية.

أما بالنسبة للتغيير السلوكي الذي اقتضاه الإسلام في المنطقة الصحراوية العربية التي ظهر فيها أولا: الحجاز وتهامة ونجد والأحساء ، فقد كانت الحقائق الجغرافية والاقتصادية ، والتقاليد القبلية مجسدة في قوالب وتقاليد راسخة جامدة ومستمرة اعتاد الناس عليها . ولم يتجاهل التشريع الإسلامي الناشئ ذلك الواقع بل تعامل معه برفق وتدرج، لأن العقيدة والإيمان والسلوك القويم لا تفرضان بالقوة والدفع المقترن بالضغط والعنف. ومن خلال هذا المنظور كان تعامل المسلمين الأوائل مع حالات مثل وضع المرأة ، ووجود الرق، وغير ذلك مما أومأنا إلى بعضه إيماءات سريعة في صفحات سابقة. وقد تواصلت التغيرات الشاملة في المجتمعات الإسلامية بعد القرن الأول من الهجرة مدفوعة بالعنف تارة ، وطورا بالتدرج الهادئ ، وذلك ما تابعته بتفصيل أكبر في كتبي السابقة. واستمر الوضع كذلك إلى أن حلت مفاجأة الحروب الصليبية ، ومن بعدها اجتياح أراضي دولة الخلافة على أيدي المغول بقيادة هولاكو ، وإنهاء الخلافة العباسية في بغداد ، واجتياح العراق والشام. ثم تسارع انهيار قوة العالم الإسلامي بعد انتهاء دولة الأتابكة ثم دولة الأيوبيين ومن بعدها المماليك.

انقلاب موازين القوى على المستوى العالمي:

لقد فاز عالم الغرب في ميادين السباق السلمي والعلمي منطلقا مما اكتسبه ونقله من عالم الإسلام دون أن يقف عند حدود ما نقل. فقبل عصر النهضة الأوروبية افتتحت دولة أوروبية صغرى، وهي البرتغال ، عصر الكشوف الجغرافية ، مبتدئة بالساحل الغربي لأفريقيا وتابعت عمليات الاستكشاف حتى وصل فاسكو داغاما إلى كاليكوت على السواحل الشرقية لشبه القارة الهندية ؛ وعلى أثر ذلك فرضت البرتغال سيطرتها على منطقة الخليج العربي سنة 1507م [416].

ثم دخلت إسبانيا ميدان السباق البحري حين تبنت رحلة ماجلان المتجهة غربا عبر المحيط الأطلسي سعيا للوصول إلى ما يعرف الآن بـ (ماليزيا) ، بين سنتي (1519 - 1522 م وبدأت متجهة غربا واختتمت عائدة من الشرق إلى الغرب ، فأثبتت كروية الأرض عمليا بعد أن كانت معروفة نظريا وفلكيا فقط. وقد التحقت بريطانيا وهولندا بالسباق البحري منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي ، ومنذئذ صارت المحيطات ميدانا

---

[416] أنظر عبدالله أبوعزة ، ***الخليج العربي في العصر الإسلامي ، دراسة تاريخية وحضارية***، (الكويت: مكتابة الفلاح، 2001م.) ، ص474 - 484.

لنشاط الدول الأوروبية وحدها بشكل حصري ، إلى أن دخلته الولايات المتحدة فصارت الناشط الأكبر[417].

أما في ميدان العلوم الطبيعية فقد بدأ التقدم بما زرعه روجر بيكون من مبادئ البحث العلمي وتواصل بعد ذلك باكتشاف غاليليو، الإيطالي، للميكروبات باستخدامه المنظارالمكبر (الميكرسكوب) الذي اخترعه ، ثم بداية اكتشاف كوبرنيكس، البولندي، في ميدان علم الفلك، باستعمال منظاره المقرب (التلسكوب) ، وتتابعت الاكتشافات على يد إسحاق نيوتن ، وما اكتشفه غيره من باحثين كثيرين ؛ وهكذا ولد العالم الجديد [418]. ودخلت الدول الأوروبية الغربية في سباق بيني في حقل الاكتشافات العلمية وتوظيفها العملي لخدمة الإنســان ؛ فكان اكتشاف قــوة البخار والكهرباء والذرة ... الخ، وما زال هذا السباق يتسارع ويأتي كل يوم بجديد. ومقابل هذا استمر عالم الإسلام سادرا في تعاليه الأجوف ، مزهوا بقوته في ميادين الحرب والقتال، غير آبه بالانفجارات العلمية التي شهدها وظل يشهدها عالم الغرب في سرعة تتابعها، وكان نجاح غوتنبرغ في اختراع الطباعة منتصف القرن الخامس عشر الميلادي وما إدى إليه من سرعة توافر الكتب المطبوعة .

قيـام الـدولـة العـثـمـانــيــة وانـهيارها :

ولقد ورثت الدولة العثمانية كل مخلفات انهيار الحضارة الإسلامية، بما فيها "حالة الفكر الإسلامي" ، كما ورثت القيادة في عالم الإسلام ومارستها بقوة بعدما أزاحت ما تبقى من حطام الدولة الرومانية البيزنطية سنة 1453، ثم ما تبقى من دولة المماليك خلال سنتي 1516 - 1517م. كما ورثت الخلافة العباسية البديلة التي أنشأها المماليك في مصر، وكانت وظلت خلافة شكلية وهمية. ومن ناحية أخرى احتفظ العثمانيون بتفوقهم العسكري حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي ، لكنهم كانوا دولة برية انطلقت موجات مدها الأولى من سهوب وسط آسيا ؛ ومع أنها أنشأت لها قوة بحرية فيما بعد إلا أنها افتقرت إلى الأسس العلمية التي قام عليها التقدم وتنمية

---

[417] خاصة بعد افتتاح قناة بنما سنة 1914م.

[418] أنظر كتاب Edward Dolnick, ***THE CLOCK WORK UNIVERSE, Isaac Newton, The Royal Society and the Birth of the Modern World***, New York: Harper Perrinial, 2012,pp. 1-50.

وتوالد عناصر القوة عبر الأجيال في الدول الأوروبية ، كما عجزت الدولة العثمانية عن منافسة ومواجهة الدول البحرية العريقة في ميدان المحيطات. وتزامن كل ذلك مع تآكل قوتها على الأرض وانحدارها السريع أواخر القرن الثامن عشر الميلادي لأسباب خارجية وأخرى داخلية ؛ العوامل الخارجية تمثلت في ظهور قوة روسيا التي توسعت بنهشها المتتابع للمناطق العثمانية. وتزامن ذلك مع ثورات شعوب البلقان ، حيث اضطر العثمانيون إلى قبول شروط معاهدة قنارجي الصغرى في تموز/يوليو 1774 وكانت شروطا مذلة [419] ؛ فعندما نقرأ النص الكامل للمعاهدة بموادها الإحدى والعشرين ، نجد أن مادة أضيفت للنص منفصلة، سميت بهذا الإسم (مادة منفصلة) ، تفرض أن يدفع الباب العالي العثماني للإمبراطورية الروسية تعويضا عن خسائرها في الحرب التي وقعت بين الدولتين واستمرت ثلاث سنوات ، مقدارها خمسة عشرألف محفظة[420] ، وقيمتها بالعملة الروسية اربعة ملايين وخمس مائة ألف روبل ، على أن تؤدى ضمن ثلاثة أقساط في تواريخ محددة : القسط الأول في اليوم الأول من يناير 1775 والثاني والثالث في أول يناير من السنتين التاليتين . وما لبثت روسيا إلا قليلا حتى ضمت شبه جزيرة القرم إلى ممتلكاتها سنة 1783- 1784، من غير أن يجرؤ الباب العالي على الاعتراض.

أما العوامل الداخلية فقد كان تأثيرها أكثر وأعمق ، فقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر انحدارا أكثر خطورة بالنسبة للدولة العثمانية حيث وصلت إلى وضع لم يمتنع فيه سقوطها إلا بمساعدة روسيا التي تقمصت دور المنقذ ، فلما ظهرت روسيا مصدرا أكثر تهديدا صار لبريطانيا والنمسا دور الإنقاذ !

محمد علي باشا يتولى حكم مصر:

ولد محمد علي في بلدة " قوله" على ساحل مقدونيا ، سنة 1769م. التي كانت آنذاك من أراضي الدولة العثمانية. وفي سنة 1798 وجه الى مصر للمشاركة في التصدي للاحتلال الفرنسي بقيادة نابليون ، ضمن قوة من المجندين غير المحترفين ، غير نظامية (باشبزك) ، فكان أحد ضباطها. وأثناء المعارك التي جرت ضد قوات نابليون في مصر وبلاد الشام ظهرت مواهبه القيادية وشجاعته ، وظل يترقى متصاعدا في المناصب القيادية حتى عينه السلطان واليا على مصر سنة 1808 ، فصار باشا ولاية مصر ، أكبر ولايات الدولة. ونظرا لبعد مصر عن استنبول فقد كان من الصعب احتواؤها ضمن مراقبة ومتابعة دقيقة من جانب الباب العالي، بينما لم يكن باشا مصر الجديد ، محمد علي، مثل أي وال مغامر شامي عادي. لقد أدرك الباشا الجديد بسرعة

---

[419] M.S. Anderson, ***Thr Great Powers and the Near East 1774-1923 ,*** M.S.Anderson, ed., (London, Edward Arnold Publishers), pp.8-14

[420] fifteen thousand purses

التفوق الكبير للأوروبيين على العثمانيين في كثير من الجوانب ، وكان إعجابه بالفرنسيين هو الأكبر ، ولذلك فسرعان ما أدخل في خدمته عددا كبيرا من الضباط والمهندسين الفرنسيين بعد انسحاب نابليون والحملة الفرنسية من مصر والشام ليستخدمهم في بناء دولته الخاصة وجيشه الخاص ، مع الحرص على أن يكونا أمتن وأمنع من دولة وجيش السلطان. وكانت ثروة ولاية مصر، وبعدها عن استنبول مما يسر له الوصول إلى مبتغاه سريعا.

لكن ثمة خطر آخر ظل يخيفه ، وهو بقايا المماليك ! لقد صار المماليك حكاما لمصر بعد سقوط بغداد بإيدي المغول سنة 656هـ/1258م. وظلوا يحكمونها حتى سنة 1517م. حيث استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول وضمها إلى جسم الإمبراطورية العثمانية ، فبقي المماليك مجرد أرستقراطية قديمة انهزمت وأعلنت ولاءها للسلطان. غير أن الباشا محمدعلى لم يشعر بالأمان مع وجودهم ولذلك قرر التخلص منهم، فدعاهم لمأدبة في القلعة حيث قضى عليهم بمذبحة لم ينج منها أحد. لكن العقبات أمام برنامج باشا مصر لم تنته بالتخلص من المماليك ؛ فقد كانت مصر أكبر الولايات ، ومن أغنى الولايات كذلك ، والباب العالي توقع منها ضرائب وأموالا كبيرة ، بينما الباشا أراد المال لبناء جيشه الخاص وتنفيذ برنامجه وإقامة دولته؛ وهكذا تهيأ الموقف للصدام ، وانطلقت الشرارة على أثر خلاف بين محمد علي ووالي عكا ، فأرسل السلطان محمود جيشا لإخضاع باشا مصر المتمرد سنة 1831م. ، غير أن جيش محمد على الذي اعتمد في تأسيسه على الضباط والمهندسين والمستشارين الفرنسيين، وقاده ابنه إبراهيم أنزل بقوات السلطان عدة هزائم منكرة، سريعة ومتتابعة، حتى بدا أن طريق وصوله إلى إستنبول واجتياحها صار مفتوحا وذلك ما أوقع البادشاه (السلطان) في حالة من اليأس والفزع دفعته إلى الاستغاثة بـ "أخيه الطيب" نيكولاس الأول قيصر روسيا. وقد استجاب القيصر، فرحا بهذه الفرصة الثمينة، فدفع بالأسطول الروسي حاملا خمسة عشر ألف جندي ليتخذوا مواقعهم على شواطئ البسفور لحماية العاصمة العثمانية. وقد شكلت هذه الحركة الحمائية الروسية المفاجئة صدمة هزت أعصاب، وحركت مخاوف جميع السياسيين والدبلوماسيين في بريطانيا وفرنسا والنمسا ، إذ بدا لهم أن الدولة العثمانية على وشك السقوط بيد روسيا قبل أن تؤمن تلك الدول الثلاث مصالحها وأهدافها. وهكذا اتجهت إلى الضغط على محمد علي لحمله على التوقف، فلم يستطع إلا الإذعان ، كما أنها ضغطت على السلطان العثماني لتسوية خلافاته مع والي مصر ، ففعل، ومن أجل ذلك ترك له بلاد الشام كلها بما فيها ولاية عكا، وترك له بجانبها ولاية أضنة ومحيطها لتكون كلها ضمن الأراضي الخاضعة لحكمه ، وذلك سنة 1833 . وهنا صار على روسيا أن تسحب أسطولها وجنودها. غير أنها استغلت حالة الفزع التي تلبست السلطان فجعلته يوقع على معاهدة أنكيار

سكلسي[421] Unkiar Skelessi 1833م. وقد جرت زخرفة نص المعاهدة بعبارات الصداقة والتعاون ونجدة الجانب الآخر في حال تعرضه للعدوان ، وكان مما التزم به السلطان: أن يغلق الدردنيل في وجه السفن المعادية لروسـيا إن طلبت منه موســكو ذلك [422]. وكان هذا مما أزعج الدول الأوروبية الثلاث إذ رأت أن البحر الأسود صار بحيرة روسية مغلقة وبيد روسيا مفتاحها.

ورغم قبول استنبول والقاهرة بوقف الحرب لم تمض سوى بضع سنوات حتى اندلع الصدام مجددا (1839- 1840)؛ لقد أساء إبراهيم محمد علي، نائب والده في الشام ، التعامل مع الزعامات المحلية في بلاد الشام فانفجرت ثورات شعبية متعددة ضد حكمه. وفي الوقت نفسه كان السلطان محمود قد عمل على إصلاح وإعادة تدريب وتسليح الجيش العثماني ، حتى ظن أنه صار قادرا على إخضاع محمد علي الذي امتنع عن تحويل أموال الولاية المستحقة إلى إستنبول، ولذا أمر السلطان جيشه الجديد بالهجوم ، لكن هزيمة ساحقة أشد من سابقاتها حلت بقوات السلطان في معركة نصيبين ، حيث وقع اثنا عشر ألفا من جنودها في الأسر ، وغنم إبراهيم وجيشه مائة وستين مدفعا ، وخمسة وعشرين ألف بندقية. ومات السلطان قبل أن تصله تفاصيل أخبار هذه الهزيمة ، وحل محله في منصبه ابنه ، عبدالمجيد وعمره ست عشرة سنة. وفي هذه الحالة صار وزيره (رئيس الوزراء) هو الذي يدير شئون الدولة ويعد نصوص القرارات والأوامر ليذيلها السلطان الصغير بتوقيعه. وكان الوزير الذي ترك محمود ابنه القاصر في رعايته هو رشيد باشا الذي كان قد عمل سفيرا لدولته في لندن فاكتسب بذلك خبرات ومعارف اعتمد عليها في ممارسة الحكم بجانب السلطان الشاب ، وكانت أول المشاكل التي انتصبت أمامه خطر طموحات محمد علي ومشاريعه.

ولو أراد الباحث أن يكتشف أي دور للفكر الإسلامي في تلك الظروف الصعبة التي واجهتها الدولة الإسلامية الكبرى في ذلك العصر، دولة الخلافة ، فلن يكتشف غير الغياب التام لأي تأثير لهذا الفكر. لقد كان مما روته بعض المصادر أن نفرا من الغيورين على الإسلام أشاروا على السلطان بإصلاح الموقف مع والي مصر المتمرد ، ولو بإظهار بعض اللين ، لكن السلطان محمود لم يعر هذا الرأي اهتماما ، وأمر قواته بالهجوم فكان ما كان من حجم الهزائم وتوابعها كما ذكرنا[423]. لقد ورثت الدولة العثمانية كل الفقه واللا فقه الذي تسيد وتجذر طوال القرون الستة الأولى من التاريخ الإسلامي ، وأهم عناوينه طاعة ولي الأمر - مهما فعل إلا إذا أعلن أنه كافر زنديق، والعنوان الثاني عدم الاعتراض على الكبراء أو مناقشة تعليماتهم. ومن غير المجدي أن نحاول البحث عن أسباب تدهور قوة الدولة العثمانية وعجزهاعن التجدد والصمود

---

[421] وهذا اسم قرية صغيرة على جانب البسفور أطلق اسمها على المعاهدة التي تم التوقيع عليها فيها.

[422] ***The Great Powers and the Near East 1774 - 1953***, ed. by M.S. Anderson (Edward Arnold, London 1970), p.42. أنظر نص المادة الأولى من المعاهدة

[423] William S. Davis, ***A Short History of the Near East*** (new York: the Macmilan Co.1943) 304-305.

في غيرهذا التراث الذي آل إليها منذ نشأتها. وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي عادت مشكلة القرم إلى واجهة الأخبار بعد أن انتزعتها روسيا بوتن من أوكرانيا وضمتها إلى أراضيها رسميا سنة 2014م ، وما زالت المشكلة قائمة تنذر باحتمال نشوب حرب عالمية.

ثم تلت ذلك شروط معاهدة سان ستيفانو ، ومن بعدها معاهدة برلين في تموز/يوليو 1878، حيث أجبر العثمانيون على الاعتراف باستقلال صربيا ورومانيا واليونان [424] إذ افتقرت القيادات العثمانية إلى رؤية استراتيجية لتعطي هذه الأقطار استقلالها وتقيم معها علاقات سلام وجوار قبل تدخل روسيا والدول الأوروبية الأخرى. وقد استمر هذا التراجع حتى سقطت الدولة العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918 ، بعد أن انضمت إلى الجانب الخاسر. وتخبرنا وثيقة من وثائق الأرشيف البريطاني كانت سرية ، أن ألمانيا دفعت رشوة كبيرة من النقود الذهبية إلى أنور باشا ، وصلت بالقطار الذي قدم من برلين إلى إستنبول ، وفي اليوم التالي مباشرة أعلنت استنبول انضمام الدولة العثمانية إلى الجانب الألماني في الحرب العالمية الأولى التي كانت قائمة آنذاك.

الفصل الثاني عشــر

الفكر الأوروبي الحديث يقتحم الفضاء الإسلامي:

وبعد أن انكشف ضعف العالم الإسلامي وافتضح عريه من كل عوامل القوة أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وبدأ الحكام والشعوب في عالم الإسلام يدركون فرق القوة، والعلم والثقافة مع عالم الغرب ، أخذت الأبواب تنفتح للتواصل مع هذا

[424] *المصدر نفسه* 286 - 287.

الغرب الذي كان مجهولا [425]. وما لبثت السيطرة الغربية ، السياسية والثقافية أن فرضت نفسها ووجودها دون استئذان، خاصة بعد الغـزو الفرنسي لمصر واحـتلالها بـقيادة نابوليون بونابرت سنة 1798م. وكان من أوائل ما بدا من مظاهرالتأثر بالغرب ماكتبه رفاعة رافع الطهطاوي وتسجيله انطباعاته بعد أن عاش في فرنسا فترة قصيرة أثناء حكم محمد علي باشا ، ثم عاد إلى مصر، وألف كتابه " ***تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز*** " الذي نشر في القاهرة سنة 1834م. وقد وصف فيه شيئا مما اعجبه واثار اهتمامه في حياة المجتمع الفرنسي بعد الثورة والقضاءعلى الملكية ونظام الطبقات وإعلان الجمهورية في فرنسا. وحيث أن لفظة "الجمهورية" لم تكن قد دخلت لغة الكتابة العربية فقد أطلق رفاعة الطهطاوي على الجمهورية الفرنسية الجديدة اسم : "مشيخة الجمهور الفرنساوي."

الأفغاني[426] ومدرسته :

وكان ممن نفي إلى فرنسا وعاش فيها فترة قصيرة السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده ، حيث أصدرا مجلة ***العروة الوثقى***. وقد انطلقت دعوة الإفغاني في مساق معاداة الاستعمار البريطاني، وإنهاض العالم الإسلامي دون التقيد بالأطر السلفية، والمذهبية. وقد عده مؤيدوه من السنة سنيا ولم ينف ذلك عن نفسه ، بينما هو إيراني المولد وشيعي المنشأ ، تعلم في إيران وفي العراق (النجف)، لكنه في تحركاته وأنشطته لم يحمل راية مذهبية. لقد كان شعاره إحياء الأمة، أمة الإسلام بمجملها ودعوة العلماء إلى القيام بدورهم ؛ أما القلوب فعلمها عند علام الغيوب.

السيد محمد رضيد رضا :

وكان السيد محمد رشيد رضا قد ولد سنة 1865 م.لأسرة مسلمة سنية في بلدة القلمون[427] الساحلية الواقعة إلى الجنوب قليلا من مدينة طرابلس اللبنانية ، وعاش حتى سنة1935م. وكان كل واحد من رجال أسرته ينعت بلقب "السيد". وقد كانت بداية تعليمه في القلمون حيث تعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم. ثم انتقل إلى

---

[425] عن مرحلة تعرف العالم العربي والإسلامي على الحضارة الغربية الحديثة ننصح بالاطلاع على كتاب ***الحياة الفكرية في المشرق العربي*** 1890 - 1939 م. ، إعداد مروان بحيري ، وبمشاركة 14 باحث قدموا 14 بحثا، والكتاب من إصدار مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، ، 1983 .

[426] هذا هو الإسم الذي اشتهر به، لكن البحث التاريخي بين أنه ولد في إيران ودرس فيها وفي العراق، ونشأ شيعيا ، غير أن أنشطته وخطابه السياسي والديني وكثرة ممن استجاب له وتابعه كل ذلك جعله شخصية إسلامية عامة ، وذلك ما عبرت عنه دعوته.

[427] مـررت بها أول مرة سنة 1966 وكنت بصحبة الأخ والصديق الدكتور فتحي يكن ، رحمه الله ، وقد نبهني عندئذ بقوله : هذه بلد السيد محمد رشيد رضا . وبعد ذلك تكرر مروري بها كلما قصدت طرابلس. و"القلمون" اسم يطلق أيضا على المنطقة الجبلية الواقعة على الحدود السورية اللبنانية التي تكرر ذكرها كثيرا في أخبار الثورة السورية 2011 - 2017 .

مدرسة حكومية رسمية في طرابلس كانت الدراسة فيها باللغة التركية. وبعد ذلك انتقل إلى مدرسة خاصة في طرابلس أيضا ، كان صاحبها ومديرها الشيخ حسين الجسر، من خريجي الأزهر. وكانت مواد الدراسة فيها تجمع العلوم الدينية وغيرها ، وفي هذه المدرسة الخاصة أمضى ثماني سنوات ، حتى سنة 1882. وكان يواظب على قراءة الصحف والمجلات التى تركز على الموضوعات الحديثة والمعاصرة ، ومنها مجلة المقتطف. ، وما لبث إلا قليلا حتي صار يكتب وينشر مقالاته في بعض تلك الصحف [428] ؛ كما كان يواظب على قراءة مجلة ***العروة الوثقى*** في الوقت نفسه. وقد كان السيد رضا ضمن التيار المعارض لسياسات السلطان عبدالحميد الثاني، ومن الموالين لحركة تركيا الفتاة ، إذ كان حسن الظن بها في أول شبابه وهو ما زال بعد في مرحلة التكوين. وهكذا اضطر إلى مغادرة لبنان واللجوء إلى مصر التي كانت خارج السيطرة العثمانية. وفي مصر أصدر رشيد رضا مجلة ***المنار*** متبنيا اتجاها إسلاميا شاملا لا يخلو من مسحة سلفية ، خاصة بعد أن تكشفت له الاتجاهات الحقيقية لتركيا الفتاة.

الإخوان المسلمون :

ويعتبر فكر الإخوان المسلمين امتدادا وتطورا لفكر وتوجهات السيد محمد رشيد رضا ، حيث نجد موثقات هذه الصلة فيما ذكره مؤسس الحركة ومرشدها حسن البنا الذي أخبرنا أنه أصدرمجلة شهرية سماها ***الشمس*** وهو ما زال بعد طالبا بمدرسة المعلمين بدمنهور، قبل دخوله كلية دار العلوم التابعة لجامعة القاهرة. وكان من دوافعه لإصدار تلك المجلة "التشبه" بمجلة المنار، التي كان كثير المطالعة فيها. وأثناء دراسته في كلية دار العلوم كان حسن البنا يتردد على دار المنار ، كما كان يحضر "في بعض مجالس الأستاذ السيد رشيد رضا ونلقى فيها الكثير من الأعلام الفضلاء." وبعد وفاة رشيد رضا اهتم حسن البنا بأن يستمر صدور مجلة المنار . وعندما تعثرت ثانية وتوقفت عن الصدور "عز على الإخوان أن يخبو ضوء هذا السراج المشرق بالعلم والمعرفة من اقتباس الإسلام الحنيف ، وحرصوا على معاونة ورثة السيد رحمه الله على إصدار المنار من جديد. وصدر العدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين في غرة جمادى الآخر سنة 1358 هـ الموافق 18 يوليو 1939م.، أي قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر ، وتلاه خمسة أعداد أخرى تمت بها السنة الخامسة

---

428 ***The Princeton Encyclopedia of Islamic Political thought***, 2013, art. "Ridh ..."

والثلاثون من المجلة. ثم صدر أمر الحاكم العسكري في حكومة حسين سري باشا بإلغاء الترخيص [429]. وهكذا انتهت مجلة ***المنار*** وصارت من التاريخ.

وكبر حسن البنا وأنهى دراسته الجامعية في كلية دار العلوم وعين مدرسا في وزارة التربية ، وأسس جماعة الإخوان المسلمين سنة 1928م. ، وكان من خطابه لتلامذته وإخوانه وشعب بلاده أن "دعوة الإسلام وتعاليمه شاملة ، تنظم شئون الناس في الدنيا والآخرة ... فالإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، ودين ودولة، وروحانية وعمل ، ومصحف وسيف ، والقرآن الكريم ينطق بذلك ويعتبره من لب الإسلام." [430].

وتناول الإمام البنا مشكلة الوجود البريطاني في مصر مشددا على مطلبي شعب مصر بجلاء القوات البريطانية ، ووحدة وادي النيل ، منبها إلى أن "المفاوضات والتحكيم والوسائل السلمية لم تعد مجدية لحمل الإنجليز على الاستجابة لمطالب مصر الوطنية ... ولم يبق إذن إلا "النبذ على سواء [431] " ، بأن نعلنهم بالخصومة الصريحة السافرة ، ونقرر في صراحة إلغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات واتفاقات، ونعلن اعتبار أمة الوادي[432] معهم في حالة حرب (ولو سلبية) وننظم حياتنا على هذا الاعتبار... إن كل دولة اعتدت وتعتدي على أوطان المسلمين دولة ظالمة ، لا بد أن تكف عدوانها، ولا بد أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها" [433].

ومع هذا الموقف الواضح ضد التسلط الغربي نجد أن حسن البنا لم يتردد في الدعوة إلى الاستفادة من خبرات الغرب، سواء في النواحي السياسية والتنظيمية والإدارية ، أو في النواحي العلمية والصناعية ؛ وفي هذا السياق أشار بوضوح ألى أن مبادئ الحكم الدستوري التي توصلت إليها المجتمعات الغربية "تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم" ، ومضى إلى القول بأن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم - القائمة في العالم كله - إلى الإسلام"؛ وأعلن صراحة : "ليس في قواعد النظام النيابي ما يتنافى مع القواعد التي وضعها الإسلام

---

429 حسن البنا ، ***مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا*** ، (رسالة ***مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي***) ، ص342 ضمن المجموعة.

430 ***المصدر نفسه*** (رسالة المؤتمر الخامس)، ص 153.

431 إشارة إلى التوجيه في الآية 58 من سورة الأنفال : "وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين." أي إنهاء الاتفاقات السلمية السابقة نتيجة لظهور خيانة العهد من جانب الطرف الآخر.

432 يعني الشعبين المصري والسوداني.

433 المصدر نفسه ، ص 329-330 و 293-294 و 296 و399 - 402.

لنظام الحكم، وهو - بهذا الاعتبار ليس بعيدا عن النظام الإسلامي ولاغريبا عنه. [434]"
ومعنى ذلك بكل وضوح أن مؤسس حركة الإخوان المسلمين ومرشدها الأول أيد وفضل ودعى إلى تبني نظام الحكم الدستوري والنيابي بدلا من كل الأنظمة والممارسات السياسية الفاسدة التي عرفتها البلاد العربية والإسلامية في القرن العشرين ، ولم تمنعه مشاعره العدائية للاستعمار من الدعوة لتبني نظام الحكم الدستوري في المجتمعات والدول الإسلامية.

وبعد وفاة حسن البنا وانقضاء جيله يأتي رئيس الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي ، وهو من تلاميذ حسن البنا ، ليواصل إضاءة الطريق لمن تبنوا الخيار الإســلامي ، وفي هذا السياق تناول علاقة الإسلام بالديمقراطية، في كتاب له صدر سنة 2007م ، جعل عنوان أحد فصوله :" دولة الإسلام دولة مدنية مرجعيتها الإسلام" [435]، وعنوان الفصل التالي له "الدولة الإسلامية دولة شورية تتوافق مع جوهر الديمقراطية [436]." وبعد سنتين كانت للشيخ القرضاوي إطلالة أخرى من خلال كتاب جديد ، ***فقه الجهاد*** ، فكان مما نبه إليه ودعا إلى احترامه وتبنيه : "... ظهور مواثيق دولية أصبحت موضع احترام العالم كله في الجملة ، مثل ميثاق حقوق الإنسان [437]، وميثاق الأمم المتحدة وغيرهما. ومنها ظهور مؤسسات دولية اعترف بها العالم وشارك فيها ، مثل هيئة الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن الدولي ومحكمة العدل الدولية، وهيئة اليونسكو وتوابعها [438]..."

لكن هذا التبني والتقدير الذي أبداه مؤسس حركة الإخوان ومرشدها الأول لخيار نظام الحكم الدستوري والـنـيابي لم يجد طريقه إلى الانتشار الواسع في تفكــير جماهيرالإخوان ، بل لقد وجد في صفوف الشريحة العليا المتعلمة من إخوان مصر وغيرها من البلاد العربية ، وبعضهم أساتذة جامعات و متخصصون في القانون ، تبنوا مبدأ حكم القائد الفرد المستبد الذي لا يلتزم بمخرجات الشورى وما تفرزه من موقف ورأي جمعي ؛ وقد علق كاتب هذه السطور في مواجهات بسبب هذه المشكلة.

---

434 حسن البنا، ***مذكرات الدعوة والداعية***، (بيروت : الطبعة الثانية ، 1966)، ص 130.

435 الدكتور يوسف القرضاوي ، ***الدين والسياسة .. تأصيل ورد شبهات*** (د بلن : المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، 2007)، ص134- 136.

436 ***المصدر نفسه*** ، ص 145 - 155 .

437 الميثاق العالمي لحقوق الإنسان صدر بموجب قرار الجمعية العامة للإمم المتحدة رقم 141/48 سنة 1993.

438 مجلس الأمن الدولي، ومحكمة العدل الدولية ، واليونسكو - أي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة - كلها فروع للأمم المتحدة ، تتبعها وتخضع لإشرافها.

فقه الجهاد : دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة (القاهرة: مكتبة وهبة، 2009) ، ص

وتجنبا للإطالة في هذا البحر الواسع من ميادين البحث سأكتفي بالإحالة إلى بعض الأمثلة السابقة ، وأولها ما رويته ضمن كتابي ***مع الحركة الإسلامية في الدول العربية***[439] ، ثم ثلاث مقالات بعنوان : "الشورى أم الا ستبداد " ، نشرتها في مجلة ***المجتمع*** الكويتية ، الأعداد رقم 36 - 38 شهري رمضان وشوال 1390م. ، ثم خمس مقالات نشرتها في مجلة ***الشهاب*** البيروتية تحت عنوان "الحركة الإسلامية في الدوامة" ، 1972- 1973 ، وأثارت ردود فعل متنوعة. وبعد اثنتي عشرة سنة قام أحد "الشطار" في دولة مغربية بشمال أفريقيا ، فجمع تلك المقالات ونشرها بنفس العنوان باعتبارها من تأليفه ، وذلك سنة 1985 وصدرت عن دار البراق للنشر في تونس.

الشيخ محمود شلتوت:

شيخ الأزهر بين سنتي 1958م. و 1963 ، وهو من مواليد سنة 1883 كان أكثر من تولوا مشيخة الأزهر علما وفطنة ووضوحا وعقلانية في مخاطبة الناس؛ ترك عددا من المؤلفات المتميزة بوضوح الرؤية وسلامة العرض، من بينها :***- الإسلام عقيدة وشريعة*** ، ***- الإسلام والوجود الدولي*** ، ***- القرآن والقتال*** ، بالإضافة إلى تفسير للقرآن الكريم لم يمتد به العمر لإكماله. غير أن تأثيره الفكري لم ينتشر على نطاق واسع مثلما انتشر فكر البنا والقرضاوي ، لأن شلتوت لم ينشئ جماعة أو حركة ، أو تنظيما شعبيا سياسيا-دينيا يواصل حمل رسالته؛ ومع ذلك فإن فكره ليس بأدنى من فكر أي منهما بأية درجة، وربما كان أكثر شمولا وعمقا. وقد رأيت أن عدم التنويه بذكره سوف يخل بالصورة التي قصدت أن أعرضها للفكر الإسلامي ، متوازنة متناسقة ، رغم أنني لم أتوسع في استعراض آثاره الفكرية. وغني عن القول أننا لا نستطيع أن نستعرض كل الأسماء والأعمال ، ولذا ينحصر ما نستعرضه بتقديم بعض الأمثلة.

دستور مصر سنة 2012 م.:

والمثال الأخير الذي نختتم به هذه الدراسة هو **دستور مصر** الذي صدر سنة 2012 م. ونكتفي باستعراض ديباجته (مقدمته) ، لما تعكسه من رؤية شاملة.

---

[439] عبدالله أبو عزة ، ***مع الحركة الإسلامية في الدول العربية*** (الكويت : دار القلم ، 1986) ، ص 216 - 221.

لقد شارك في صياغته ومناقشته وإقراره خمسة وثمانون من ممثلي الشعب المصري المنتخبين، أكثريتهم نواب في البرلمان، في فترة كان الحكم فيها للإسلاميين ، ولهم الأغلبية في مجلس النواب ، وهو بهذا يعتبر أبرز مثال للفكر الدستوري والقانوني الإسلامي السائد ، والذي يمكن أن يكون مقبولا من أغلبية المسلمين ، في فترتنا المعاصرة من التاريخ. وسنكتفي هنا باستعراض نصوص المبادئ الإثني عشر التي وردت في مقدمة الدستور (الديباجة) وجرى النص رسميا على اعتبارها جزءا منه :

"هذا هو دستور مصر ...

أولا : السيادة للشعب صاحب الحق الوحيد في تأسيس السلطات التي تستمد شرعيتها منه، وتخضع لإرادته ، وتلتزم حدود اختصاصها ومسئولياتها الدستورية ، وتحمي المال العام، وتحافظ على موارد الدولة، وتوفر أركان العدالة في توزيعها ، وتعلي مبدأ أن الوظائف والمناصب العامة، هي مسئوليات وصلاحيات وليست حقوقا ولا التزامات للقائمين عليها الذين يعملون في خدمة الشعب ورعاية مصالح المواطنين.

ثانيا **:** ديمقراطية نظام الحكم التي ترسخ التداول السلمي للسلطة وتوسعه وتعمق ء التعددية السياسية والحزبية ، وتضمن نزاهة الانتخابات وإسهام الشعب في صنع القرارات الوطنية.

ثالثا : حرية المواطن في كل جوانب حياته فكرا وإبداعا ورأيا وسكنا وأملاكا وحلا وترحالا ، عن اقتناع كامل بأن هذه الحرية حق سماوي وضع الخالق أصولها وثوابتها في حركة الكون ، وخلق الإنسان حرا ، وجعله أرقى مخلوقاته على الأرض وأكثرها ذكاء وحكمة.

رابعا : المساواة أمام القانون وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين والمواطنات دون تمييز أو محاباة أو وساطة ، وبخاصة في مجالات التعليم والتوظيف ومباشرة الحقوق السياسية والتمتع بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، وإعطاء الأولوية لتحقيق العدالة الاجتماعهية.

خامسا : سيادة القانون أساس الحكم في الدولة ، تضمن حرية الفرد ، ومشروعية السلطة، وخضوع الدولة وغيرها من الأشخاص للقانون ، والتزامها باستقلال

القضاء ، وألا يعلو أي صوت على قوة الحق ليبقى القضاء المصري شامخا صاحب رسالة سامية في حماية الدستور وإقامة موازين العدالة وصون الحقوق والحريات.

سادسا : احترام الفرد حجر الأساس في بناء الوطن ، وكرامته امتداد طبيعي لكرامة هذا الوطن ، ولا كرامة لوطن لا تكرم فيه لا تكرم فيه المرأة ؛ فالنساء شقائق الرجال ، وهن حصن الأمومة ونصف المجتمع وشريكات في كل المكتسبات والمئوليات الوطنية.

سابعا : الوحدة الوطنية فريضة واجبة على الدولة والمجتمع ، وهي قاعدة الاستقرار والتماسك الوطني وركيزة بناء الدولة المصرية الحديثة وانطلاقتها نحو التقدم والتنمية. ويرسخ هذه الوحدة الوطنية نشر قيم التسامح والاعتدال والوسطية وكفالة الحقوق والحريات لجميع المواطنين دون تفرقة بين أبناء الجماعة الوطنية ،

ثامنا : الدفاع عن الوطن شرف وواجب وطني تحشد له الموارد البشرية والاعتمادات المالية ، وللقوات المسلحة مكانة خاصة راسخة في وجدان الشعب المصري ؛ فهي الدرع الواقي للبلاد ، وهي مؤسسة وطنية محترفة محايدة لا تتدخل في الشأن السياسي، ولا يجوز لسواها إنشاء تشكيلات عسكرية أو شبه عسكرية ، أو ممارسة أي نشاط ذي طابع عسكري.

تاسعا : الأمن نعمة كبرى تسهر عليه أجهزة الأمن لماية الشعب وفرض موازين العدالة ، فلا عدل بلا حماية ، ولاحماية بغير مؤسسات أمنية قادرة على فرض هيبة الدولة في ظل احترام كامل لسيادة القانون وحقوق الإنسان.

عاشرا : السلام العادل للعالم أجمع، والتقدم السياسي والاجتماعي لكل الشعوب ، والتنمية الوطنية المستقلة التي لا تحدث إلا بإطلاق جميع الإمكانات والملكات الخلاقة والمبدعة للشعب المصري العظيم الذي سجل في كل العصور إسهاماته البازغة في أداء دوره الحضاري لنفسه وللإنسانية قاطبة.

حادي عشر : الوحدة أمل الأمة العربية ، وهي نداء تاريخ ودعوة مستقبل وضرورة مصير ، لا تتحقق إلا في حماية أمة عربية قادرة على ردع أي تهديد خارجي مهما كانت مصادره والدعاوى التي تسانده، ويعضد هذه الوحدة تحقيق التكامل

والتآخي مع مجموعة دول حوض النيل والعالم الإسلامي التي تشكل امتدادا طبيعيا لعبقرية الموقع والمكان الذي تشغله مصر على الخريطة الكونية.

ثاني عشر : تأكيد دور مصر الفكري والثقافي الرائد في العالم كله وفي المنطقة المحيطة بها ، الذي تجسده القوة الناعمة التي قدمت ولا تزال تقدم نماذج العطاء المصري فكرا وفنا وإبداعا ، ومن الواجب أن تعطى الأولوية لحرية مبدعيها وأمن مفكريها ، ومسئولية الدولة عن رعايتها في مؤسساتها العريقة ؛ في جامعاتها ومجامعها العلمية واللغوية ومراكزها البحثية وصحافتها وفنونها وآدابها وإعلامها ، وكنيستها الوطنية ، وأزهرها الشريف الذي كان على امتداد تاريخه قواما على هوية الوطن ، راعيا للغة العربية الخالدة والشريعة الإسلامية الغراء، ومنارة للفكر الوطني المستنير."

وقد بلغ مجموع مواد الدستور مائتين وسبع وستين مادة، وجرى التصويت على كل مادة منفردة ، وحظي أكثرها بالإجماع، ولم يصل عدد الأصوات المعارضة لأية مادة منها إلا أقل من عشرة أصوات.

الخـاتـمـة

في الفصول السابقة استعرضنا الظروف التي أحاطت بنشأة الفكر الإسلامي ، وتناولنا ظهور وأصول مكوناته الأساسية الثلاثة : القرآن والسنة وعمل الصحابة؛ وفي أثناء ذلك تطرقنا إلى التحركات والأنشطة المعادية التي قامت بالعبث والتشويش والتخريب لتعطيل مسيرة الكيان الإسلامي الناشئ من خلال تشويه مكوناته وأصوله الفكرية الأساسية ، وأضافت إلى ذلك العبث بتفسير القرآن ، ثم بالروايات التاريخية ؛ هذا بجانب استعراضنا لأمثلة الخيارات والرؤى الخاطئة التي تبنتها الأجيال المتتابعة من القيادات الفكرية في المجتمعات الإسلامية. وبعد ذلك سلطنا الضوء على الآثار التي انبثقت تلقائيا من خلال حركة التوسع وانضمام مجموعات بشرية من ثقافات وحضارات أخرى إلى جسم الدولة الإسلامية الناشئة المتنامية ، ثم تتبعنا التفرق

والتشرنق الفكري بين أتباع المذاهب والجماعات والفرق الدينية والمتصوفة، وما صدرعن المشايخ من تعاليم منع النقد لكبارهم ، وفرض الانصياع لتعليماتهم ، مما أدى إلى تراكم الأخطاء وسد أية طرق أومسارب للإصلاح ، فكان التحنط والعجز والشلل ، والضياع هي الثمار المرة التي نعلكها الآن. وربما ظن بعض القراء أنني أهملت ذكر الفكر الشيعي ضمن فصول هذا الكتاب. والحقيقة أنني لم أهمله ولم أسه عنه ، بل تعمدت ذلك لأنني تناولت موضوع الفكر الشيعي في كتاب خاص مستقل، ***حوار لإخواننا وأخواتناالشيعة***، صدر سنة 2010 ، كما سبق أن بحثت تاريخ **دولة قرامطة البحرين** في فصل رئيسي من كتابي ***الخليج العربي في العصر الإسلامي - دراسة تاريخية وحضارية*** (ص 135 - 150)، ولذا لم استحسن تكرار الموضوع هنا لعدم وجود إضافات جديده تبرر العودة إليه.

وربما لا يخفى على كثيرين من القراء أن استعراضنا الواسع لأمثلة كثيرة جدا من النصوص والاقتباسات من كتابات عدد كبير من رموز المذاهب والفرق والتيارات المختلفة كان لا بد أن يؤثر على مدى سلاسة وانسيابية التعبير ، إذ كان من الضروري والمحتم أن يكون التعبير عن فكر كل فرقة بلغة وأسلوب أصحابها، وليس بلغتي وأسلوبي لكوني المؤلف.

ولم نهمل التنويه بما أفرزه الفكر الإسلامي المعاصر تحت وطأة موجات التغريب والاستغراب التي استهدفت المجتمعات الإسلامية خلال القرنين الماضيين، وإن اكتفينا بإشارات سريعة لمحاولات الإصلاح وردود الفعل في مواجهة آثار ضغوط السيطرة الغربية ، حتى وصلنا إلى سنة 2012م ، وتناولنا الدستور الذي صاغه البرلمان المصري المنتخب الذي فاز الإسلاميون المصريون بأغلبية مقاعده ، فكان من المنطقي أن نعتبر ذلك مشهدا أخيرا من تجليات الفكر الإسلامي في عصرنا.

وحتى لا يكون حديثنا مجرد آهات تنفث التحسرات ولا تزيل المرض المزمن ولا تخفف الألم المضني فقد حرصنا على المساهمة في توجيه الاهتمام والوعي إلى ضرورة الشروع في مرحلة متجددة مستنيرة ومستهدية بأساسيات البداية الأولى ، تتجنب المزالق التي دفعتنا إلى الأنفاق المعتمة والانحباس فيها نحو الموت البطئ .

والله نسأل أن يكون عملنا خالصا لوجهه ، إنه سميع مجيب.

13 أذار2017 **عبدالله أبوعزة**

للأخ والصديق عيد الدرد يسي الشكر الجزيل لحرصه على أن يصدر هذا الكتاب بطباعة متقـنــة ، وإخراج جميـل ولمتابعته ذلك بكل اهتمام وعناية .

أهم الــمصـــادر والــمــراجــع

القرآن الكريم

محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح

مسلم بن الحجاج القشيري ، الجامع الصحيح

الحميدي ، ***الجمع بين الصحيحين*** ، تحقيق الدكتور أحمد البواب

بيروت : دار ابن حزم ، الطبعة الثانية ، 2002

مالك بن أنس ، ***موطأ الإمام مالك*** ، رواية يحيى الليثي ـ بعناية أحمد راتب عرموش، بيروت : دار النفائس ـ 2009.

---------- ، ***صحيح الموطأ*** ، إعداد الدكتور سليم بن عيد الهلالي، بيروت: دار ابن حـزم ، 2012.

الكتاب المقدس، جمعية الكتاب المقدس ، بيروت ـ ساحة النجمة ، 1970.

إبن إسحاق ، محمد ، ***السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق*** ، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004

ابن هشــام ، عبدالملك ، ***السيرة النبوية لابن هشام*** ، بيروت : مؤسسة المعارف، 2007م.

الأشعري ، أبو الحسن علي، ***الإبانة عن أصول الديانة***

--------------، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، بيروت: دار صادر 2008.

-------------- ، ***الإبانة عن أصول الديانة*** ، بيروت : دار النفا ئس ، 1994

الألباني ، محمد ناصر الدين ، ***تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي ومعه مناقب الشام وأهله لشيخ الإسلام ابن تيمية*** ، دمشــق المكتب الإسلامي ، 1405هـ .

ابن باز، موقع الشيخ عبدالعزيز بن باز على الإنترنت.

بحيري ، مروان (محرر ومقدم): ***الحياة الفكرية في المشرق العربي*** ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1983,

البسيوني ، عبدالسلام ، ***العقلانية : هداية أم غواية*** ، المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، 1992.

البيهقي، أحمد بن الحسين ، ***الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة*** ، القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر ، 1961.

إبن تيمية ، أحمد . ***رفع الملام عن الأئمة الأعلام*** ، دمشــق : المكتب الإســلامي، 1398 هـ.

------------ ***الــعــبــوديـــة*** ، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1389.

ابن جـبر ، مجاهد. ***تفسير مجاهد بن جبر***، بيروت : دار الكتب العلمية، 2005.

الجيلاني ، عبدالقادر. ***الغـنية لطالبي طريق الحق*** ـ بيروت : دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، د.ت.

ابن حزم ، عــلي. ***الإحكام في أصول الأحكام*** ، بيروت : دار الكتب العلمية، 2010 ,

هاشم معروف الحسيني ، ***الموضوعات في الآثار والأخبار ، عرض ودراسة ،*** بيروت : دار التعارف للمطبوعات ، 1987 .

الحنبلي ، عبدالرحمن بن رجب ، ***القواعد في الفقه الإسلامي*** ، صيدا - بيروت : المكتبة العصرية ، 2005 .

ابن خزيمة ، المظفر: ***الناسخ والمنسوخ*** ، نشر ملحقا بكتاب ***الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم*** لأبي جعفر النحاس ، صيدا - بيروت : المكتبة العصريةن 2007م.

ابن خلدون، عبدالرحمن ، ***المقدمة*** (***مقدمة كتاب العبر***) ، بيروت: دار الفجر للتراث 2004 م.

السيوطي ، عبد الرحمن. ***تاريخ الخلفاء***، القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى 1952م.

---------------- ***الإتقان في علوم القرآن***، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، 1952.

السيد سابق ، ***فقه السنة***، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1992م.

الشافعي، محمد بن إدريس . ***الرسالة*** ، تحقيق محمد احمد شاكر، القاهرة :مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية 1979.

--------------- ـ ***أحكام القرآن*** ، بعناية إبراهيم محمد المغني، المنصورة : مكتبة الإيمان، 2008.

الشاطبي ، إبراهيم بن موسى. ***الموافقات في أصول الشريعة*** ، بيروت: دار الكتاب العربي - 2008

ابو الحسين هلال بن المحسن الصابي ، ***رسوم دار الخلافة*** ، بغداد : مطبعة العاني، 1964 م. - 1383 هـ

العثيميين ، محمد بن صالح ، ***مصطلح الحديث*** :، الرياض : مكتبة المعارف، 1404 هـ.

إبن العربي ، أبوبكر محمد بن عبدالله ، ***العواصم من القواصم*** ، بعناية محب الدين الخطيب القاهرة : لجنة الشباب المسلم ، د.ت.

--------------- ، ***قانون التأويل*** ، بعناية محمد السليماني، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، 1990.

-------------***الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم***، بيروت، دارالكتب العلمية 2006.

إبن قتيبة، عبدالله بن مسلم ، ***تأويل مشكل القرآن*** ، بيروت: دارالكتب العلمية 2007م.

ابن القيم ، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ***زاد المعاد في هدى خير العباد*** ، بيروت : دار ابن حزم ، الطبعة الثانية 2005م.

--------------- ، ***أعلام الموقعين عن رب العالمين*** ، بيروت : دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، 2004م

------------- ، ***الطرق الحكمية في السياسة الشرعية*** ، بيروت : شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ، الطبعة الأولى 1999م.

ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل، ***البداية والنهاية***، القاهرة: مكتبة الصفا ، 2003م.

------------ ، الباعث الحثيث مختصر شرح علوم الحديث ، تح. أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية ...

------------ ، تفسير القرآن العظيم ، صيدا- بيروت: 2013م.

القرضاوي ، الشيخ الدكتور يوسف ***-فقه الجهاد*** ، القاهرة : مكتبة وهبة ، 2009.

--------- ، ***الدين والسياسة ، تأصيل ورد شبهات*** ، دبلن : المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث ، 2007.

سيد قطب ، ***معالم في الطريق*** ، القاهرة :مكتبة وهبه ، 1964.

--------- ***هذا الدين*** ، القاهرة ، دار الشروق

--------- ***المستقبل لهذا الدين*** ، القاهرة ، دار الشروق,

اشافعي ، الإمام محمد بن إدريس ، ***أحكام القرآن*** ، جمع مادته أحمد بن حسين البيهقي، المنصورة : مكتبة الإيمان 1430هـ / 2009 .

ابو شـــهبة ، الدكتور محمد ، ***الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير*** ، بيروت ، دار الجيل للطباعة والنشر ، 2005 م.

الطيري، محمد بن جرير. ***تاريخ الطبري*** ، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة 2005.

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب ، ***الأحكام السلطانية والولايات الدينية*** ، بيروت: دار الكتب العلمية ، 1985.

د. خلف محمد المحمد ، ***مصطلحات علم أصول الفقه***، بيروت : مؤسسة الريان للطباعة والنشر ، 2004 .

النفيسي ، د. عبدالله فهد، (مشارك ومحرر ومقدم) : ***الحركة الإسلامية : رؤية مستقبلية ، اوراق في النقد الذاتي*** : الكويت ، 1989م.

عبدالله أبو عـزة ، ***حوار لإخواننا وأخواتنا الشيعة*** ، عمـان (الأردن)، 2009م.

------------ ، ***إنهيار الحضارة العربية الإسلامية وسبيل النهوض***،عمان، 2013

-------------- ، ***الخليج العربي في العصر الإسلامي*** ، دراسة تاريخية وحضارية ، الكويت مكتبة الفلاح ، 2001.

---------- ، ***الإخوان المسلمون : الحركة الأم ، دراسة نقدية*** ، عمان/الأردن ، 2014 م.

---------- ، ***مع الحركة الإسلامية في الدول العربية*** ، الكويت : دار القلم ، 1986.

M.J.Aitken et al, Editors, ***The Origin of Modern Humans and the Impact of Chronometric Dating,*** Princeton, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1993.

Charles Darwin, ***the Descent of Man***, Kindle edition, part 1

William S. Davis, ***A Short History of the Near East***(New York, Macnukkan Co. 1943).

Anderson, M.S. , ***The Great Powers and the Near East 1774-1923***, Edward Arnold (publishers) ltd., 1970.

St. Augustine, ***On Grace and free Will***

----------------, ***The City of God***,

---------------, ***Confessions***,

Plutinus, ***The Enneads,*** trans. by Stephen Mckenna, Penguin Classics, 1991.

Dolnick, Edward, ***The Clockwork Universe, Isaac Newton, The Royal Society, and the Birth of the Modern World,*** New York: Harper Perennial Pupblishers, 2012.

